

ابن قُتيبة

العالم الناقدا الأديب

بقلم

الدكتور عبد الحميد سند بجدي

تصدير

كنا ابان الطلب بكلية الآداب نقرأ أمشاجا من النصوص الأدبية مع أساتذتنا في كتب مختلفة ؛ فكنا نقرأ في بعض السنين في كتابي « البيان والتبيين » للجاحظ و « الكامل » للمبرد . وفي السنة التالية كنا نعالج نصوصا في كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، فأحسست بونا شاسعا بين هذا الكتاب والكتابين الآخرين . فالجاحظ والمبرد يرصّان المعارف رصّا في غير ترتيب أو نظام ، وكأنها سوانح أو خواطر متباينة يدوّنانها حسب ورودها . أما ابن قتيبة فقد راعى منه عمل مرتب منسق ، برىء من القوضى كما فعل زميلاه ، بحيث يستطيع الباحث أن يجد ضالته في غير عسر أو مشقة . فأعجبت بالمؤلف أشدّ إعجاب ، وأدركت أنه من طراز آخر له عقلية مصقولة وذهن منظم .

وقد رحلت أبحث عن سر ذلك ، وبخاصة أن المؤلفين الثلاثة كانوا متعاصرين ، فعرفت أن ابن قتيبة كان عالما غزير العلم واسع المعرفة ، وأدركت أنه لم يترك لونا من ألوان الثقافة العربية الا تناول منه قدرا طيبا ، وأنه أخذ بحظ ضخم من الثقافة الفارسية ، ونال قسطه من الثقافات الأخرى التي عرفت في ذلك الحين . فخلق ذلك كله منه رجلا خصب العقل ، صقيل الذهن ، منسق الفكر .

وعرفت كذلك أنه كان بطلا من أبطال المسلمين ، لم يمنعه
نسبه في العجم من أن يحبس نفسه على الدفاع عن العرب ورد
كيد الشيوعية في صدق وإخلاص .

وزادني إعجابا بالرجل أنه كان مستقيم الجادة ، طاهر
النفس ، عميق الإيمان ، شديد الحب لدين الله ولنبيه الكريم ،
وقد حمل لواء الدفاع عن أهل السنة في زمنه ، ووقف يصد عنهم
سهام المتكلمين وغيرهم ممن كانوا يعتبرون في نظره من المارقين .
فالرجل كان في الواقع سياجا منيعا يحمي الدين من ضلال
العقول التي أتيج لها أن تفكر على نحو حر حديث ، بسبب ما طرأ
عليها من فلسفة اليونان ومنطقهم .

ولم أكد أخطو خطوات في دراسة ابن قتيبة حتى وجدته
بين الأثر في انشاء الموسوعات العربية . ولا أجاوز الصدق
إذا قررت أنه هو الذي وضع اللبنة الأوليات في بناء هذه
الموسوعات التي أكمل صرحها الفلقشندي في « صبح الأعشى » .
وقد زادني ذلك اقبالا على دراسة هذه العالم الأديب في شغف
شديد ، وزادني إيمانا بأن هذا الرجل الذي لم يأخذ حظه من
عناية الباحثين جدير بالدرس الواعي المتد .

وقد وقع في يدي رسالة وضعها بالانجليزية الدكتور اسحاق
موسى الحسيني عنوانها : "The Life and Works of Ibn
Qutaiba (حياة ابن قتيبة وآثاره) " (١) ونال بها درجة الدكتوراه

(١) ترجمت هذه الرسالة أخيرا إلى اللغة العربية .

من جامعة لندن . وهى رسالة موجزة جدا لا تتجاوز التسعين
صفحة من القطع الصغير . ولما تصفحتها وجدتها لا تعدو أن تكون
لمحات خاطفة لبعض نواحي ابن قتيبة لا تكاد تشفى غليلا . فقد ترك
أمورا مهمة ما كان ينبغى أن يتركها ، مثل دراسة عصر ابن قتيبة
من نواحيه المختلفة وأثره فى تكوينه ، ومثل وصف كتبه وصفا
يتناول مناهجها وموضوعها ، ومثل تحليل المواقف العدائية التى
وقعها ابن قتيبة من أرباب المذاهب والنحل الأخرى ، كأهل رأى ،
والمتكلمين ، ومشكلة خلق القرآن ، ومثل عقد مقارنات بينه وبين
أدباء عصره المشهورين . . وغير ذلك من الأمور التى كانت أخلق
بالدرس والعناية . فرسالة الدكتور الحسينى فى الواقع لا تريد
على بحث دسم من البحوث التى يقوم بها الطلاب أثناء دراساتهم
الجامعية . وتلك الرسالة كانت — فيما أعلم — كل حظ ابن قتيبة
آنذاك من دراسة الباحثين والأدباء .

لذلك عولت على أن أدرس هذا العالم الأديب الناقد دراسة
تشره وتزيج عنه ركام النسيان الذى ران عليه أجيالا طويلا ،
وجعلت دراسته موضوعا لرسالة أقدمها الى كلية الآداب للحصول
على درجة الدكتوراه ، فعكفت عليها فى غير ريث أو مهل ، ونلت
بها هذه الدرجة سنة ١٩٥٤ .

ولقد أتفقت فى هذه الدراسة سبع سنين دأبا ، اعترضتنى فيها
عقبات صعبة ذللتها بشيء غير قليل من الصبر وطول الأناة .
وقد اعتمدت على مصادر شتى ، وفى مقدمتها — بطبيعة
الحال — كتب ابن قتيبة التى أفلتت من يد الضياع . وجل هذه

الكتب مطبوع ، ولكني ما كنت أكتفى بالنسخ المطبوعة ، فكنت أرجع الى النسخ المخطوطة حتى لا تفوتني شاردة أغفلها الطابعون أو الناشرون .

وقد ذكر المستشرق الفرنسي « بلوشيه 'Blochet' » في فهرسه أن لابن قتيبة كتابا في النحو يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس ، فأخذتني غمرة من الفرح لأنني كدت أستثيس من معرفة آرائه في النحو ، فشددت الرحال الى فرنسا في صيف عام ١٩٥٠ ، وهناك وجدت بهذه المكتبة مخطوطا عنوانه « تلقين المتعلم من النحو » . وما كدت أتصفححه حتى وجدت الأمل سرايا ، إذ ألفتها لا يمت الى ابن قتيبة بسبب ، مما سأتناوله في موضعه .

وقد مضى على وضع هذه الرسالة ما يقرب من عشر سنوات ظهر خلالها مؤلفان عن ابن قتيبة ، أولهما كتيب صغير من سلسلة « نوابغ الفكر العربي » التي تنشرها دار المعارف ، وثانيهما مقدمة عن ابن قتيبة لكتاب المعارف الذي حققه الدكتور ثروت عكاشة . واني أقرر — في غير ما تحفظ أو احتياط — اصراري على كل ما جاء بهذه الرسالة من آراء وأحكام ، برغم مرور هذه السنين ، لأنني لم أصدرها الا بعد دراسة مستأنية وتمحيص دقيق كهلا لي الرشدا والسداد .

وقد طلبت الى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بوزارة الثقافة والارشاد القومي — مشكورة — أن أضع كتابا في سلسلة أعلام العرب عن ابن قتيبة ، فهرعت الى الرسالة أنشد فيها بغيتي ، بيد أتى ألفتها بحثا جامعيا عميقا قد

يجد القارئ العام شيئاً من العسر في فهمه وإدراكه ، فتناولتها
بالتغيير والتبديل والحذف بحيث توائم مستوى هذا القارئ ،
فيجد فيها زاداً سائفاً ممتعاً .

وأرجو أن أكون قد وفقت في تقديم صورة مجلوة للرجل ،
تكشف عن غزارة علمه ، وأسرار عبقريته ، وبالغ أثره في العلم
والدين والأدب جميعاً . فإن وجد في هذا الكتاب غمزة تفتن
فليست أدعى العصمة ، والكمال لله وحده ، وهو هادينا سواء
السييل .

دكتور عبد الحميد سند الجندى

مصر الجديدة في ٢٠ يولية سنة ١٩٦٣

الباب الأول

عصر ابن قتيبة

تمهيد

أريد أن أمهد لعصر ابن قتيبة بكلمة عن العصر العباسي الأول ، أو بعبارة أدق عن النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، وهي الفترة التي تصرمت قبيل عصر ابن قتيبة . وأود أن أتناول هذه الفترة من جميع نواحيها في صورة موجزة ، لأن ذلك يعيننا على تفهم العوامل المختلفة التي صبغت عصر ابن قتيبة بألوان خاصة في السياسة والفكر والاجتماع .

— ١ —

لقد كان المسلمون في أواسط القرن الثاني الهجري يتدارسون علوما كثيرة ، منها الشرعية ، ومنها اللسانية ، ومنها الكونية . وكان جل اعتمادهم في مدارسهم على التلقى والمشافهة . وكان بعض طلاب العلم يقيدون ذلك بالكتابة لتكون تذكرة لهم اذا ما طغى على عقولهم النسيان . وكافت الحافظة عندهم هي المرجع الأول وعليها المعول ، وكانوا يقولون في معرض الذم « هل هو الا لحانة صحفي » (١) لمن يأخذ الصحف من المشايخ . ومن هذه المادة اشتقوا كلمة « التصحيف » ، وهو الخطأ في قراءة اللفظ ، ولا يقع هذا عادة الا اذا اعتمد القارئ على الصحيفة دون المشافهة .

(١) انظر مادة (صحف) في لسان العرب ج ١١ .

فلما أنشئت مدينة بغداد وأصبحت مقر الخلافة الإسلامية أقبل أهل الفضل إليها ، وأمّتها العلماء من كل صوب ، وجعلوها دار إقامتهم ، فأصبحت بذلك موئل العلوم الإسلامية ومجتمع الفنون الأدبية وملتقى الثقافات المختلفة ، فزخرت بالنور وازدهت بالعرفان ، وأينعت فيها ثمار العقول ، وصارت منار الحواضر ومحط رجال العلماء والفضلاء .

والحق أن تاريخ بغداد السياسي والاجتماعي والأدبي يعتبر — الى حد ما — تاريخ العالم الإسلامي في خلال حقبة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون . ولا مرء في أنه لم تصل مدينة من مدن الإسلام في العصور الخالية الى ما وصلت اليه بغداد من سعة العمران وعظم الآثار . كما أنه لم تضب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح . فكما تضافرت الأيدي على عمرانها ورفع شأنها ، تضافرت الخطوب والحوادث على تمزيق أوصالها وطمس معالمها ، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدى به الباحث المنقب الى تعيين المواضع التي كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمباني الشامخة والمساجد الجامعة والمدارس العظيمة التي كانت تملأ سمع الزمان وبصره ، اللهم الا بعض طلول لا تزال ماثلة (١) .

وقد أخذ الخلفاء والأمراء بناصر العلم والعلماء ، واشتد

(١) إذا اردت معرفة الكثير عن بغداد وأصل تسميتها واشتقاقها فانظر « بغداد » في لسان العرب ٦٢/٤ ، وفي معجم ما استعجم ٢٦١/١ ، وفي معجم البلدان ٦٧٧/١ ط أوربا .

ولعهم بنقل العلوم الأجنبية وتدوين العلوم الدينية ، فاكتملت بغداد بالنابغين في علوم الدين ، والعباقرة في العلوم اللسانية ، والمبرزين في فنون السياسة والحرب . وكان كل من تفرّد بضرب من ضروب المعرفة يلقي من الخلفاء ألوانا من الاكرام وضروبا من سنى المنح والعطايا .

وفي هذه الفترة نبغ أئمة المذاهب الأربعة ، ودون مذهبها أبى حنيفة ومالك ، وزار بغداد الامام محمد بن ادريس الشافعي مرتين ، وفيها أتمى مذهبه القديم ، ولقيه فيها الامام أحمد بن حنبل ولقّح مذهبه بأرائه ، وقد أخذ عن ابن حنبل عالما ابن قتيبة . وفي هذه الحقبة تم تدوين الحديث واللغة والشعر والتاريخ ، وظهر عظماء القراء ، ونهضت حركة الترجمة نهوضا مباركا فعزّت العلوم الكونية الفكر العربي وصقلته صقلا ظهر أثره في جميع نواحي الحياة العباسية . وكان الخلفاء — وبخاصة المأمون — يشجعون هذه الحركة بكل ما أوتوا من قوة ، ويرسلون البعثات الى البلاد الأجنبية ليستحضروا الكتب ، فيتلقفها المترجمون وينشروها بين الناس بالعربية ، وكانوا يعدقون العطايا لهؤلاء المترجمين حتى يقال « ان المأمون كان يعطي حنين بن اسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلا بمثل » (١) .

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ١٨٧ . واذا كنت في حاجة الى معرفة واسعة عن حالة الترجمة فاقرا كذلك كتاب أخبار الحكماء للقفطي ، وكتاب التمدن الاسلامي ليجورجي زيدان ، وكتاب عصر المأمون لفريد رفاعي .

وكان خلفاء بني العباس في عصرهم الأول يجلبون العلماء ويحتفون بهم . وقد سهّلوا زواجهم اليهم ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالغوا في إكرامهم ، وقربوهم ، وبجاسوهم ، وأكلوهم ، وحادثوهم ، وعولوا على آرائهم ، فلم يبق ذو قريحة أو علم الا يتم دار السلام . والعلم لا يزدهر الا في ظل حاكم يشغف به ويأخذ بأيدي أهله . وهؤلاء الخلفاء كانوا من أكثر الملوك رغبة في العلم ، ولهذا عنوا — الى جانب ما ذكرنا — بأشياء خزائن الكتب ودورها ، وكان لهذه الدور شأن كبير في نشر العلم والمعرفة ، ويقول المستشرق الأستاذ جويدى : « من الأمور التي أحيت العلوم في الأمة العربية اقامة دار الحكمة في بغداد » (١) . وكان في تلك الدار خزانة كتب قيمة يجتمع فيها علماء ذلك العصر للدرس والبحث والمذاكرة . وكان علائق الشعوب ينسخ من تلك الخزانة كتباً للرشييد والمأمون والبرامكة . وكان ابن أبي الحريش يجلد هذه الكتب ، وهو معروف بهذه الصناعة (٢) .

ومما ساعد على تقدم العلوم التنافس الذي قام بين العرب والروم . فقد أنشأ الروم في ذلك العصر أيضاً مدرسة تشبه دار الحكمة في القسطنطينية ، وكان ملك الروم « قسطنطين الثاني » مجباً للعلم ، مشجعاً لأهله (٣) .

وقد تنافس الأمراء وعلية القوم في اقتناء أثر الخلفاء في خدمة

(١) محاضرات جويدى ص ٩ .

(٢) فهرست ابن التديم ص ٢٠ .

(٣) محاضرات جويدى ص ١٠ .

الأدب والعلم ، والناس — كما يقولون — على دين ملوكهم ،
فأنشأوا خزائن الكتب في قصورهم ، وسعوا ما وسعهم السعى
الى جمع الكتب من مظانها ، مجزئين العطايا لكل من ينقل لهم ضربا
جديدا من المعارف . ومن أشهرهم بنو موسى بن شاكر ، محمد
وأحمد والحسن ، ويقول عنهم ابن خلكان : « وكانت لهم همم
عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل .. وقد أنفدوا الى
بلاد الروم من أخرجها لهم » (١) . وكذلك آل بختيشوع ،
وآل حنين بن اسحاق ، وآل الكرخي واسحاق الموصلي وغيرهم .
ويقول ثعلب : « رأيت لاسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب
وكلها من سماعه » (٢) .

وقد أدرك القوم أن كل عز لم يسند بعلم كان مآله الانحلال ،
فأكبوا على العلوم والآداب ، ينهلون من بحارها ، وحرص أرباب
اليسار على تثقيف أبنائهم ، وأصبح التعليم صناعة ، فرخت عيشة
المؤدبين ، وغدا التأديب طريقا الى المجد والسؤدد وسبيلا الى
مؤانسة الخلفاء ومسامرتهم . وقد عمرت مجالس العلم والأدب ،
وأمنت دور الكبراء مثابة المفكرين وحملة الأشعار والطرف
والأخبار .

— ٢ —

وقد نهضت العلوم اللسانية نهوضا حثيثا في ذلك العهد ،
ولا شك أن الدافع الأول لوضع هذه العلوم هو الدين . ذلك

(١) وفيات الأعيان ٨٧/٢ طبعة بولاق .

(٢) وفيات الأعيان ٩٢/٢ .

أنه لما تفشى اللحن في اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم جزع الأئمة وذوو الثعرة العربية من هذا الهول ، وأشفقوا على القرآن أن يستغلق فهمه على الناس ، وعلى السنة أن تطمس معالمها ، فهبّوا لمحاربة هذا الوباء بالحض على التعلم وتدوين علوم اللسان من لغة ونحو .

وقد شدد الخلفاء ورجال الدولة أزر هذه النهضة حرصا على الدين الذي كان مظهرهم الأكبر ، فحشدوا في قصورهم أئمة اللسان يؤدّبون أولادهم وخاصتهم ربنا بأنفسهم أن يدانوا السوقه وخشاش الناس ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة . وقد عرف الناس منهم ذلك فتقربوا إليهم بالعلم والأدب ، ولم يعزّ على من فاته شرف الحسب والسلطان أن يتطالّ إليه بالعلم والأدب ، فنبغ فيهم كثير من الموالى حتى الجوارى والقيان .

وقد كان نشاط المسلمين وتنافسهم في هذه الناحية يستثير الإعجاب ، وكانوا يتسابقون في تدوين العلم وتنظيمه تسابق آبائهم في الفتوح والغزوات .

ومن المحقق أن أول ما دوّن — بعد القرآن طبعاً — هو الحديث والفقه وأصوله ، ثم جاء النحو وعلوم العربية بعد ذلك . وقد اقتدى النحاة بالفقهاء في وضع أصولهم ، وبخاصة فقهاء الحنفية الذين اعتمدوا كثيرا على القياس . وكذلك اقتدى علماء العربية بالمحدثين من حيث العناية بالسند ورجاله وتجريحهم

وتعديلهم وطرق تحمل اللغة ، فكانت لهم نصوصهم اللغوية ، كما كان لأولئك نصوصهم في الحديث .

وجرى النجاة أيضا على غبار المتكلمين في تطعيم نحوهم بالفلسفة والتعليل ، وحاكوا الفقهاء في وضعهم للنحو أصولا تشبه أصول الفقه ، وتكلموا في الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء ، وكان لهم طرقهم في بناء القواعد على السماع والقياس والاجماع ، كما بنى الفقهاء استنباط أحكامهم على السماع والقياس والاجماع .

وكذلك الحال في علم التاريخ ، فإن أساسه ديني بحث هو السيرة النبوية والغزوات وفتوح المسلمين .

وكانت هذه العلوم قبل ذلك العهد مختلطة غير مرتبة « فكان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » (١) كما يقول السيوطي .

أما في العصر العباسي فقد دوت هذه العلوم واتخذت شكلا آخر من حيث الترتيب والتبويب والقياس عليها . ووجدت بجانبها علوم أخرى دنيوية كالمنطق والفلسفة والرياضة والطب والهيئة والكيمياء .

والحق أن العلوم العربية كلها تقريبا قد وضعت أسسها في العصر العباسي الأول ، وبعضها تم بناؤه في هذا العصر . وكذلك ترجمت علوم الأمم الأخرى — كما ذكرنا — وتمثلها المسلمون ، وبدأ علماءهم بعد ذلك يؤلفون فيها .

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .

وقد ظل المسلمون أدهراً طويلاً يعتمدون في حياتهم العلمية على تلك العلوم التي وضعت في هذا العصر .
 وكان مما ساعد على تنشيط هذه الحركة العلمية والنهوض بها ظهور صناعة الورق واتساعها ، ويقال ان البرامكة هم الذين أشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم (١) . ثم أمر الرشيد ألا يكتب الناس الا في الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والأعادة ، فتقبل التزوير ، وانتشرت الكتابة في الورق الى سائر الأقطار (٢) وكان لظهور الورق فضل وجود الكتب وخزائنها ، كما كان له فضل في قيام صناعة « الوراقة » . وكان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها ، وكان كثير من العلماء يذهبون الى دكاكين الوراقين ويقرءون ما فيها من كتب ، واشتهر منهم الجاحظ .

— ٣ —

وليس من شك في أن العلوم قد اتخذت لونا خاصا في ظلال العباسيين ما كانت لتتخذه لو بعثت في عصر غير هذا العصر باستثناء العلوم التي كان مقياسها العقل الخالص كالمنطق والرياضيات وما شابهها .

وربما كان أشد العلوم تأثرا بالحكم العباسي التاريخ ، فان المؤلفين حاولوا — تزلقا لخلفاء بني العباس — أن يسلبوا الأمويين

(١) حضارة الاسلام في دار السلام لجميل المدور ص ١٧٢ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٩ ، وصبح الأعشى ٢/٤٧٥ .

كل المحامد ويضيفوا اليهم مثالب ، هم منها براء ، وكذلك صنعوا مع الشيعة .

وقل مثل ذلك في الأدب ؛ فقد نهض المديح طمعا في كريم الجاء وتقربا الى الخلفاء . وتطامنت بجانبه فنون الأدب الأخرى ، وكثر الشعر العايب لأن منشئه من الموالي الفرس ، والفرس — كما نعلم — هم أعوان العباسيين ودعائم دولتهم .

وقد تأثر الحديث أيضا بالحكم العباسي تأثرا ظاهرا ، فحدث المحدثون الذين لا يرعون في الدين الاّ ولا ذمة في وضع الأحاديث التي تحط من قدر الأمويين والشيعة وتعلو من شأن العباسيين وتبين أحقيتهم في الخلافة . وكذلك كان الشيعة يتزيدون من الأحاديث التي تبين فضل علي وذريته ، مناقضين العباسيين .

والفقه لم يسلم كذلك من هذا التأثير في بعض مسأله ، لأنه مصدر التشريع ، والتشريع — من غير شك — يمس شؤون الدولة من قريب أو بعيد .

وحتى النحو تدخل فيه العباسيون ؛ فقد شايعوا الكوفيين وناصروهم ضد البصريين ، وكانوا يصطفون مؤدبي أبنائهم من بين علماء الكوفة (١) .

وكانت هذه العلوم تنتشر في الآفاق بوسائل عدة أهمها الكتابات والمساجد . وكان بالمساجد حلقات لمختلف العلوم كما كان الحال بالأزهر الشريف الى عهد قريب . وكان من وسائل

(١) تستطيع أن تقرأ بحثا مفصلا عن تأثير العلوم بالحكم العباسي في كتاب ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها .

نشر العلم أيضا مجالس المناظرة في القصور والدور ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء والولاة يشجعون هذه المناظرات ماديا وأديبا ، وأحيانا يشتركون فيها . وقد عقد السيوطي فصلا عن « المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات » (١) ، أورد فيه الكثير منها . ومن أهم هذه الوسائل « المكتبات » ، وأعظم مكتبة ظهرت في العصر العباسي مكتبة « بيت الحكمة » التي أشرنا إليها آنفا .

وكانت حاضرة العباسيين مرتاد الشعراء كذلك ؛ فقد تدفقوا إليها من كل فج ليشهدوا منافع لهم ، وليعرضوا ما تجود به قرائحهم من روائع النظم في قصور الخلفاء والأمراء والكبراء ، ووجدوا هناك مجال القول ذا سعة ، وأجزل لهم رجال الدولة العطايا ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب خليفة من خلفاء الاسلام من الشعراء ما اجتمع بباب الرشيد .

وقد انتشرت الى جانب ذلك مجالس اللهو والشراب ، وكان يغشاها الأدباء والشعراء وأرباب الفنون ، فكانت هي الأخرى ينبوعا ثرا للشعر وما يتبعه من لطيف المثلح وطريف الأفاكه . وكانت القينة تتوفر على ما يستلزمه فنها من أدب وشعر ، حتى غدا منهن أدكيات وشاعرات . وكان ثمنها يقدر حسب درايتها بفنون الأدب .

وقد أخذ الناس يتمززون طعم الحياة وينعمون بمباهجها ،

(١) انظر كتاب « الأشباه والنظائر » ١٥/٣ .

وأضحى رجال الدولة ومن والاهم يتأون عن حياة التزمت
والتخافت ، وراحوا يفشون مجالس الغناء على فضل من التعفف
والتصون في الغالب وأصبحت معظم الطبقات تألف ذلك من غير
كثير .

من ذلك كله ندرك أن هذا العصر كان ريتان الجنبات مخصاب
التربة حقا .

— ٤ —

ولقد ساعد على تنوع الثقافات والتكثر منها الحرية الفكرية
التي أطلت العقول في ذلك الحين نتيجة امتزاج العنصر العربي
بغيره من العناصر الأجنبية الأخرى وبخاصة في زمن المأمون .
والجاحظ بين لنا في قوله موجزة مدى ما كان يتمتع به الناس في
هذا العصر من حرية فكرية فيقول : « وما يمنع الناصر للحق من
القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم
التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجعل ، وقامت سوق
البيان والعلم » (١) .

وقد كان مجال هذه الحرية الدين ؛ يقول المأمون يجادل
الخراساني المرتد « لنا اختلافان ؛ أحدهما كالإختلاف في الآذان
وتكبير الجنائز ، والإختلاف في التشهد وصلاة الأعياد ووجوه
القراءات ، وإختلاف وجوه الفتيا ، وما أشبه ذلك . وليس هذا
بإختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحبة ؛ فمن أذن

(١) كتاب الحيوان ١/٤٣ .

مثنى وأقام مثنى لم يؤثم ، ومن أذن مثنى وأقام فرأى لم يحوتب ..
والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل
الحديث عن نبينا مع إجماعنا على أصول التزويل واتفاقنا على
عين الخبر .. الخ » (١) . وتفسير ذلك أن المسلمين طائفتان : طائفة
ترجع في أصول الفقه إلى الكتاب أو السنة أو إلى أثر من آثار
السلف ، متقيدين بهذه المصادر ، من غير أن يجنحوا كثيرا إلى
تأويل النص ، وهؤلاء هم أهل السنة ، أو أهل الحديث . وطائفة
أخرى يشركون معهم عقولهم في تفسير آي القرآن وتأويل
الأحاديث دون التقييد كثيرا بالنص ، وهم أصحاب الفكر الحر
كأهل الرأي والمعتزلة .

وبين أهل الحديث — ومنهم ابن قتيبة — والمعتزلة اختلاف
في أمور شتى غير ذلك ، كالقضاء والقدر وأفعال العباد وصفات
الله تعالى ومسألة خلق القرآن ، وغير ذلك مما سنعرض له بشيء
من التفصيل فيما بعد .

وكان المأمون يترك للناس حرية المعتقدات مهما كان فيها من
زيغ ومروق . وكان يؤتى بالمارق يمثل بين يديه فيجاذله بالتى هى
أحسن حتى يهديه سواء السبيل . وقد قال للمرتد الخراساني :
« لأن أستحييك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق ، ولأن أقبلك
بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة » . وأخذ يحاوره حتى
أقام عليه الحجة ، فأتاب المرتد إلى الله عن عقيدة وإيمان .

(١) اقرأ هذه المجادلة في البيان والتبيين ٢١٢/٣ ط
لسندوبى ، والعقد الفريد ٢٥٥/١ ط بولاق .

وكان المأمون نفسه رئيسهم في المناظرات الدينية ويحاجّ الفقهاء في كثير من الأمور . وكان يأمر قاضى قضاته يحيى بن أكثم أن يحضر معه رجالا يحسنون الفقه والجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه وعمامته ، فإذا استقر بهم المجلس تحدّث عن فراشه ونزع عمامته ووضع قلنسوته ؛ وما كان يمنع من خلع خفيه الا العلة ، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيلانسهم ويقول لهم : « انما بعثت لكم معشر القوم للمناظرة » (١) ، ثم يلتقى عليهم مسائل الفقه ويردّ على كل واحد منهم ، وكان يخيّرهم أن يسألوه أو يسألهم . ويؤثر عنه أنه كان يحلّ علماء اليهود والنصارى ، ويحتقن بهم في مجلسه لعلمهم وثقافتهم في لغة العرب وحذقهم لغة اليونان والسرّيان .

ويبدو لى أن المأمون كان يرمى من وراء هذه المناظرات كلها الى اجتماع الطوائف على ما هو أرطى وأصلح للدين . وكان يكره في المناظرات الشتم والهذر والبذاءة ، لأن ذلك دليل الخصر واللؤم . غير أنه لم يصل من مناظراته الى ما كان يتبعه ، فلم ير بدا من الاستعانة بسلطانه في اقامة ما يراه الحق ، ولا سيما مسألة خلق القرآن ، كما سنرى .

وقد بلغ من تمتع القوم بهذه الحرية أن المجوس كانوا يعارضون علماء المسلمين ، وقد ذكر الجاحظ بعض هذه المعارضات في كتاب الحيوان (٢) .

(١) العقد الفريد ٤٢/٣ .

(٢) انظر كتاب الحيوان ٣٥/٥ .

والحق ان هذه الحرية الفكرية التي أباحها المأمون للناس جميعا كانت سببا في تشتيت العقائد وكثرة الفرق بين المسلمين . فبعد أن كانوا لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم ، حتى أصبح الانسان يحار في كثرة الفرق ، ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدى وراقضى وجبري ومرجئي وعثماني وجهني .. الخ فضلا عن المارقة والدهرية وأشباههما . وكان المأمون نفسه شيعيا ، وله في ذلك مظهر عملي معروف ذكره المؤرخون . وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيا ، وقاضى قضاته أحمد بن أبي دؤاد معتزليا . وربما تعددت المذاهب بين الاخوة في البيت الواحد ، مثل أولاد أبي الجعد ، وكانوا ستة ، منهم اثنان شيعيان ، واثنان مرجئان ، واثنان خارجيان .

مهما يكن من شيء فقد تمتع الناس في زمن المأمون بحرية فكرية ودينية لم يثر لها مثيل في أى عصر من عصور الاسلام .

— ٥ —

وقد كان من أثر اختلاف السكان في الدولة الاسلامية ، ولباين أصولهم وأجناسهم ، وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمم الأجنبية في الاسلام ، ونمو الحضارة نموًا يتطلب دراية واسعة بكثير من شؤون الحياة من هندسة وطب وفلك ونظام وحكم وسياسة ولغة وأدب — كان من أثر ذلك كله أن انتشرت في الدولة ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكان لكل ثقافة رجالها البارزون الذين يحاولون جهدهم نشرها والترويج لها .

وكان من مظاهر هذا التنافس أن أخذت كل ثقافة تشق لنفسها طريقا تسير فيه . ولكن هذه الثقافات جميعا أخذت تلتقى رويدا رويدا وتمتزج بالثقافة العربية ، وقد تكون من مجموعها ثقافة كبرى ذات لون خاص ، قد صبغت بالصبغة الإسلامية ، وهي ما تعرف « بالثقافة الإسلامية » .

وهذه الثقافات التي اتصلت بالثقافة العربية ثلاث : الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، يضاف الى ذلك الثقافات الدينية كاليهودية والنصرانية (١) .

وقد أقبل رجال هذه الثقافات الأجنبية على اللغة العربية فحذقوها حذقا يدعو الى الإعجاب الشديد . ويحكى الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري — وهو قصاص فارسي الأصل — أنه « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم الفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين » (٢) ، وهذا مثل له نظراء كثيرون . ونحن نجد بين علماء المسلمين رجالا من

(١) أحيلك على هذه الكتب لتقرأ الكثير فيها عن اثر الثقافات الأجنبية في الثقافة الإسلامية : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ، فهرست ابن التديم ، طبقات ابن أبي أصيبعة ، أخبار الحكماء للقفطي ، ثم ضحى الإسلام ، وتاريخ آداب جورجى زيدان وعصر المأمون لفريد رفاعي .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٣٤ .

كل جنس ونحلة قد أخذوا بحظ وافر في جميع نواحي العلم . ولعل
أعظم هذه الأجناس أثرا في الحياة العباسية الفرس :

— ٦ —

فقد أثرت الثقافة الفارسية في الثقافة الإسلامية من نواحيها
المختلفة . وأظهر ذلك الألفاظ الفارسية التي تسربت الى اللغة
العربية . وكان الفرس يتدلون على العرب بما أخذته العربية من
الفارسية (١) . وقد نقلوا كثيرا من تراث آبائهم الى العربية ،
ويقول ابن النديم : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً
وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان الفرس ..
ونقلته العرب الى اللغة العربية » (٢) .

هذا الى أن كثيرا من العرب عكفوا على تعلم الفارسية ، وقد
نصح ذلك على ثمار قرائحهم وأساليب أقلامهم ، حتى الشعراء
تراهم يدرسون الفارسية ويتقنونها ، وأوضح مثل لذلك العتابي
الشاعر العباسي المعروف وهو عربي من تغلب ، وقد سأله رجل :
« لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعاني الا في كتب العجم
والبلاغة ، اللغة لنا والمعاني لهم » (٣) . وليس هناك من ريب في
أن المام ابن قتيبة بالفارسية كان من الأسباب التي جعلت كتبه
على شيء من الترتيب والتنسيق .

(١) أدب الكتاب للصولي ص ١٩٢ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٤ .

(٣) تاريخ طيفور ١٥٧ .

ومن أبرز أثر الفرس أن الكثير من عاداتهم قد تغلغل في المجتمع العباسي تغلغلا شديدا ، وبخاصة ما يتصل بالغناء واللهو والشراب ..

وهناك لون آخر من الأدب كان للفرس أثر كبير فيه وهو باب « التوقيعات » . وقد أعجب بها العرب ، لأن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية . وقد اهتم وزراء بني العباس وكتّابهم بأمر التوقيعات ، وكانوا نزع فيهم عرق من آبائهم ، فأنشأوا لها ديوانا سموه « ديوان التوقيع » .

هذا إلى أنه قد ترجم إلى العربية كثير من أمثال العجم وحكمهم ، وقد أورد الثعالبي قدرا كبيرا منها في كتاب « خاص الخاص »^(١) . ويشير ابن قتيبة في مواطن متعددة من عيون الأخبار إلى المعاني التي اقتبسها الشعراء والخطباء من حكم الفرس .

ويرى أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين أن الكتب التي عرفت في العربية باسم « المحاسن والمساوى » أو « المحاسن والأضداد » كانت محاكاة للكتب الفارسية التي عرفت باسم « شايد وناشايد » أي « ينبغي ولا ينبغي » أو « شايسته وناشايسته » أي « اللائق وغير اللائق »^(٢) . ويلاحظ أن حملة العلم في المسلمين كان أكثرهم من العجم في ذلك العصر مثل أبي حنيفة وحماد الراوية وخلف الأحمر وسيبويه والكسائي

(١) انظر خاص الخاص للثعالبي ص ١١ وما بعدها .

(٢) ضحى الاسلام ٢٥٣/١ .

والفراء وأبى عبيدة وأبى العتاهية وبشار والجاحظ وعالمنا
ابن قتيبة .. وغيرهم وغيرهم .

— ٧ —

أما الثقافة اليونانية فكانت مستفيضة في بلاد الشرق بعد
فتوح الاسكندر ، وقد وجد العرب في آفاقهم أول يقظتهم
مستودعا لآثار اليونانيين ، وقد نقلوا في العصر العباسي أهم
ما وصل اليه العقل اليوناني ؛ ككأليف أرسطو ، وبعض مؤلفات
أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، ورياضة فيثاغورس ..
وغيرها .

وقد ظلت الاسكندرية عاصمة مصر اليونانية زمنا غير قصير
منهل الوراثة من طلاب العلم والثقافة . وكانت المدرسة التي
أنشأها كسرى الأول سنة ٣٥٠ م في جنديسابور تنشر في الشرق
علوم اليونانيين ، وتستجيب لرغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب
حتى لقد قيل ان الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب تلقى علم
الطب قبيل الاسلام في هذه المدرسة (١) التي ظلت تؤدي عملها
في العصر العباسي .

وكانت حران في بلاد ما بين النهرين ذات حضارة يونانية ،
وكان أهلها ينصرفون خاصة الى الرياضيات والفلك ، واشتهر
منهم في العصر العباسي ثابت بن قرة وابن سنان الطبيب العالم
وأبو اسحاق الصابي صاحب الرسائل .

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٦١ .

وليس من شك في أن علماء الكلام قد اتصلوا بالكتب اليونانية التي ترجمت الى العربية ، وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ليدعموا حججهم أمام خصومهم ، كما كان يفعل اليهود والنصارى الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية قبلا . ثم أصبح المسلمون يطلبون هذه الفلسفة للذة العقلية ، بعد أن كانوا يطلبونها للدفاع عن أنفسهم .

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير في العلوم الاسلامية في الشكل وفي الموضوع على حد تعبير المرحوم أحمد أمين ^(١) . أما في الشكل فيرجع الى تأثير المنطق اليوناني الذي لوّن العلوم بلونه الخاص ، وكان ابن سينا يسميه « خادم العلوم » ، أما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في تعاليم المتكلمين .

وقد أثرت البلاغة اليونانية في البلاغة العربية ، وعثر ب كثير من الألفاظ اليونانية ، ونقلت قصص يونانية الى العربية . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب كثيرة في الأسفار والتاريخ ترجمت الى اللسان العربي ^(٢) . ونحن نقرأ في البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد وغيرها كثيرا من حكم فلاسفة اليونان . ولا شك أن تمثل الثقافة اليونانية أنجب اخوان الصفا والفارابي وابن سينا وابن رشد وأمثالهم .

— ٨ —

وأما الثقافة الهندية فقد وصلت الى العرب عن طريق الفرس ،

(١) ضحى الاسلام ٢٧٤/١ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٥ .

وربما كان أهم ما عرفه العرب منها الالهيات (ويراد بها الدين
مستزجا بالفلسفة) ، والحِكم ، وبعض الرياضيات ، وشيئا من
الأدب والفن .

وقد تأثر بعض الفرق الدينية الاسلامية بالدين الهندي ،
وأخذوا عنه فكرة « تناسخ الأرواح » التي تأثر بها كثير من
الديانات السماوية وغير السماوية . ولا شك أن التصوف اتصل
بعض اتصال بمذاهب النساك في الهند . ومكانة التصوف في
الأدب العربي ثره ونظمه لا تحتاج الى تبيان .

وكان في بغداد أطباء هنود الى جانب أطباء اليونان والروم
والفرس ، مثل « صالح بن بهله الهندي » و « منكه » و « بازيكر »
و « قمبرقل » وغيرهم (١) .

وقد اندمج الهنود عقب الفتح الاسلامي في المسلمين ، واعتنق
كثير منهم الاسلام ، وأقبلوا على تعلم العلوم الاسلامية ، ونبع
فيها بعضهم ، وظهر فيهم وفي أولادهم الشعراء وعلماء اللغة
والمحدثون ، منهم أبو عطاء السندي ، وابن الأعرابي ، وأبو معشر
نجيح السندي ، وفتح بن عبد الله السندي الفقيه المتكلم .
وقد ترجم الى العربية كثير من كتب الهنود ، وبخاصة ما يتصل
بالنواكب والفلك (٢) .

وقد عرّبت ألفاظ هندية كثيرة ، وبخاصة أسماء النباتات ،

(١) البيان والتبيين ١/ ٧٨ .

(٢) وضع المستشرق « نلينو » كتابا قيما عن « الفلك عند

العرب » ذكر فيه أسماء الكتب الهندية الفلكية التي ترجمها العرب .

ونقل الى العربية آراء لهم في البلاغة ذكر الجاحظ طرفا منها (١) ،
وهي تدل على أن تعريفهم للبلاغة يقرب من تعريف العرب لها .
وقد أولع العرب بالقصص الهندي ، ومن المحقق أن كثيرا من
أصول قصص « كليله ودمته » هندي ترجم الى الفارسية ، ومنها
الى العربية مع زيادة على الأصل الهندي . ويرجح ابن النديم أن
قصة السندباد البحري هندية (٢) . وقد نقل العرب كثيرا من حكم
الهند ، وتجد قدرا كبيرا منها في « عيون الأخبار » . وكثيرا ما تقرأ
لابن قتيبة هذه الجملة « وقرأت في كتب الهند .. » . وقد أشار
ابن قتيبة الى بعض المعاني التي اقتبسها الشعراء عن الهنود .
ولا ريب في أن العرب قد اتصلوا بالهنود قبل الاسلام ،
ولذلك نراهم يطلقون على كثير من نساءهم اسم « هند » . وكان
خير السيوف وأمضاها يجلب من الهند ، ولذلك يقال للعضب منها :
الهندي والمهند والهندواني .

— ٩ —

وللديانتين اليهودية والنصرانية أثر كبير في الثقافة الاسلامية .
والمعروف أن الامبراطورية الاسلامية كانت تضم عددا غير قليل
من أهل الكتاب ينعمون بحرية العمل والعبادة ، وقد أثرى كثير
منهم ، وخالط المسلمون هؤلاء الذميين واتخذوهم أصدقاء .
ولبعض شعراء المسلمين شعر يمدح فيه النصارى واليهود ويذكر
لهم خلالا كريمة .

(١) انظر البيان والتبيين ٧٩/١ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٥ .

وقد تسرب الى المسلمين شيء كثير من ثقافة هاتين الديانتين .
ولعل أهم منبع لهذه الثقافة التوراة والانجيل ، وهما كتابان
سماويان اعترف بهما الاسلام وورد ذكرهما كثيرا في القرآن .
وقد استفاد العرب كثيرا في قصصهم من أهل الكتاب ، ومن
أسلم منهم ، وبخاصة ما يسمونه « العلم الأول » وهو ما يتعلق
بأخبار الأمم السالفة (١) .

وأكثر ما تأثر بالثقافة اليهودية هذه المسائل التي وردت في
القرآن الكريم ولها نظير في التوراة ، ولا سيما قصص الأنبياء .
فقد كان علماء التفسير يضيفون الى شروحهم ما ذكر في التوراة
وغيرها من الكتب اليهودية ، يعينهم على ذلك اليهود أنفسهم
أو من أسلم منهم . ومن أشهرهم عبد الله بن سلام الذي أسلم
عند هجرة الرسول عليه السلام الى المدينة ، وكعب الأحبار الذي
أسلم في خلافة عمر ، ووهب بن منبه وغيرهم .

كما أن المسلمين عنوا بتاريخ بنى اسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل
ابن قتيبة في كتاب المعارف والطبرى في تاريخه .

وكان لليهود أثر واضح في بعض المذاهب التي ظهرت في
الاسلام . ويقال ان أول من تصوّه بكلمة خبيثة في الاعتقاد في
الاسلام هو « الجعد بن درهم » مؤدب مروان بن محمد ، وقد
أخذ ذلك عن بعض اليهود ، وسنين ذلك فيما بعد في مكانه
المناسب . ويروى ابن الأثير أن أحمد بن أبي دؤاد الذي كان

(١) تاريخ آداب العرب لصناديق الراعي ١/ ٣٩٨ .

يقول بخلق القرآن قد أخذ مذهبه هذا عن اليهود من مصدر يصل سنده الى لييد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم — كما يروون — وكان يقول بخلق التوراة (١) . وابن عبد ربه يذكر أن فرقة الراقضة قد تأثرت أشد تأثر بتعاليم اليهود (٢) . ولا شك أن مسائل التشبيه التي أثرت في تفسير بعض الآيات القرآنية مثل « الرحمن على العرش استوى » و « يد الله فوق أيديهم » قد تأثرت بتفسير اليهود للآيات المماثلة لها في التوراة . وقد آمن جماعة من الشيعة بالتشبيه .

وقد تأثر كثير من المسائل التي أثارها المتكلمون باليهود . ومن زعماء المتكلمين الذين هم من أصل يهودي « بشر المريسي » ، وهو من القائلين بخلق القرآن . أضف الى ذلك أن كثيرا من حكم اليهود ونصائحهم قد غزت الأدب العربي ، وورد كثير منها في عيون الأخبار والعقد الفريد . وقد أشار الأستاذ جويدي الى أن كثيرا من الأخبار التي أوردها ياقوت في « معجم البلدان » مأخوذ من كتب اليهود ، وأورد كثيرا من تأليف اليهود التي أثرت في ثقافة العرب (٣) .

والحال كذلك في الديانة النصرانية ؛ فقد كان لها ثقافة دينية أهمها الانجيل ، وما لازمه من شروح ، وما أضيف اليه من قصص وأخبار . وقد تسرب ذلك كله الى المسلمين ، كما كان الشأن مع

(١) تاريخ ابن الأثير ٢٦/٧ .

(٢) العقد الفريد ١/٢٦٩ ط بولاق .

(٣) محاضرات جويدي ص ٢٨ ، ٨٠ .

اليهود تماما . وغنى مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى وبعض
الحواريين ، كالطبرى والمسعودى .

وكما نشأ جدل بين اليهود والمسلمين نشأ جدل أيضا بين
النصارى والمسلمين . والظاهر أن الجدل قد حمى وطيسه بين
المسلمين والنصارى بصورة أقوى مما كان بين المسلمين واليهود ،
وذلك لأن اليهود — فيما أرى — عنصر يؤثر العافية ولا يوجه
نشاطه الا الى النواحي المادية وما يتصل بجمع المال واستثماره ،
كما هو مشاهد اليوم بين جميع الرعايا اليهود فى أنحاء العالم كافة .
ويدلنا على اشتداد الجدل بين المسلمين والنصارى هذه
الرسالة التى وضعها الجاحظ فى الرد على النصارى .

وقد دخل الشعر العربى كثير من ألفاظ النصرانية مثل الصليب
والقربان والمسوح . وكانت الأديار منتجع خلعاء الشعراء
ومثجّانهم ، يغشونها ويتشبهون بفتياتها وفتياتها فى شعر رقيق .
وكانت هذه الأديار مشهورة بجيد الشراب ، فاستغل الخمارون
هذه الشهرة وأقاموا حاناتهم حولها ، وقد ورد فى « مسالك
الأبصار » أنه « كانت حول دير العذارى حانات للخمارين وبساتين
ومتنزهات » (١) .

كل ذلك كان يوحى الى مثجّان الشعراء والقصاص الشعبيين
أديبا غزيرا رقيقا تأخذك روعته وجماله . وكذلك كان يوحى الى
الزهاد نعمة حزينة زاهدة تدعو الى اطراح لذائذ الدنيا ، والعمل
لما بعد الموت .

(١) مسالك الأبصار ٢٥٨/١ .

هذه هي الثقافات الأجنبية التي طرأت على الثقافة العربية ،
وقد امتزجت بها امتزاجا قويا ، وأطلق عليها كلها مؤرخو الأدب
« الثقافة الاسلامية العباسية » . وهذه الثقافة تباين — من غير
شك — الثقافة الاسلامية العربية في العصر الأموي .

وكان أكثر المسلمين المأما بهذه الثقافات أهل الكلام . ومن
أجل هذا كان المتكلمون هم أصحاب اليد الطولى في المزج بين
هذه الثقافات كلها كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين ^(١) .

فلا مندوحة من القول اذن بأن اللغة العربية قد دخلتها عناصر
لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل ، فاستلزم ذلك أنماطا حديثة من
التفكير . فبعد أن كان العقل لاصقا بصور المادة لا يحيط الا بما
تعاينه الحواس انسلخ بعض الشيء من هذه المادة ، وتعلق بالأشياء
المجردة ، فحلل أجزاء النفس وأحاسيسها وعواطفها ، وطمح
فيما فوق البشر ؛ فنظر في المبادئ والنتائج والعلل ، وما شابه
ذلك .

ومما يبعث على الإعجاب المقرون بالفخار أن نرى هذه اللغة
البدوية قد فسحت في رحابها حتى وسعت ثمار كل هاتيك القرائح .

— ١٠ —

وبعد فاني لأرى الضرورة تلحّ عليّ في أن أشير — في لمحة
خاطفة — الى سمة كانت بارزة في سماء هذا العصر لتكتمل لنا

(١) ضحى الاسلام ٥/٢ .

الصورة الصادقة الكاملة له .. وتلك السمة هي الصراع الذي كان مندلع الأوار بين العرب والموالي ، وكان لهذا الصراع أثر بالغ في الأدب والعلم والفن جميعا .

لقد اعتنق العرب الاسلام ورفعوا راية الجهاد في سبيل نشره ، فامتشقوا الحسام وثلثوا العروش ، فأعلى ذلك من نفسياتهم ، ووقر في أذهانهم أنهم من جنس لا يتطال اليه جنس آخر ، وتملكهم شعور بالعظمة والسيادة والاستعلاء . فنظروا الى غيرهم نظرة السيد الى المسود ، وسموا من هو غير عربي « أعجميا » .

وكان العرب — شعبا وحكاما — في العصر الأموي يسرون على ضوء هذه الفكرة أو على ظلامها ، وكتب الأدب مترعة بالحكايات التي تدل على ذلك ، وبلغ من غلوهم في ذلك أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفة الا عربي ^(١) ، وروى عنه أنه كان يسم أيدي النبط بالمشرط ^(٢) . ولشدة احتقار العرب للمولدين سموا ابن العربي من الأمة « هجينا » . ويذكر ابن قتيبة « أن العرب كانت لا تزوج الهجين من الرجال ، وربما كان لأحدهم الولد من الأمة فاستعبده » ^(٣) . ويقول ابن منظور في لسانه في مادة « هجن » : « الهجنة من الكلام ما يعيبك ، والهجين العربي من الأمة لأنه معيب » . ويقول الفيروزابادي في قاموسه : « والهجين اللثيم ، وعربي ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه » .

(١) العقد الفريد ٢٠٧/١ . (٢) محاضرات الأدباء .

(٣) المسائل والأجوبة (صورة شمسية بمكتبة جامعة القاهرة)

وهذه العصبية العربية العنيفة كانت تقابلها عصبية أخرى من أولئك الموالى المستضعفين ، ولا سيما الفرس ، وهم خلقاء أن يأكل الحقد قلوبهم ، لأنهم كانوا سادة فأصبحوا مسودين . وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم الغابر وعزهم التليد ، ويعتبرون حكم العرب لهم ضربا من سخرية القدر . ولذلك نراهم يهتبلون كل فرصة لاظهار ما يضطرم في قوسهم من الحقد والبغض ، ولكن بنى أمية كانوا يكتبون هذا الشعور أعنف كبت كما حدث لاسماعيل بن يسار مع هشام بن عبد الملك (١) .

يبد أن هذه النزعة التي أخذها الأمويون قد اتجهت الى دعاية خفية ضد بنى أمية ، وانهت بقيام دولة بنى العباس كما هو معروف .

وقد عرف العباسيون للفرس عظيم فضلهم في قيام دولتهم ، وصرح زعماءهم بذلك في خطبهم وفي أحاديثهم مثل داود بن على وأبى جعفر المنصور (٢) .

من ذلك ندرك أنه قد أصبح للفرس في دولة العباسيين شأن كبير ، ولكنهم لم يقضوا على نفوذ العرب تماما لأن الخلفاء عرب هاشميون ، وهم يفخرون بذلك ، ولذلك نراهم ينكلون بالفرس أشنع تنكيل يوم شعروا بطغيانهم كما فعل المنصور بأبى مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

(١) أغاني بولاق ١٢٠/٤ .

(٢) اقرا بعض خطبهم في تاريخ الطبرى ١٢٩/٩ ط ليدن ،

ومروج الذهب ١٩٠/٢ ط بولاق .

ومن أجل هذا نرى كثيرا من عظماء الفرس ينزعون الى الفخر بالنسب العربي والولاء العربي ، حتى ان أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسبا عربيا فينتهي الى سليط بن عبد الله ابن عباس (١) . وكذلك نرى اسحاق بن ابراهيم الموصلی — على اثاره مكاتته لدى الرشيد — يهرع الى خازم بن خزيمة — وهو عربي — وينتمي اليه معتزا بذلك (٢) .

فليس من شك اذن في أن العرب لم يذلوا كثيرا في هذا العصر ، ولم تتطامن عزتهم الى الجحد الذي يصوره المؤرخون . وكل ما حدث أن حركة العنصرية العربية قد دفعت بحركة أخرى فارسية ، وأن الصوت الخافت الذي كان يهمهم به اسماعيل بن يسار قد انطلق من عقاله حرا قويا .

وكان يتزعم هذه الحركة الفارسية جماعة على رأسهم بشار ابن برد الذي كان يفخر بالعجم ويتبرأ من الولاء العربي ويدعو الموالي الى تركه ويحقر العرب ، وكان يجهر بذلك أمام المهدي فلا يعاقبه كما عاقب هشام اسماعيل بن يسار حينما فخر بأجداده الفرس .. وحذا جذو بشار في ذلك شعراء الموالي مثل ديك الجن والخريمي والمتوكلي « وكان من ندماء المتوكل » .

مهما يكن من شيء فقد قوى نفوذ الفرس في الدولة العباسية ، وأصبحت الاستعانة بهم في أمور الدولة أمرا مقروا ، بعد أن كان استخدامهم في العصر الأموي — على ندرته — يقابل بالامتناع ،

(١) تاريخ الطبري ١٦٧/٩ .

(٢) الغيث المنسجم ٨٨/١ .

ويقول الجاحظ : « ان دولتهم » (أى العباسيين) أعجبية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعراية » (١) . ويذكر السيوطي « أن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب » (٢) ، وحذا حذوه الخلفاء من بعده « فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها » كما يقول المسعودي (٣) .

وبلغ من نفوذ الفرس أن حَبَّ بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجا للناس ، فبنى بناء سماه « العتبة الخضراء » (٤) ، وقطع الميرة في البحر عن المدينة (٥) ، فغضب أهل الحجاز ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى لهم بذلك الامام مالك بن أنس ، فعذبه والى المدينة (٦) ، فلما تولى المهدي « أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما ، واتخذ حرسا من الأنصار » (٧) .

وقد قوى نفوذ الفرس في زمن الرشيد بفضل البرامكة ، واتسع نفوذهم في عهد المأمون لما تغلب على أخيه الأمين بفضل مناصرتهم له ، وعد انتصاره انتصارا للفرس على العرب .

وزاد هذا النفوذ أيذا أن الخلفاء العباسيين كانوا يتعصبون

-
- (١) البيان والتبيين ٢٠٦/٣ .
 - (٢) تاريخ الخلفاء ص ١٠٥ .
 - (٣) مروج الذهب ٤٠١/٢ .
 - (٤) تاريخ الطبرى ١٩٧/٣ .
 - (٥) تاريخ ابن الأثير ٢٦١/٥ .
 - (٦) الانتقاء لابن عبد البر ص ٤٣ ووفيات الأعيان ٤٣٩/١ .
 - (٧) تاريخ الطبرى ٤٨٣/٣ .

للإسلام ، ولم يتعصبوا هذا التعصب للعروبة . وساعد على ذلك أن أكثر هؤلاء الخلفاء كانوا مولدين ، فلا عجب إذا جهر الفرس بدم العرب والتعصب لجنسهم ، ولا عجب أن يصبح هذا مذهبا خاصا لهم يعرف « بالشعوبية » . وكان الخلفاء العباسيون لا ينكرون منهم ذلك ، بل اتنا نرى المأمون يثديهم منه ، فيجعل سهل بن هارون — المعروف بمقته للعرب — يتولى الهيمنة على خزائن الكتب (١) .

وقد دأب الشعوبية على أن يسلكوا كل سبيل يوصلهم الى تحقير العرب والازراء عليهم . ومن ذلك التأليف في مناقب العجم وفي مثالب العرب . ومن أشهر من فعلوا ذلك علاء الشعوبية ، فقد وضع كتابا في ذم العرب اسمه « حلبة المثالب » (٢) ، وهو من أشد الكتب التي هتكت العرب . ومنهم سهل بن هارون الذي أشرنا اليه والذي يقول فيه ابن النديم : « كان حكيما فصيحاً شاعرا ، فارسي الأصل ، شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة » (٣) . وبلغ من شدة بغض سهل للعرب أن ألف رسالته المشهورة في البخل ، وفيها يقلب الكرم رذيلة والبخل فضيلة ، لأن العرب كانوا يتمدحون بالكرم ويعتبرونه من أكرم صفات السيد الججاج ، كما اشتهر الفرس بالبخل وبخاصة أهل خراسان (٤) .

(١) سرح العيون ص ١٣٢ . (٢) محاضرات جويدى ص ٤٤ .
 (٣) الفهرست ص ١٢٠ . (٤) اقرأ قصتهم مع ثمامة بن اشرس في العقد الفريد ٣/٣٦١ وهي تدل على شحهم الشديد .

ومن ألد أعداء العرب الهيثم بن عدي ، وكان من جلساء المنصور والهادي ، وله كتب كثيرة في ذم العرب (١) . وكذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى المشهور بشدة لئله للعرب ، وقد صور ابن قتيبة كيف كان هذا الرجل يعمد الى سرد مفاخر العرب ، ثم يتهمكم بها أشد تهكم ، ويقارن بين أشرافها وملوك الفرس ، وقد وضع عدة كتب في ثلب العرب . وهناك غير هؤلاء كثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم .

وهذه الكتب التي وضعها الشعوبية في ذم العرب لم يصلنا شيء منها ، وانما وصلتنا تتف من أقوالهم وآرائهم في الكتب الكبرى .

ولم يكتف الموالى بتأليف هذه الكتب ، فكانوا يضعون القصص في التشنيع على العرب ، ويفسدون الشعر بإضافة النص الى غير قائله ، فيذيع بين الناس ، كما كان يفعل حماد الراوية وخلف الأحمر .

وهكذا نرى أن العرب قد واجهوا حربا شعواء زعزعت من مكائنتهم ، فشغلوا عن التعصب القبلى الذى تأججت ناره في زمن بنى أمية ، وهبوا جميعا يدرءون عن أنفسهم هذه الحرب العنيفة ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وبدأوا يحيون في المدن العراقية حياة اجتماعية تشبه حياة الفرس ، ونشأ بينهم لون آخر من التعصب هو التعصب الاقليمى .. أعنى أن عرب العراق يتعصبون للعراق ،

وعرب الحجاز يتعصبون للحجاز .. وهكذا . واشتطوا في هذا التعصب البيئي ؛ فتميم البصرة تفخر على تميم الكوفة .. وهكذا . ولا شك أن هذا التعصب البيئي قد أحدث نهضة علمية خصبة في جميع العلوم . فمدرسة البصرة في النحو تناهض مدرسة الكوفة ، ولكل منهما أنصار . ولما ظهرت مدرسة بغداد ناهضت المدرستين الأوليين . وكان الفقيه العراقي يتازع الفقيه الحجازي ، ونشأ عن ذلك مذهب الرأي ومذهب الحديث .

وقد أورثتنا هذه العصبية البيئية كثيرا من الأخبار التي وضعت في مزايا البلدان وعيوبها ، وفي طباع سكانها وأخلاقهم . ونقرأ الكثير من ذلك في كتاب « عيون الأخبار » .

وينبغي أن أذكر أن بعض علماء الموالي ممن شرح الله صدورهم للإسلام قد أنكروا من بنى جنسهم هذا التحامل البغيض ، فهبوا يردون عليهم بكل ما أوتوا من قوة ، وعلى رأس هؤلاء ابن قتيبة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر نفوذ الفرس فيما يلي :

١ — ملئت قصور الخلفاء بالموالي يستخدمون في أعمال شتى .
٢ — أصبحت المناصب الكبيرة مقصورة على الفرس تقريبا ، وأهمها الوزارة .

٣ — تغلغلت النظم والعبادات والتقاليد الفارسية في الحياة العباسية من جميع نواحيها ، ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : « لست أنكر أن الفرس قد أثروا في الحياة العربية

تأثيرا شديدا ، ولكنه في كثير من الأحيان تأثير سيء جدا .
وحسبنا أن الفرس هم الذين أدخلوا على العرب سياسة الحكم
المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة
في المدائن . فقد تعلموا من الفرس طرائقهم في الأكل والشرب
واللبس وتأثيث القصور واللهو والعبث » (١) .

ولعل أظهر أثر للفرس في نظام الحكم العباسي « الوزارة » ،
وبجانب الوزارة موظف آخر اسمه « السيف » . وذلك مظهر
من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة ، ولم يكن معروفا في
الدولة الأموية .

وقد لعب المنجمون دورا كبيرا في البلاط العباسي ، وكان
رأيهم هو الأعلى في شئون الدولة ، حتى في الحملات العسكرية .
وهذا — من غير شك — أثر من آثار الفرس . وقد نقل
العباسيون كذلك عن الفرس نظام البريد . يضاف الى ذلك أن
الثقافة الفارسية انتشرت أعظم انتشار كما بينا .



وبعد ، فقد قدمت لك صورة موجزة للعصر الذي سبق عصر
ابن قتيبة ، وهو العصر العباسي الأول . وهذا أمر ما منه بد ،
فالمؤرخون يجعلون هذا العصر ينتهي بنهاية حكم الواثق
عام ٢٣٢ هـ . وابن قتيبة ولد سنة ٢١٣ هـ ، أي أنه سلخ من عمره

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٨ .

في هذا العصر تسعة عشر عاما كان قد بلغ أشده فيها ، وقضى منها شطرا في الدرس والتحصيل .

ولا شك في أن دراستنا لهذه الفترة من جميع نواحيها تعيننا على فهم الظواهر السياسية والاجتماعية والعقلية التي برزت في القرن الثالث الهجري ، لأن كل عصر يسلم الى العصر الذي يليه ويعتبر أساسا له . وفي الوقت نفسه ندرك في غير عسر العلل التي جعلت ابن قتيبة يتجه في اتجاهها خاصا في الدين والعلم والأدب .

الفصل الأول

الحالة السياسية^(١)

لقد كان عصر ابن قتيبة — أى القرن الثالث الهجرى — نتيجة حتمية للعصر الذى سبقه . ولا أجد قولاً جامعاً فى وصف هذا العصر من نواحيه المختلفة خيراً من هذه العبارة التى قدم بها الكاتب الانجليزى « تشارلس ديكنز Charles Dickens » « قصة المدينتين » عن الثورة الفرنسية ، يقول فيها : « كان ذاك العصر خير العصور ، وكان كذلك شر العصور . كان عصر الحكمة ، وكان عصر الحماسة . كان زمن اليقين ، وكان زمن الشك . كان زمن الضياء ، وكان زمن الظلماء . كان ربيع الأمل ، وكان شتاء اليأس .. كان فى الغاية القصوى اما من الصلاح ، واما من الفساد » .

تلك العبارة فى الواقع تصور لنا تصويراً صادقاً القرن الثالث الهجرى ، ويخيل إلينا أنها تصف عصرين مختلفين ، لا عصراً واحداً

(١) اعتمدت فى هذا الفصل والفصلين التاليتين على مراجع كثيرة ، أهمها الكتاب القيم الذى ألفه الأستاذ الكبير عباس العقاد وهو « ابن الرومى ، حياته من شعره » .

متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان
أو عدة عصور مختلفة وإن اجتمعت في نطاق واحد من الزمان .

وإذا كان لكل دولة — كما يقولون — أوان للبذر وأوان
للنماء وأوان للحصاد . فالقرن الثالث الهجري كان أوان النماء
للدولة العباسية ، جاء بعيد التمهد وقبيل النضج والذبول .
ففيه نما وأزهر كل ما بذره العباسيون في عصرهم الأول من بذور
الخير والشر ، ومن عناصر الإصلاح والفساد . وكانت الدولة في
إبانها أشبه شيء بالمرج الأخضر ، ينمو فيه الورد والريحان ،
والشوك والقنادس . وفيه الفاكهة ، وفيه العشب المسموم ، وفيه
العسل الشهي ، وفيه السم الناقع . وكل ذلك خليط ممزوج
لا سبيل فيه إلى التنقية والتمييز .

بلغ في هذا العصر كل شيء أقصاه ، وأثمر كل عمل فيه ثمره
الذي لا محيص عنه . ظهر فيه ما قدموا من صالح وما عملوا من
طالح ، واجتمع فيه الخليط من حضارات العرب والفرس والروم
جميعا كما أسلفنا ، وبدأت فيه عوامل القوة والفتوة ، كما ظهرت
فيه أمارات الضعف والانحلال .

وقد ولد ابن قتيبة في أوائل هذا القرن ، وقضى حياته كلها
في صميمه ، وأدرك حكم ثمانية من الخلفاء ، هم : المعتصم ،
والواثق ، والمتوكل ، والمتنصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدي ،
والمعتد . وقضى بضع سنوات من طفولته في عهد المأمون .

وفي هذا العصر بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة ، وتقلص
سلطان الخلفاء . وحسبنا أن نلم بالمصير الذي صار إليه بعضهم ؛

فقد قتل واحد منهم وهو المتوكل ، وخُلِع ثلاثة ثم قتلوا بعد خلعهم وهم المستعين والمعتز والمهتدي . ومن مات حتف أنفه من الباقيين حامت حول موته شبهات . وكان حظ ولاية العهود والأمراء والوزراء لا يقل سوءا عن حظ الخلفاء ، فقلما نجا أحدهم من الخلع أو السجن أو استتصاف الأموال .

وكان الخلفاء عرضة للكيد والبطش من الجند والوزراء ؛ بل من نساء القصر كذلك . وكان الأمراء والوزراء عرضة لنقمة هؤلاء جميعا ، فضلا عن نقمة الخلفاء كلما أنسوا في أنفسهم قدرة على البطش مع ضمان شيء من الأمن والطمأنينة على حياتهم . ويصور أستاذنا طه حسين تلك الحالة تصويرا بارعا فيقول : « كان القصر موزعا بين الأتراك وغير الأتراك من رؤساء الجيش . وكان الخليفة مضطرا إلى أن يصانع أولئك وهؤلاء ، وهو في أثناء ذلك كله عرضة لكيد الكائدين ومكر الماكرين .. ومن الحق أن نعترف أنه هو أيضا كان يكيّد لرؤساء الجند خوفا منهم . ومن الحق أيضا أن نلاحظ أن أخلاق الأمراء والخلفاء انتهت من الفساد إلى حد لم نعرفه من قبل . تتد كان الخلفاء يمكرون بأبائهم وأخوتهم ، وحياتهم كلها مكر في مكر » (١) .

وكل ذلك — من غير شك — دليل على أن أمور الدولة كان فيها شيء كثير من العوج ، ودليل على أن شريعة الحكم كانت لا تترعى ولا يتحسب للحكام ذرة من حساب .

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٢٧٤ .

وقد يضمحل أمر الحكومة وتسقط هيئتها ، ولكن يبقى للناس وازع من اتقاء حرمان المروءة والتمسك بأهداب العرف والدين . أما في هذا العهد فقد ديست اليهود والمواثيق ، ونضب معين المروءة ، وبلغ التنكيل والتقتيل مبلغا لم ترع فيه حرمة مروءة أو شرع أو دين .

وحسبك أن تقرأ الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن ططابغا لتعرف كيف قتل المعتز بعد أن شكّل به أشد تنكيل وهو في حالة من الضعف والاعياء تلين صمّ الجلاسيد ، وكيف قتل محمد ابن عبد الملك الزيات في زمن المتوكل بعد أن ذاق ألوانا مختلفة من التعذيب ، وقد سقى هو قبل ذلك غيره الكأس التى تجرعها ، وابتدع أفانين من التعذيب تدل على غلظة قلب لا تعرف الرحمة اليه سبيلا . ويصور ابن ططابغا بعض ذلك فيقول : « ان ابن الزيات عمل تنورا من حديد ومساميره الى داخل ليعذب به من يريد عذابه ، فكان هو ممن جعل فيه ، وقيل له : ذق ما كنت تذيق الناس » (١) . ومن غريب الأمر أنهم كانوا يذكرون هذه الألوان البشعة من التعذيب ، وكأنها من مشاهد المجون والفكاهة والترويح عن النفس .

ومرجع هذا الشر كله أمور ثلاثة : أولها الجفوة بين بنى العباس والعرب ، وثانيها نظام الاقطاع الذى أسرف فيه بنو العباس اسرافا أدى الى تصدع العالم الإسلامى ، وثالثها :

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١٤ طبعة ليدن .

ضعف قيمة العمود . واني لأرى لزما على أن أتناول كل أمر منها
بالحديث المفصل فأقول :

كان بنو العباس قوما موتورين من العرب ، لأنهم خذلوا
آل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه في صراعهم مع بني أمية .
فقد سيم الهاشميون الخسف والتشريد على يد خصومهم من
الأمويين ، ولم يؤازرهم العرب أو يواسوهم في محنتهم ، وهم
عرة الرسول الكريم الذين لم يسأل قومه على الهداية أجرا
إلا المودة فيهم .

ثم لما أراد الله أن يبدل من بني أمية ليتمكن لبني العباس في
الأرض لم يكن ذلك على أيدي العرب وهم أخلق الناس بئسرتهم
والغيرة عليهم ، وإنما قامت دولتهم على أكتاف الفرس الذين كانوا
يضمرون في نفوسهم للعرب والعروبة حقدا دفيناً ، فاهتبلوا هذه
الفرصة ليقوضوا أركان الدولة الأموية التي كانت تحرص على
عروبتها أشد حرص .

فلا عجب إذا امتلأت نفوس العباسيين موجدة على العرب ،
ولا عجب أن ينقطع ما بين الفريقين من أسباب المودة والطمأنينة ،
ثم لا عجب أن تجرى الأمور بينهما على المنفعة والرهبة دون الثقة
والمودة . ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التي اشتهر
بها أساطين بني العباس . ثم جاء اتصالهم بأجلاف الأعجام من
قبائل الترك والديلم ، فنقلوا عنهم ضرباً من المثالات التي تعودها
هؤلاء الأعاجم في وحشية البداة .

وليس أدل على حق بني العباس على العرب من قول إبراهيم

ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس صاحب الدعوة في كتاب أرسله الى أبي مسلم الخراساني : « ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأیما غلام بلغ خمسة أشبار تنهمه فاقتله » (١) . وهذا يدل على أن بنی العباس كانوا لا يطمئنون الى العرب ، ويتوجسون الخيفة منهم قبل أن تقوم للعباسيين دولة .

ثم توالى الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، حتى جاءت الفتنة بين الأمين والمأمون ، فناصر العرب الأمين لأن أمه عربية ، وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية ، وانتهى الأمر بقتل الأمين وترجع المأمون على أريكة الخلافة ، فأسرّها للعرب في نفسه ، وأمعن في اقصائهم عن أمور الدولة ، وفي تقريب الأعجام اليه ، حتى لقد اعترض طريقه بالشام رجل وقال له : « يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » .

ثم جاء المعتصم فاستكثر من فتيان الأتراك الذين استبدوا بأمور الحكم فيما بعد ، وكانوا مجلبة الكوارث والمحن للدولة . وقد اتجه المعتصم الى الأتراك لسبيين :

الأول : أنه بدأ يشعر بضعف ثقته بالفرس الذين ظلوا عماد الدولة نحو قرن من الزمان .. وذلك لأنه رأى الجند الفرس يميلون الى العباس بن المأمون لما مات أبوه . أما اقصاؤه للعرب فهو أمر تقليدى جرى عليه أسلافه كما بيتنا ، وزاده بغضا لهم

المؤامرة التي دبرها القائد العربي « عجيف بن غبسة » ، وكان
يغنى بها اغتيال المعتصم وقائديه « الأفشين وأشناس » ثأرا لنفسه
ولجنده من هؤلاء الدخلاء الذين احتقروه وأساءوا اليه والى
جنده ، فأغرى عجيف العباس بن المأمون بالتطلع الى الخلافة ،
ولكن سرعان ما قضى المعتصم على المؤامرة في مهدها وقضى على
زعمائها ومعهم العباس بن أخيه (١) .

الثانى : ان أم المعتصم كانت تركية من السغد والى ذلك
يُعزى ما كان يتصف به المعتصم من الشجاعة والاعتداد بقوة
الجسم ، وتلك من أخص صفات الأتراك . ويقول أحمد بن
أبى دؤاد : « كان المعتصم يخرج ساعده الى ويقول : « عض »
ساعدى بأكثر قوتك ، فأمتنع ، فيقول : انه لا يضرنى ، فأروم
ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنه فضلا عن الأسنان » (٢) . وكانت
له قوس لا يستطيع غيره أن ينزع عنها .

وانى لأرى لزاما على أن أتحدث قليلا عن هؤلاء الأتراك ،
لأنهم كانوا محور سياسة الدولة منذ ذلك الحين :

استكثر المعتصم من المماليك الأتراك للسببين السابقين ، وكان
يستقدمهم من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من
البلاد التى تسميها « تركستان » و « ما وراء النهر » . ويقول
صاحب النجوم الزاهرة : « اشتراهم « الأتراك » وبذل فيهم الأموال

(١) مروج الذهب ٢/٢٧٠ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣٣ .

والبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، وأمعن في شرائهم « (١) .
وقد ضاقت بهم بغداد ، وكانوا يتعرضون للنساء ويفسدون في
الأرض . فجأر الناس بالشكوى الى المعتصم ، فبنى لهم مدينة
« سامرا » ، وقد ذكر ابن طباطبا قصة طويلة تدل على شدة عبثهم
واستهائهم بأرواح الناس في بغداد (٢) .

وقد استشرى أذاهم في المدينة حتى أصبح وجودهم فيها
يؤذن بشر مستطير . ويقول المسعودي : « كانت الأتراك تؤذى
العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول في الأسواق وما ينال
الضعفاء والصبية من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم
فقتلوه عند صلحة لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير ، فعزم
المعتصم على النقلة معهم .. فاتهى الى موضع سامرا » (٣) .

وقد اشتد بأس هؤلاء الأتراك ، وأخذوا يتطلعون الى فرصة
مواتية ليركزوا أمور الدولة في أيديهم . وتغلغل نفوذهم بعد
موت المعتصم ، وأصبح ييدهم الحل والربط ، وكان مثلهم كمثل
الحرس البريتورى في الامبراطورية الرومانية ، والحرس
الاسترلتزى في الامبراطورية الروسية ، والحرس السويسرى في
عهد ملوك البربون في فرنسا ، وجنود الانكشارية في الدولة
العثمانية .

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٣ .

(٢) الفخرى ص ٢١١ .

(٣) مروج الذهب ٢/ ٢٧٢ .

وما كاد عصر الوراق ينصرم ويخلفه أخوه المتوكل حتى كان سلطان الأتراك قد بلغ أوجه ، فوثبوا على المتوكل وقتلوه بمساعدة ابنه وولى عهده المنتصر ، لأنهم خشوا أن يوقع بهم . وقد تولى كبر ذلك « بغا الصغير » المعروف « بالشرابي » ، وفى ذلك يقول على بن الجهم من قصيدة له :

عيد أمير المؤمنين قتلته

وأعظم آفات الملوك عييدها

بنى هاشم صبرا فكل مصيبة

سيلى على وجه الزمان جديدها

ويقول البحتري مشيرا الى غدر ولى العهد بأبيه :

أكان ولى العهد أضمر غدرة

فمن عجب أن ولى العهد غادره

وخلف المنتصر أباه بتأييد الأتراك ، فصار العوبة فى أيديهم ،

يرمون ما يريدون من الأمور وهو لا يعصى لهم أمرا . وبلغ من

ضعفه أمامهم أنه لم يستطع أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده

المتوكل وأكدده بالآيمان والمواثيق والعهود .

ولم يكن حظ خلفائه من بعده أقل سوءا من حظه ، فقد

خلع المستعين بالله « أحمد بن محمد بن المعتصم » ، ثم قتل

سنة ٢٥٢ ، فقال أحد شعراء ذلك العصر :

خلع الخليفة أحمد بن محمد

وسيقول التالى له أو يخلع

ويزول ملك بنى أييه فلا يرى
أحد" بمثلك منهم يستمتع
أيها بنى العباس ان سييلكم
فى قتل أعبدكم سييل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت

بكم الحياة تمزقا لا يترقع (١)
وكذلك كان مصير الخليفين الذين خلفاه ، وهما المعتر
والمهتدى ، فقد أقصيا عن كرسى الخلافة ، ثم لقيا حتفهما على
أيدي الأتراك . أما المعتمد — وهو الخليفة الذى قضى ابن قتيبة
فى زمنه عشرين عاما كانت أخصب حياته — فقد بلغ به الضعف
نهائيه ، ولم يكن له — كما يقول السيوطى — حل ولا ربط .
وحسبك أن تقرأ له شعرا يصف حاله لتدرك أنه لم يكن له من
الأمر شيء ، وأنه كان لا يجد حاجته من المال . فقد احتاج ذات
يوم الى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال :
ليس من العجائب أن مثلى

يرى ما قلّ متنعسا عليه
وتوكل باسمه الدنيا جميعا
وما من ذاك شيء فى يديه
اليه تحمّل الأموال طرّا
ويمنع بعض ما يجبى اليه (٢)

(١) شذرات الذهب ٢/ ١٢٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٤ .

وبلغ من استهانة الأتراك بالمعتمد أن حجروا عليه ، وهو أول خليفة قهر وحجر عليه ووكّل به . وهو يصور لنا بؤسه وتعاسته لما حجر عليه ، فيقول :

أصبحت لا أملك دفعا لما

أسام من خسف ومن ذلّه

تمضى أمور الناس دوني ولا

يشعر بي في ذكرها قلبه

إذا اشتيت الشيء ولّوا به

عني وقالوا ها هنا عله (١)

وهكذا أصبح الخلفاء ألعوبة في يد الأتراك ، يأترون بأمرهم

ويستهون بنهيم ، ويقول في ذلك أحد الشعراء :

خليفة في ققص بين وصيف وبغا (٢)

يقول ما قال له كما تقول البيغا

ومما زاد الطين بلة أن الخلفاء كانوا يستعوضون عما فقدوه

من عزة السلطان بالتهالك على لذائذ الحياة ، تخفيفا لأنفسهم من هذه الحال ، وشكّا في مصير كل نعمة .

ومن الكبائر التي اقترفها خلفاء بني العباس وكانت عاملا من

عوامل الفساد والانحلال أن ولاية العهد كانت تعقد الأكثر من

واحد. وقد فعل الرشيد ذلك ، فوضع بذور الفتنة بين بنيه ،

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٧ .

(٢) وصيف وبغا اثنان من كبار الأتراك .

وحدث الفتنة الدامية بين الأمين والمأمون . وقد حذر الرشيد من ذلك شاعر حتى الضمير فقال :

رأى الملك المهذب شر رأى لقسمته الخلافة والبلاد
فقد غرس العداوة غير آل وورث شمل ألفتهم بداد
وألقح بينهم حربا عوانا وأسلس لاقتالهم القيادا
ستجرى من دمائهم بحور زواجر لا يرون لها تقادا
فوزر بلائهم أبدا عليه أغيا كان ذلك أم رشادا (١)

بيد أن الخلفاء من بعده لم ينتفعوا بهذا الدرس ، ولم يأخذوا لأنفسهم موعظة مما حدث .. فالتوكل يتشبه بجده الرشيد ويعقد ولاية العهد لأولاده الثلاثة سنة ٢٣٥ وهم محمد المنتصر ، ومحمد المعتز ، وإبراهيم المؤيد . وانه لمن المؤلم حقا أن ينبري كثير من الشعراء لتأييد هذا العمل الخاطيء ، فزينوا للخليفة سوء عمله ، فراه حسنا . ومن هؤلاء الشعراء إبراهيم بن العباس الصولى ، وهو من أكبر أدباء ذلك العصر ، وقد قال :

أضحت عرا الاسلام وهى منوطة

بالنصر والاعزاز والتأييد

بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاية عهود
قمر توالى حوله أقماره يكنفن مطلع سعده بسعود (٢)
وقد أعاد التاريخ نفسه بين هؤلاء الأبناء الثلاثة ، مما هو مدون فى بطون الكتب .

(١) تاريخ الخلفاء ٢/٢٠٦ .

(٢) الفخرى ص ٢٢٩ .

ومما زاد الأمر تفاقمًا اختلاف الأجناس في جيش الدولة وولاية
أمورها ، فضلا عن اختلاف الأجناس بين نساء القصر وأمهات
الأمراء .

وقد استفحلت من أجل ذلك الدسائس بين الخلفاء والأمراء
والقادة والوزراء وحاشية القصر من رجال ونساء . وبلغ من
تفاقمها أن شغب الجند على قوادهم ، وشعروا بأنهم في الدولة
أصحاب الأمر كله .

هكذا كان أمر الدولة : سوء ظن ، ودسيسة ، وختل ،
وحذر ، وتدابير مكاييد .

ولم يكن في هذه الأجناس كلها من كان خليقا بأن يطمئن إليه
بنو العباس أو يأمنوا جانبه . وقد سادت بين المؤرخين فكرة أن
الفرس كانوا مخلصين للعباسيين في أول أمرهم ، ولكن حوادث
التاريخ تشهد بغير ذلك . فأبو مسلم الخراساني نصير الدعوة
العباسية الأكبر كان يعتبر نفسه ندًا للخليفة ، وطمع في مصاهرة
بيت الخلافة ، وارتقى بنسبه إلى العباسيين كما ذكرنا ، وبدأ
باسمه في مخاطبة الخليفة ، وأراد أن يؤم الناس في موسم الحج ،
واستعد للايقاع بأوليائه طمعا في الملك . ولكن يقظة المنصور
طوّحت بمطامعه وقضت عليه .

وليس من شك في أن البرامكة كانوا يعملون على استرداد
المجد الفارسي ، ولكن في شيء من الروية وطول الأناة .

لهذا كله نستطيع أن نقول ان العباسيين كانوا يحكمون حكم

الموتور القلق المستريب . ثم جاء الاقطاع فعظم الخطب وتمت البلية .

ونظام الاقطاع نظام فاسد ، ولكنه يظل مستور العيب ما بقيت الدولة حافظة لهيبتها وسلطانها . والتاريخ يحدثنا أن هذا النظام كان سببا في انهيار الدولة الرومانية الغربية في العصر القديم ، كما كان سببا في انحلال الملكية في العصور الوسطى ، وهو الذى عجل باضمحلال دولة العثمانيين الأتراك في العصور الحديثة . فهو نظام هدام ينخر كالسوس في أركان الملك فلا يدعه الا وهو مفكك الأوصال .

وكان الولاة ابان قوة الخلافة العباسية يؤدون ما يطلب اليهم أداءه من الأموال ، ويتعهدون الأرض والمراقب بالاصلاح لتكثر لديهم موارد الخراج ولتتفجر لهم وللناس ينابيع الثروة . فلما سقطت هيئة الخلافة من أعين الولاة ، وارتاب هؤلاء في أمرها وفي أمرهم أهملوا شئون الاصلاح ، وأقبلوا على جمع المال في نهم شديد ، وحبسوا أرزاق العمال ، وأغفلوا مراقب الرعية ، فتأخرت الزراعة ، وخربت الأرض ، وعم السخط بين الناس جميعا ، وتمرد الجند وعاثوا في الأرض فسادا ، ولجأ الخلفاء الى أن يمكروا بالولاة وبكل من بيدهم أمور الخراج ، وعملوا على اغتيالهم واستنفاء أموالهم كلما وجدوا أنفسهم في ميسيس الحاجة الى المال ، أو لمحوا مظاهر النعمة على العمال .

وأول من نكب عماله بسبب ذلك — بعد الرشيد — الخليفة الواثق . فقد كان يتمثل بما قيل لجده الرشيد : « انما العاجز من

لا يستبد . ومن استصفى أموالهم أحمد بن إسرائيل ، وسليمان ابن وهب كاتب ايتاخ التركي ، والحسن بن وهب ، وأحمد بن الخصيب ، وابراهيم بن رباح ، وأحمد بن المدبر وغيرهم . ويقول ابن المدبر : « كنا في حبس الواثق أنا وسليمان بن وهب وأحمد بن إسرائيل مطالبين بالأموال » (١) .

وقد حدث في وزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وهو الوزير الذى اتصل به ابن قتيبة — أثناء خلافة المتوكل حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال ، واحتجائهم الأموال لأنفسهم ، وإيقاع بعضهم ببعض بسبب سوء الادارة المالية (٢) .

وقد أصبحت الوزارة والكتابة وما اليهما من وظائف الدولة وسيلة الى الاثراء والنهب . وبلغ من فساد الأمر وشيوع الاختلاس أن القوامين على خزائن الدولة كانوا يفرضون الاتاوات على العمال والموظفين ، فلا يتسلم أحد منهم رزقه الا اذا أدى هذه الاتاوة وأقر كتابة باستيفاء رزقه ، لا يستثنى من ذلك أحد حتى أخو الخليفة وأهل بيته .

ومن غريب الأمر أن الأمراء والوزراء والكتاب ما كانوا يبالون أن يصبح الاختلاس أمرا مذاعا لا يكتفى فى حضرة الخليفة ، وما كانوا يتخرجون عن الجهر بفعله بين يديه .. قيل ان وزير المهتدى سليمان بن وهب كان يرسل الى كل صاحب وظيفة كتابا يقول فيه : « نعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل » . فكان قبل

(١) الفخرى ص ٢٢٥ .

(٢) اقرأ الحادثة فى مروج الذهب الجزء الثانى .

تسلم العامل عمله يأخذ منه مالا معجلا ، ويؤجل له مالا الى ما بعد تسليم العمل . فعرض له الخليفة المهتدي ذات يوم بالمعجل والمؤجل ، فقال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ، هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا ، فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله ، وان كان حقا — وقد علمت أن الأصول محفوظة — فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل اليهم من برٍّ من غير تحييف للرعية ولا تقص للأموال » . فقال الخليفة مقرا وزيره على ما يفعل : « ان كان هذا فلا بأس » (١) .

وهكذا راجت الرشوة وعم الاختلاس ، وبلغا نهايتهما في أواخر هذا القرن الثالث ، حتى لقد قيل ان الوزير الخاقاني — « وكان سيء السيرة والتدبير ، كثير التولية والعزل — ولي في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة » ، وقد هجاه بعضهم بقوله :

للدواوين مذ ولت عويل ولما الخراج سقم طويل
يتلقى الخطوب حين آلت منك رأى غثّ وعقل ضئيل (٢)
ولعل أصدق تصوير لرواج الرشوة في ذلك العهد قول أحدهم يهجو الخاقاني هذا :

وزير لا يمل من الرقاع يولي ثم يعزل بعد ساعه
ويتدنى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعه
إذا أهل الرشا صاروا اليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه (٣)

(١) انظر مروج الذهب ١١٨/٢ .

(٢) الفخرى ص ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه .

فلا عجب اذا أقامت الرشوة والسرقات والنكبات والمصادرات
بينهم العلاقات على أساس من الحذر والتربص والدخك وفساد
الطوية . ولا عجب كذلك اذا باضت الفتنة وأفرخت في بيئة كهذه
بين جند يشغبون ، وعمال يدلّسون ، وعرب يحقنون ، وفرس
يسخطون ، وشيعة يتخفزون ، ورعية تمزقها برائن الرعاة ، وملوك
لا يأمنون على عروشهم ولا على حياتهم . وقد قرأت في تاريخ
الطبري بيتين يغنيان عن كل قول في تصوير هذه الحالة :

أضاع الخلافة غش الوزير وجهل الأمير وفسق المشير
ففضل وزير وبكر مشير وقد أتيا ما يضر الأمور
وقد حدث من جراء هذا الفساد المستشري في جميع نواحي
الحياة ثورات سياسية واجتماعية ، أشهرها ثورة الزنج .. وهي
ثورة اختلطت فيها الأسباب السياسية بالأسباب الاجتماعية . ولعل
أقوى دوافعها النقمة على المترفين وذوى الثراء .

وصاحب ثورة الزنج رجل يصل نسبه بالعلويين (١) ، وجمهرة
النسابين يعدّونه من الأعداء . وقد ظهر في البحرين سنة ٢٤٩ ،
ودعا الناس الى طاعته ، وكان اباحيا في مذهبه ، فعظم شأنه ،
والتف حوله خلق كثير . ثم شخص الى البصرة سنة ٢٥٤ ، وأراد
أن ينشر دعوته ، فطارده عاملها محمد بن رجاء الحضاري ، فعاجرها
الى بغداد وظل مخفيا بها حتى عزّل بن رجاء ، فرجع اليها
سنة ٢٥٥ ، وأخذ يجهر بأرائه ، فانضم اليه كثير من الأنصار .

(١) انظر الكامل لابن الاثير ٨١/٧ طبعة بولاق .

ثم خطرت له فكرة مأكرة ، وهي استمالة العبيد الذين كانوا يشتغلون بحمل السباخ وغيره لأهل البصرة ، وهم كثير . وقد أخذ يذكرهم بما هم فيه من سوء الحال ، ووعدهم بتحرير رقابهم وتمليكهم الأموال والمنازل والعبيد .

وقد صادفت هذه الدعوة من نفوس هؤلاء العبيد هوى ، لأنهم كانوا يسامون الخسف والهوان . وقد اصطفى منهم غلاما نابها اسمه « ريجان بن صالح » وجعله قائد جنده ، وأقسم لهم بأغلظ الأيمان ألا يغدر بهم أو يخذلهم . فاجتمعوا حوله ، وعقدوا الخناصر على طاعته . ويقول ابن طباطبا : « واستمال قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها ، فاجتمع اليه منهم خلق كثير وناس آخرون من غيرهم ، وعظم شأنه وقويت شوكته .. الخ » (١) .

وكانت هذه الفتنة هوجاء أطاحت برءوس مئات الألوف من الأبرياء . ويقول السيوطي : « انه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف آدمي ، وقتل في يوم واحد بالبصرة ثلثمائة ألف » (٢) . وكان يتخلف عن هذه الملاحم وباء فاتك يفتى بسببه خلق كثير (٣) .

وشاءت الأقدار أن تزيد الأمر شدة فوق شدة ، فحدث أبان هذه الثورة « هزات وزلازل فماتت تحت الردم ألوف من الناس » (٤) .

(١) الفخرى ص ٢٢٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٢ .

وَيَصُورُ ابْنُ الرُّومِيِّ مَا غَانَاهُ النَّاسُ ابَانِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، وَكَانَ شَاهِدَ عَيَانٍ وَهُوَ مُعَاوِرٌ لِابْنِ قُتَيْبَةَ ؛ قَالَ يَصِفُ مَا حَلَّ بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ عَلَى يَدِ الثَّائِرِينَ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ :

كَمْ أَغْصَوْنَا مِنْ شَارِبٍ بِشْرَابٍ	كَمْ أَغْصَوْنَا مِنْ طَاعِمٍ بِطَعَامٍ
كَمْ ضَنْيْنٍ بِنَفْسِهِ رَامَ مَنْجَى	فَتَلَقَّوْا جَبِينَهُ بِالْحَسَامِ
كَمْ أَخٍ قَدْ رَأَى أَخَاهُ صَرِيحًا	تَرَبَّ الْخُدَيْنَ صَرَعَى كِرَامِ
كَمْ أَبٍ قَدْ رَأَى عَزِيزَ بَنِيهِ	وَهُوَ يَتَعَلَّى بِصَارِمٍ صِمَامِ
كَمْ مَفْدَى فِي أَهْلِهِ أَسْلَمُوهُ	حِينَ لَمْ يَحْمِهِ هُنَاكَ حَامِ
كَمْ رَضِيعٍ هُنَاكَ قَدْ فَطَمُوهُ	بَشْفَا السَّيْفِ قَبْلَ حَيْنِ الْفَطَامِ
كَمْ فَتَاةٍ بِخَاتَمِ اللَّهِ بَكَرِ	فَضَحَّوْهَا جَهْرًا بِغَيْرِ اكْتِمَامِ
كَمْ فَتَاةٍ مَصُونَةٍ قَدْ سَبَّوْهَا	بَارِزًا وَجْهَهَا بِغَيْرِ لُثَامِ
صَبَّحُوهُمْ فَكَابِدَ الْقَوْمِ مِنْهُمْ	طَوَّلَ يَوْمٌ كَأَنَّهُ أَلْفُ عَامِ (١)

وَتِلْكَ فِتْنَةٌ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَابُ الدَّوْلَةَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، فَتْنَهَكَ قَوَاهَا وَتَمْزَقُهَا شَرُّ مَمْزُقٍ .

وَمِنْ غَرِيبِ الْأَمْرِ أَلَّا يَتَنَاوَلَ ابْنُ قُتَيْبَةَ هَذِهِ الثُّورَةَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي أَيِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ وَقَدْ اِكْتَوَى عَصْرَهُ بِنَارِهَا وَكَادَتْ تَذْهَبُ بِسَبَبِهَا رِيحُ الدَّوْلَةِ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ حَالَةَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ كَانَتْ تَسِيرُ عَلَى هَذَا الْمُنْوَالِ السَّيِّئِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اسْتَثْنَيْنَا فتراتٍ قَصِيرَةً كَانَتْ يَتَّحُفُّ فِيهَا لِلدَّوْلَةِ خَلِيفَةُ قَوِيٍّ حَازِمٍ ، فَتَسْكُنُ غَوَارِبُ الْفِتْنَةِ بَعْضُ

(١) اِقْرَأِ الْقَصِيدَةَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ الرُّومِيِّ ص ٢٢٣ جَمْعٌ كَامِلٌ

كَيْلَانِي .

السكون ، ويستقيم أمر الولاية والعمال بعض الاستقامة ، وتعلو
هيئة الخليفة فيخشا أعداء الدولة في الخارج والمؤتمرون بها في
الداخل ، وتستشعر الرعية في زمنه بعض الأمن والطمأنينة ، حتى
إذا قضى نحبه عادت الفتن وعاد الفساد أشد مما كانا استشرءا
وتفاقما .

وان ابن قتيبة ليرسم لنا في أدق صورة ما آلت إليه حال
الدولة في ذلك العصر ؛ فيقول في مقدمة «أدب الكاتب» : «.. وقد
خوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ،
وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل تقصا ، وأموال الملوك
وقفا على شهوات النفوس ، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع
بيع الخلق . وآضت المروءة في زخارف النجد وتشبيد البنيان ،
ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان . ونبتت
الصنائع ، وجعل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم
النفوس ، وزهد في لسان الصديق » ، ثم يقول بعد ذلك في وصف
العلماء انهم « العلماء بتحلب الفئء ، وقتل النفوس فيه ، وخراب
البلاد ، والتوفير العائد على السلطان بالخسران المبين » .

وهذا وصف دقيق لشاهد عيان يأكل الكمد قلبه ، اذ يرى
الدولة تستحيل من القوة الى التهافت ، ومن العزة الى التظامن .
وقد أكسبه تقلده القضاء الماما بحال الراعي والرعية ، ووقوفه على
ما كان يتناوش الدولة في زمنه من عوامل الضعف والفساد .

ولعل من أصدق ما أسوقه في تصوير هذا العصر أبياتا من
منظومة ابن المعتز التي ألفها في مدح الخليفة المعتضد ، وفيها يصف

حال الدولة أصدق وصف قبل أن يلي أمورها المعتضد ، وبين ما كان ينتاب الدولة حينذاك من ألوان الفتن والدسائس والظلم والثورات التي كانت تزلزل أركانها . وهو يصور بلوغ خاص ما كان يقاسيه الناس من عمال الخراج الذين كانوا يبتزون الأموال عبوة من غير حق . ثم يذكر بلاء المعتضد في القضاء على هذه الشرور . وهذا الوصف عظيم الخطر ، لأنه صادر من أمير عباسي لمس عن كتب أمور الخلافة العباسية والقصر العباسي وما خالطهما من فساد وضعف وانحلال .. قال ابن المعتز :

وقان نهبا في الوري مشاعا	قام بأمر الملك بلا ضاعا
يخاف ان طئت به ذبابة	مذلا ليست له مهابة
أو خائف مروع ذليل	وكل يوم ملك مقتول
وذاك أدنى للبردي وأدنى	أو خالع للمقيد كيما يغنى
قد نقصوا عليه كل عيش	وكم أمير كان رأس جيش
فنبهوها نفسها في المحال	وكم فتاة خرجت من منزل
بالكرخ والدور موافا أجبر	وكل يوم عسكريا فسكر
يروونه دينا لهم وحقا	ويطلبون كل يوم رزقا
وعودوها الرعب والمخافة	كذلك حتى أفقروا الخلافة
تري الشياطين بها نهارا	فتلك أطلال لهم قفارا
ويبقى أميرها المؤمر	كانت تزار زمنا وتعمر

ويمضي ابن المعتز مصورا الفساد الذي وصلت اليه أمور الدولة من جميع نواحيه الاقتصادية والاجتماعية . ومن ذلك أنه يصور لنا تاجرا اتسعت ثروته فطمع بعض الأمراء فيها ، فيزعم

أن عنده ودائع للسلطان يلزمه أن يدفعها إليه ، فيقسم التاجر ما استودعه السلطان شيئا ، ولكن الأمير يصر على أن يكون مال هذا التاجر وديعة من السلطان ، فيذيقه ألوانا من التعذيب ، حتى يؤثر الراحة على ما عنده من المال ، فيعطيهما ما يطلبون ، وعند ذلك يطلقون سراحه :

وتاجر ذى جوهر ومال قيل له : عندك للسلطان فقال : لا والله ما عندي له فدخلوه بدخان التبن حتى اذا ملّ الحياة وضجر أعطاهم ما طلبوا فأطلقا ويصور لنا كذلك ما كان يلقاه دافعوا الضرائب من ألوان الخسف والتعذيب ليَجبروا على دفع أموال لم يكن من الحق عليهم أن يدفعوها . وهو يرسم لنا صورة واضحة للرجل الذى تطلب منه الضريبة ، وهم يوقعونه فى جحيم الهاجرة ويوثقونه بحبال من قنب يقطع الأوصال ، ثم ينهالون عليه صفعا ورفسا ، حتى اذا طال عليه الجهد طلب الى معذبيه أن يأتوه بالمرايين ليقرض منهم فيساومهم ويساوموه ، وينتهى الأمر بأن يبيع ضيعته بثلث بخص ، فيأخذه ويدفعه الى زبانية الضرائب ، فيخلوا سبيله .

فكم وكم من رجل نبيل ذى هبة ومركب جليل رأيته يعتل بالأعوان الى الحوس والى الديوان حتى أقيم فى جحيم الهاجرة ورأسه كمثل قدر فائرة

وجعلوا في يده جبالا
وعلقوه في عرى الجدار
وصفقوا قفاه صفق الطبل
إذا استغاث من سعيير الشمس
وصب سجان عليه الزيتا
حتى إذا طال عليه الجهد
قال : اذتوا لى أسأل التحار
وأجلوني خسية أياما
وجاءه المعينون الفجرة
وكتبوا صكا بيع الضيعة
ثم تآدى ما عليه وأخرج
وهذه أمثلة تمثل لنا حياة الناس في ذلك العهد قبل خلافة
المعتضد كما يصورها ابن المعتز . فلما جاء المعتضد أخذ هؤلاء
الناس بالحزم والعنف والصرامة حتى كفوا عن الظلم واستقامت
أمور الدولة مدة خلافته .

أما ضعف قيمة العهود — وهو السبب الثالث في اضطحال
الدولة — فكان معولا هداما انحل بالدولة الى مهاوى الانحلال
والضعف .

فالمعروف أن أهم ما يحتاجه ^{مهم} خلق الوفاء ، وقد حافظوا
على هذه الخلة الكريمة في جاهليتهم ، وبذلوا دونها أعز ما يملكون

(١) اقرأ هذه المنظومة في ديوان ابن المعتز .

من النفس والنفس ، ولهم في ذلك حوادث غراء مشهورة .
ولما جاء الاسلام زكى هذا الخلق فيهم ، ونزل قوله تعالى
« وأوفوا بالعهد ان العهد كان مستولا » وقوله جل شأنه
« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تبقضوا الايمان بعد توكيدها ،
وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون » ، وغير ذلك
من الآيات الكريمة التي توجب — في شدة — الوفاء بالعهد
والتمسك به . وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون رضوان الله
عليهم ، وسار على منوالهم معظم خلفاء بنى أمية ، لأن العنصر
العربي كانت له الكلمة العليا في دولتهم كما يعرف . وقد أنكر
الناس من عبد الملك بن مروان قتله سعيد بن العاص بعد أن
عاهده على ألا يمسّه بسوء ، واعتدوا هذا العمل منه فعلة خبيثة
مسيئة ، وقالوا انها أول غدر في الاسلام . وقد سأل عبد الملك
شيخا عربيا عن رأيه في ذلك فقال : « حسن » لو قتله وحيت ،
فقال عبد الملك : أو لست بحى ؟ فقال الشيخ العربي : « حياة من
لا يوثق له بعهد ولا عقد » (١) .

ولما قامت الدولة العباسية على أيدي عنصر غير عربي ظهر منها
في فجر نشأتها حوادث بشعة تم عن أنهم كانوا لا يوفون بعهدهم
إذا عاهدوا . فقد قتل أبا حياة أخيه السفاح ابن هبيرة
بعد أن أعطاه أمانا لا حيلة . ^{رسل كذلك أبا مسلم الخراساني}
بعد أن آمنه ، وفعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علي بعد أن

أظهر له رضاه عنه ومنحه الأمان في وثيقة طويلة . ولذلك لما أرسل المنصور إلى محمد بن عبد الله بن الحسن يعرض عليه صك الأمان ، أجابه محمد بقوله : « وأما أمانك الذي عرضت فأى الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على والسلام » (١) . وبذلك وضع العباسيون فى أولى صحائفهم نقطة حالكة السواد .

وقد شجع ذلك الخلفاء على أن يتخلصوا مما تقضى به العهود إذا رأوها تحول دون تحقيق أغراضهم ، ولا سيما عهود ولاية العهد . . كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور ، فقدم عليه ابنه المهدي (٢) ، وقد كاد هذا العمل أن يدفع عيسى إلى الثورة ضد المنصور ، ولكنه أثر صالح الأمة على صالح نفسه ، وفى ذلك يقول :

خيّرت أمرين ضاع الحزم بينهما

أما صفار* وأما فتنة عم

وقد همت مرارا أن أساجلهم

كأس المنية لولا الله والرحم

ثم أراد المنصور أن يترضاه بعض الشيء فجعله ولى عهد ابنه المهدي ، ولكن الأخير فعل معه ما فعله أبوه ، وعقد ولاية العهد لابنه الهادي ثم للرشييد من بعده . فأراد الهادي — أبان خلافته — أن يجعل ابنه جعفر — وهو غلام حديث — ولى عهده

(١) الامامة والسياسة ١٨٥/٢ ط مطبعة النيل .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٠٣ .

ويخلع الرشيد ، ولكن يحيى بن خالد البرمكي أقنعه بخطل هذا العمل ، وقد حفظ له الرشيد هذه اليد ، فجعله وزيره الأول وأطلق يده في كل الأمور .

وقد نكث الأمين كذلك عهد أبيه ، وأراد أن يسلب أخاه المأمون حقه في الخلافة من بعده ، فاندلع أوار الفتنة الشعواء بين الأخوين سنة ١٩٤ و انتهت بقتل الأمين سنة ١٩٨ .

وهكذا ديست العهود ، وأصبحت في نظر الخلفاء أمرا هينا لا تبقى له حرمة ، وبخاصة في العصر الذي تغلغل فيه نفوذ الأتراك ، وهم عنصر لا يأبه لعهد ولا يعتد بميثاق .

ومن البديهي أن القواد وكبار رجال الدولة كانوا يقتدون بخلفائهم ، وقلما كانوا يحرصون على الوفاء بعهد من العهود .

وكتاب « الامامة والسياسة » حافل بالأمثلة الدالة على ذلك (١) .

ومما يحز في النفس أن الفقهاء ورجال الدين كانوا يعينون الخلفاء على التحلل من تلك العهود بالفتوى التي تنقض الأمان ، في غير ما ورع أو خشية من الله .

وهكذا نرى أن ضعف العهود كان من الأمور التي صدعت البيت العباسي ، وفرقت الأمة الاسلامية قددا ، فضعفت عصبية الدولة ، وآل الأمر بخلفائها الى أن يستمدوا قوتهم من العناصر التي تغلبت عليهم .

(١) انظر الجزء الثاني من كتاب : الامامة والسياسة .

الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية

لم تكد الدولة العباسية تقوم حتى تبدلت الحياة الاجتماعية تبديلاً شديداً ، فاختفت الحياة العربية الأصيلية أو كادت ، وأقام كثير من الأدباء والشعراء والعلماء في الجواضر الإسلامية ، وتغيرت أصول العادات والأخلاق ، فانتشر المجون ، وشاعت الزندقة ، وأقبل الكثير منهم على الفسق وجهروا به في غير مبالاة ، واستحالت الحياة العربية السامية إلى حياة معقدة تجمع بين السامي والآري ، وتأخذ من هذا ومن ذلك .

حدثت إذن ثورة اجتماعية عصفت بالتقاليد القديمة عصفاً ، وأخذت أنفاس العرب ، وتغلغلت بسببها عادات الموالى وتقاليدهم في الحياة العامة والخاصة أشد تغلغل .

ولقد كان من أثر الاضطراب السياسي في القرن الثالث أن نضبت الأرزاق بين جميع الطبقات على السواء ، ونجم عن ذلك غلاء مفرط ، وبخاصة في زمن المعتمد ، حتى لقد بلغ كثر الحنطة في بغداد مائة وخمسين ديناراً . وامتد الغلاء إلى الحجاز ، وبلغ من شدته أن عجز السواد الأعظم من سكانه عن أن يحصلوا على

ما يقيم أودهم ، فدفع ذلك الأعراب الى أن يشبوا على كسوة الكعبة وينتهبوها (١) .

ولكن هذه الفوضى السياسية لم تكن لتمنع الترفه في طبقات الخاصة ، لأن الحالة الاجتماعية صدى للحالة السياسية وظل لها . ولذلك كانت الفوضى مدعاة الى الانغماس في الترف والعب من لهو الحياة بأوفى نصيب . وليس من العسير ادراك علة ذلك ، فكثيرا ما تكون الفوضى دافعا الى الانغماس في الترف اذا لم يطل بها زمن التخريب والافساد . فلم يكن هم علية القوم في ذلك العصر الا اغتنام اللذة بأسا من كل غاية ، وعلمنا بأن الحياة لا تجرى على وتيرة واحدة ولا تنتظم في سياق .

ولقد فاضت على هذا العصر خلاصة السياسة الخرقاء التي اقرقها السابقون ، فضى أهله خلا في السياسة وبذخا في المعيشة ، وجيوا حياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف واستسلام . وقد ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم ، ووقف على فنون اللهو في هذه الشعوب ، وامتلاأت أيدي الأمراء وكبار العمال والموظفين وأصحاب التجارات الواسعة بالأموال التي كانوا يبتزونها من الناس ، فكثر المترفون المنعمون ، واقتشرت ضروب المجون والخلاعة على نمط لم تزه الحياة الإسلامية قبلا . وبلغ من تهافت القوم على حياة القصف وتفنههم فيها أن أصبح لكل لون من ألوان اللهو علم له علماء يتقربون به الى الخلفاء

وذوى البيوتات من سادة القوم .. حتى الرقص ، فضلا عن أنواع
 اللهو الأخرى التى هى أقل تبذلا ، كالغناء وما إليه . ويحدثنا
 المسعودى أن الخليفة المعتمد — وهو آخر خليفة أدرکه ابن قتيبة
 — سأل بعض ندمائه : « صف لى الرقص وأنواعه والصفة
 المحموده من الرقاص ، واذكر لى شمائله » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ،
 أهل الأقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان
 وغيرهم . فجملة الايقاع فى الرقص ثمانية .. والرقاص يحتاج الى
 أشياء فى طباعه ، وأشياء فى خلقته وأشياء فى عمله . فأما ما يحتاج
 اليه فى طباعه فخفة الروح .. الخ » (١) .

ومما يثير عجبنا أنه كان هناك فى ذلك العهد رجال قد شغفوا
 بلواح خاصة من الفنون ، وألما بها المألما قلما يتاح لغيرهم فى
 أى عصر من العصور . فقد ذكر المسعودى أن المعتمد سأل كذلك
 ذات مرة عبد الله بن حرداديه — وكان من خاصة سمّاره — عن
 أول من استعمل العود والدقوف والطناير والناي .. وعن بدأ
 الغناء ، وعن أثر الطرب فى النفوس ، وأنواع الطرب ، ومنزلة
 الايقاع ، وأنواع الطرق وفنون الغناء . فأجاب بن حرداديه عن
 ذلك كله اجابة ملم بلبقائق الموضوع ، محيط به احاطة تامة ،
 ولا يتسع المقام لذكرها . ويختم المسعودى هذه القصة بقوله عن
 المعتمد : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس قد دونت فى
 أنواع من الأدب ؛ منها مدح النديم وصفاته وعفافه وأمن عبثه ،

(١) اقرا ذلك كله فى مروج الذهب ٣٥٨/٢ طبعة بولاق .

والتداعى فى المبادىء والمراسلات فى ذلك ، وعدد أنواع الشرب فى الكثرة ، وهىئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ومبادئه فى العرب وغيرها من الأمم ، وأخبار الأعلام من مشهورى المغنين المتقدمين والمحدثين ، وهىئة المجالس ، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم ، وتعبية مجالس الندماء والتحيات .. وصنوف الشراب ، والاستعمال لأنواع النخل اذا وضع ذلك فى المناقل والأطباق فنص نصا ورصف رصفا .. الخ » (١) .

ولا يتسع المجال لتبيان مبلغ دراية القوم بفنون الترف والحياة الناعمة . فقد كان لهم فى آداب المجالس وآداب المائدة وطهو الطعام وطرق تناوله فى حضرة الملوك والرؤساء ما لم نسمع بمثله عن روما وبيزنطة .. حتى ليقال انه كان من كبارهم من لا يأكل لقمتين بملقة واحدة. (٢)

وبلغ من بلعهم أنهم — لترفهم — كانوا « يؤكلون الدجاج الجوز واللوز » ويسقونه الحليب » (٣) .

وكانوا يعنون ببعض فنون الرياضة وبخاصة الصيد ، وكثيرا ما وصفه الشعراء وجعلوا من شعرهم بابا يسمى « الطرد » . وانتشرت لعبة الشطرنج والررد ، كما انتشرت لعبة الصولجان ، واللعب بالسيف والترس ، وسباق الخيل .

(١) أنظر مروج الذهب ٣٥٦/٢ .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ١٢٢ طبعة لندن .

(٣) نشوار المحاضرة للتنوخى ص ١١٢ .

وقد اقتدى بعض أوساط الناس — في حدود طاقتهم —
بأعليائهم ، فكثرت بيوت القيان والخمارات ، وثمهم القوم
بالمعاقرة صبوحا وغبوقا ، وشاع اقتناء الجوارى والعلمان ،
واستبيحت أنواع اللذائذ طيبها وخبيثها ، وخف موقع النكر
والفحش على أسماعهم ، ولا سيما حين صار الحكام والرؤساء
قدوة الناس ومحط أنظارهم في هذه الأفانين ، وهم موضع النعمة
التي تصبو إليها نفوس المحرومين ، مما حدا بالناس الى أن
يتهاكوا على الوظائف الحكومية التي يأتي رزقها رغدا من المرتبات
والجبايات ، وما يتبع ذلك من الأسلاب والرشا .

وكان مما زاد الخلفاء والأمراء امعانا في اللهو قعودهم عن
الجهاد ، فكثرت لديهم وقت الفراغ الذي أنفقوه في اللذات .
والمعروف أن الإفراط في الشهوات يضعف الهمة ويقصر العمر ،
ولذلك كان متوسط أعمار الخلفاء قصيرا بالقياس الى من عداهم .
وقد انحل بيت الأسرة ، في ذلك العصر ، ووقع بين الاخوة من
أمهات مختلفات تحاسد وتباغض وعداء . ويعمل ابن خلدون
انحلال البيت بكثرة الترف (١) ، ولكن الترف لم يكن حظ جميع
الناس ، فان سواد الشعب كانوا فقراء .

وقد دعا الغلو في الترف الطبقات المحرومة الى النعمة على
المترفين ، وأدى ذلك الى قيام الثورات لرد الظلامات وانصاف
الفقراء . وهذا ابن الرومي الشاعر الوديع يتحرق شوقا الى قلب
الأحوال ، ويدعو الى الثورة في قصيدة طويلة يقول فيها :

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٤ طبعة بيروت .

لهف نفسي على مناكير للشك
رغضاب ذوى سيوف عضاب
تفسل الأرض بالدماء فتضحى
ذات طمهر ترابها كالمسلاّب
من كلاب نأى بها كل نأى

عن وفاء الكلاب غدر الذئاب (١)

فلا غرابة إذا كان هذا العصر عصر تأهب النفوس للاصاخة
للمعاية الجماعات السرية ، وتعلق الآمال بظهور مصلح يغسل
الأرض بالدماء ويطهرها من الأدران . ولا عجب إذا التف الناس
حول الشاغبين على الدولة مثل بابك الخرمي وداعية الزنج
والقرامطة ، وغيرهم من الثوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا
يبرزون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ، ويجتذبون الفقراء
والمحرومين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام .

على أن هذه الفتن وتلك الاضطرابات كانت تنتاب الدولة
الحين بعد الحين ، ولكنها كانت تخرج منها في شيء من السلامة ،
لأنها كانت ثورات متفرقة في أرجاء الدولة تظهر في أوقات متباعدة ،
وكانت ثورات براء ليست لها خطة مرسومة ولا منهج معلوم ،
إذا كانت تموزها الدعوة القوية المشروعة التي تجتذب الجماهير
في إخلاص وتضحية . ومن أجل هذا كانت الثورة لا تكاد تستفحل
حتى تمن ويقضى عليها قضاء مبرم . وكان هذا الشغب يوصم

(١) انظر ديوان ابن الرومي ٤٤٨/١ جمع الشيخ محمد شريف
سليم .

بالكفر والافساد في الأرض ، ويوصم القائم به باسم الفاسق
أو المارق أو الفاجر أو الخبيث ، ويظل هذا الاسم لصيقا به أبد
الآبدن .

كل هذا وعلية القوم سادرة في غيها ، مبعنة في لهوها ، قلما
تحس لهذه المشكلات الاجتماعية أثرا ، أو تسعى في علاجها وتعرف
أسبابها الدفينة لاستئصال شأفتها ، اللهم الا فترات قصيرة كان
يشهد فيها بعض الاصلاح . وفيما عدا ذلك كانت القصور غارقة
في بذخها ، مفتنة في زينتها ولهوها ، ولا هم لها الا الاستباق في
جلب ألوان المسرة واللذائذ ، والظهور في المجتمع العالي بعرف
جديد من الآداب والأذواق ، حتى ان الوزير لا يحسب وزيرا ،
ولا الرئيس يعد رئيسا اذا لم يحسن المنادمة والمجالسة قبل
صلاحه لسياسة الحكم . ولهذا أصبحت المنادمة والعلم بفنونها
سلم الوصول الى أرقى المناصب في الدولة والخطوة عند الخلفاء
والأمراء . وكان أقصى ما تطمح اليه نفس صاحب الفضل
والكياسة والعلم أن يصبح نديما لخليفة ، أو مرييا لابن خليفة .
ولا شك أن من كان ينبغي أحد هذين الأمرين أو كليهما يلزمه أن
يلم بفنون شتى تجعله قديرا على أن يخلق في حضرة الخلفاء
والسادة محضرا غذا وجوا أنيسا . وهم يصفون الطريف بأنه
لا يتدخل في حديث بين اثنين ، ولا يتكلم فيما لا يفهمه ،
ولا يتشعب ، ولا يستشر ، ولا يتجشأ ، ولا يتمطى في المجالس ،
ولا يمد رجليه ، ولا يمس أنفه ، ولا يسرع في المشي ، ولا يجلس
الا حيث يجلس أمثاله ، ولا يماكس في الشراء ، ولا يشارط

صانعا ، ولا يصاحب وضيعا ، وأن يكون طيب الرائحة ، نظيف
البدن ، ولا يطول له ظفر ، ولا يسيل له أنف (١) .

وكتب الأدب مليئة بقصص هؤلاء الندماء الظرفاء . وحسبك
أن تأخذ لذلك مثلا على بن يحيى المنجم ؛ فقد كان أثر المكانة
لدى المتوكل ، مع أنه سلب الوسامة وجمال الخلقة ، حتى لقد
كان القرد أملج من قباحته كما يقولون . وما قدمه لدى الملوك
الا حذقه لفنون المنادمة ، والمامة بجميع أدواتها ، من علم وأدب
وفن وظرف وحضور بديهة وسرعة خاطر . وأنت حينما تقرأ
ما يروى عنه تجد منه الطيب والمضحك والأديب والجليس
والظريف والطباخ الحاذق والمغنى المتصرف والمنجم الماهر والشاعر
الظن . وقصارى القول أن عليا هذا ما ترك شيئا مما يطرِب
الملوك الا ملكه (٢) .

تلك كانت مجالس المجتمع العالية ، وتلك كانت حال ندمائها
وآداب جلاسها ، ولا شك أنها قد تأثرت أشد تأثر بمناهج القرس
في حياتهم وظرائق معيشتهم .

وأحب أن أشير الى أنه كانت هناك نزعة أخرى تناقض هذه
النزعة اللاهية العابثة ، وهى نزعة زاهدة لحمتها التقوى ، وسكداها
الورع والتدين . وكان يحمل لواءها أعلام كرام عرفوا بالصلاح
وحب الحق والتمسك بأهداب الدين ، وعلى رأسهم الامام أحمد

(١) تاريخ ابن الأثير الجزء السابع يتصرف .
(٢) اقرأ أخباره مفصلة في معجم الأدباء ١٤٤/١٥ طبعة دار

ابن حنبل وإسحاق بن راهويه وابن قتيبة وأمثالهم . ولكنها كانت
نزعة ضعيفة لم تقو على صد تيار النزعة الأولى الذي كان أشبه
بالسيل الجارف يكتسح كل ما أمامه ، نتيجة حتمية للأسباب التي
ذكرناها .

وبعد ، فيضح لنا مما سبق أن الحالة الاجتماعية كانت تقوم
على اغتنام الفرصة ، كما كانت الحالة السياسية تقوم على سوء
الظن . وهاتان الحالتان متلازمتان تلازم الشيء وظله .

الفصل الثالث

الحالة العلمية والعقائرية

كانت الدولة العباسية مشرق العلوم والمعارف ، وكانت دولة العلم والتدوين والترجمة ، وظهر فيها فطاحل العلماء الذين نبغوا في كل فن .

وقد تركزت العلوم في القرن الثالث الهجري ، وتشملت المعارف التي ترجمت ، واتجه العلماء الى ناحية التخصص والاتقان بسبب اتساع آفاق العلم . فظهر المحدثون ، واللغويون ، والمستغلون بالنحو والصرف ، والمتخصصون في رواية الأخبار وابن قتيبة يفصح عن ذلك في دفاعه عن أهل الحديث فيقول : « على أن المنفرد بفن من الفنون لا يعاب بالزلزل في غيره . وليس على المحدث عيب أن يزل في الاعراب ، ولا على الفقيه أن يزل في الشعر . وإنما يجب على كل ذي علم أن يتقن فنه اذا احتاج الناس اليه فيه ، وانعقدت له الرئاسة به » (١)

وليس من شك في أن العلوم الأحيائية قد شغلت عقول المسلمين في القرن الثالث شغلا كبيرا ، حتى لقد برم بها شاعر كالبحتري ،

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٩٤ .

وعالم كائن قتيبة . فالبحرئ يشكو من طغيان المنطق على الشعر ،
ويصيب على بعض الشعراء استعمال أقيسته ومصطلحاته ، وله في
ذلك أبيات معروفة قالها حينما عابوا عليه أنه لم يسر في شعره على
حدود المنطق ، وهي :

كل قسمونا حدود منطقكم

والشعر يغني عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلج بالمذ

طق ما نوعه وما سببه

والشعر المبح تكفى اشارته

وليس بالهذر طوّلت خطبه

أما ابن قتيبة فإنه يشكو من انصراف الناس عن العربية ،
واجرافهم عن النظر في الكتاب ، وفي أخبار الرسول وصحابه ،
وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها . وينكر عليهم أنهم يفتاضون
عن ذلك بعلم « هو قبح لهم في الألفاظ ، وقيد لهم في الألسنة ،
وعني لهم في المتاعل » على حد قوله (١) . وهو يقصد بهذا العلم
العلوم الأجنبية .

وما أشبه هذا العصر بالفترة التي مرت بنا في أعقاب الحرب
العالمية الأولى حين اشتدت الصلة بيننا وبين الغربيين . فقد أولع
بعضنا بكل جديد ، وثار على كل قديم ، وغلا البعض في ذلك غلوا
منكرا ، فتسكر للدين والتقاليد ، واعتبر الحفاظ عليهما ضربا من

(١) مقدمة أدب الكاتب .

الرجعية يباعد بيننا وبين الرقى والتقدم . وكان الإنسان اذا تمثل
بآية كريمة أو حديث شريف في سياق كلامه تغامزوا عليه ،
وسخروا منه ، ونظروا اليه نظرة زراية واحتقار . ولكن ما هي
الاسنون حتى أقفنا من سباتنا ، وأبنا الى رشدنا ، ورجعنا نلتبس
الحضارة والقوة والعلا في التمسك بديننا وتقاليدنا « فأما الزبد
فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

وهن الخير لنا أن نستأنس بما قاله عالمنا « ابن قتيبة » في
تصوير الحالة العلمية في ذلك العصر .. قال في مقدمة « أدب
الكتاب » يصف حال العلم والأدب في زمنه : « اني رأيت أكثر
أهل زماننا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسلمه متطيرين ، ولأهله
كارهين . أما الناشء منهم فراغب عن التعلم ، والشاذي تارك
للإزدياد ، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل
في حملة المجدودين ويخرج عن جملة المجدودين . فالعلماء
مغمورون ، وبكرمة ^(١) الجهل مقموعون ، حين خوى نجم
الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله . وصار العلم
عازرا على صاحبه ، والفضل قسطا ، وأموال الملوك وقفا على
شهوات النفوس ، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع
الخلق . وآضت المروءة في زخارف النجد وتشديد البنيان . ونبتت
الصنائع وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وأسقطت همم
النفوس .. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط ،

(١) الكرة : الحملة .

تقويم الحروف . وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا في مدح قينة أو وصف كاس . وأرفع درجات لطيفنا-أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء ومن المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لا يدري من نقله .. الخ » .

ويمضي ابن قتيبة في وصف هؤلاء المفتونين بالعلوم المترجمة وخطرهم على عقول الأغرار وأفهام الأحداث ؛ وذلك بذكر ألفاظ محدثة مثل الكون والفساد والكيفية والكمية والزمان والدليل .. وغير ذلك من الألفاظ التي لا طائل تحتها ، والتي هي في عرفه « هذيان كبير » . ويسير على هذا النحو ، « مزدريا العلوم الجديدة ، مؤثرا العلوم الدينية والعربية في شيء كثير من الغلو ، فيقول : « ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب المحكمة وفصل الخطاب » .

ولكن ابن قتيبة في الوقت نفسه لا ينكر فضل هذه العلوم المترجمة وأثرها في تقويم العقول وحاجة المتأدين إليها فيقول : « ولا بد له « أي المتأدب » مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين ، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الجاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفة ، والقسى ، والمدورات ، والعمودين » . بل انه يوجب الإلمام بهذه

العلوم المأما عليها ، ولا يرضى بالجناب النظرى منها ، فيقول :
« ويستحق معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فإن المخبر
ليس كالمعاین » .

ويرى ابن قتيبة أن هذه العلوم من الضرورات اللازمة
للكاتب ، ومن مسمات ثقافته : وكانت العجم تقول : « من لم يكن
عالما بأجواء المياه ، وحفر فرص المشارب ، وردم المهاوى ، ومجاري
الأيام في الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ،
وحال القمر في استهلاله واقفاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث
والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالي
والنواخير على المياه ، وحال أدوات الصنائع ، ودقائق الحساب
— كان ناقصا في حال كتابته » . ثم يقول بعد ذلك : « ولا بد له
مع ذلك من دراسة أخبار الناس ، وتحفظ عيون الحديث ليدخلها
في تضاعيف سطوره ، ممثلا إذا كتب ، ويصل بها كلامه إذا حاور .
ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة ، فإن القليل
معهما باذن الله كاف ، والكثير مع غيرهما مقصر » .

ذلك تصوير ابن قتيبة لعصره كما يرى ويحس . وقد أحسن
ولا شك في تمثيل عصره الى حد كبير . فقد أظهرنا على ما كان
يتعاطاه أبناء عصره من فنون المعرفة ، وما كانوا يدعون .

ويتضح لنا من كلامه أن هذا العصر لم يكن عصر العلوم
القديمة وحدها ، بل كان للعلوم الحديثة ، المتقولة منها والموضوعة ،
مكان مرموق ، حتى لقد خشي ذوو النعرة العربية من أمثال
ابن قتيبة أن تصبح هذه العلوم شرك العقول ومقنص الأفهام .

ويتضح من كلامه أيضا أنه كان يبغض على العموم هذه العلوم ، لأنها كادت تغطي على العلوم العربية . وكان يبغض منها بنوع خاص علوم المنطق والفلسفة وما إليهما . ولكنه كان يجتهد بتحصيل بعض العلوم الأجنبية الأخرى الى حد ما ، لأنها من مكملات ثقافة الأديب . وتفسير ذلك يسير سنشير اليه بعد قليل . ولكني ندرك حقيقة حكم ابن قتيبة وحظه من الصواب يجب أن نعرف أن العلم لم يكن ذا منهاج واحد في هذا العصر . فقد كان هناك منهاج أهل السنة الذين يتشددون في انكار البدع ، ومنهاج الفرق الإسلامية المتعددة من معتزلة وشيعة وظاهرية ونحو ذلك . وكل فرقة من تلك الفرق تركز في منهج تفكيرها على لون خاص من الثقافة .

وقد كان الجدل محتدما بين هذه الطوائف ، وبخاصة بين أهل السنة — ومنهم ابن قتيبة — والمعتزلة الذين كانوا يستعينون بالمنطق والفلسفة اليونانية . ومن أجل هذا كره ابن قتيبة الثقافة اليونانية ، وكرهها كذلك لأنها كادت تصرف شباب العلم عن علوم الدين والعربية . وسنبين في فصول خاصة مدى اسهام ابن قتيبة السنن في المنازعات الدينية وموقفه منها .

وكان هناك منهاج العلوم الحديثة ، ومنهاج رواد المجالس وطلاب الظرف الذين كانوا يقطفون من كل بستان زهرة كما يقولون .. وغير ذلك من المناهج التي تتباين وتتشابه كما هي الحال لدينا الآن .

وكان العراق مركز هذه المناهج ، لأنه مقر الخلافة وملتحق

العرب والعجم ومحط رجال العلماء والأدباء والفنانين من كل
حذب على اختلاف مناحيهم .

وكان ابن قتيبة من أهل السنة المبرزين ، فرأيه اذن يمثل رأى
المتعصبين للعلوم العربية الذين لا يرون غيرها الا ضربا من الفضول
ولغو الكلام ، واللفظ به « هذيان كبير » كما يقول . ولكنه
— فيما يبدو لى — خشى أن يرمى بالتخلف عن الركب ، فأوجب
الألمام بلون من العلوم الحديثة التى أشار إليها ، الى جانب الاحاطة
بالعلوم العربية .

وهناك أمر آخر يدفعنا الى القول بأن ابن قتيبة لم يصب
الصواب كله فى حكمه على هذا العصر ؛ ذلك أنه كان أدبيا الغويا
يعتمد فى محصوله الأدبى واللغوى على أبعد عصور العرب ،
فلا ينظر الى العصور القريبة الا على أنها عصور تمنع فى الجهل
والاسفاف بقدر امعانها فى البعد عن عرب الجاهلية . ولا ريب فى
أن ابن قتيبة قد طافت به تلك النزعة البشرية التى تضى على
القديم كل ألوان العظمة والقداسة والجلال ، وتنتع الحديث بكل
نقص ومثلية . أولا يزال هذا ديدن الكثير منا الآن ، وبخاصة
هؤلاء الذين لم تباعد الحضارة بينهم وبين حياة الفطرة ، ولم تنتقل
عقولهم كثيرا من طور قديم الى طور حديث . ومن غريب الأمر
أن ابن قتيبة نفسه يصور هذه النزعة فى عصره بروح المنكر لها ،
فيقول فى مقدمة عيون الأخبار : « ومن شأن عوام الناس رفع المهدوم
ووضع الموجود ، ورفض المبذول وحب المنوع ، وتعظيم المتقدم
وغفران زلته ، وبخس المتأخر ، والتجنى عليه . والعاقل من ينظر

بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم .
بل ان أهم نظرياته في النقد تقوم على الاقسط والعادل ، وتطرح
جانبا مبدأ التعصب للقديم ، كما سنين في فصل خاص . وهذا
ما يجعلني أعتقد أن الرجل يناقض نفسه . وربما كان التناقض من
أبرز صفاته في كثير من الأحوال . وان شئت الدقة فقل ان نظرياته
لا تحظى منه بالتطبيق العملي الصحيح لها . ولكن ذلك لا يمنعني
من أن أقول ان الرجل كان ذا عقلية واسعة وذهن فسيح .

مهما يكن من شيء فلا جدال في أن القرن الثالث الهجري كان
من أزهر عصور الاسلام من الناحية العلمية . فقد تم فيه نمو علوم
الثقافة الاسلامية كلها ؛ ففيه تمت المذاهب الأربعة في الفقه ،
وظهرت آثار أقطاب الحديث ، وانحازت السياسة الى جانب أهل
السنة في زمن المتوكل . وما من علم قديم أو حديث الا له أعلام
نابغون في هذا القرن . حتى العلوم العربية التي كان ابن قتيبة
يتهم القوم بالازورار عنها والجهل بفضائلها ، وهي علوم اللغة
والأدب والنحو والرواية . فمن أعلامها المشهورين في هذا القرن
ابن السكيت وابن الأعرابي والجاحظ ويموت بن المزرع
وأبو عثمان المازني وثلعب والمبرد والزجاج وابن الأثير
وابن دريد والأخفش الأوسط وأبو حاتم السجستاني وابن راهويه
والصولي والرياشي وأبو سعيد البكري .. وغيرهم وغيرهم من
لهم القدر الملقى في هذه العلوم .

وقد نضج في هذا القرن علما التاريخ والجغرافيا ، واشتهر
من مؤرخي العرب وجغرافيتهم البلاذري والبلخي واليعقوبي

والطبرى وابن البطريق وابن خرداذبة وغيرهم . وتتمثلت الفلسفة اليونانية ، وظهر لون من الفلسفة ذو طابع اسلامى على يد الكندى وتلميذه السرخسى والفارابى . وظهر من الأطباء الرازى وابن ماسويه . وبرز فى الرياضة محمد بن موسى الخوارزمى الذى وضع الجبر على أساس ما عرفه من الاغريق والهنود ، وله صيت ذائع بين الغربيين ، وقد اشتقوا من اسمه كلمة « لوغاريتم Algorithmes » .

أما علم النجوم فقد بلغ أوج رقيه فى هذا العصر ، اذ ألفوا فيه الكتب ، ووضعوا أرسادا فلكية ، وحسبوا الكسوف والخسوف .

ولم يكن الأمر مقصورا على نبوغ هؤلاء الأعلام ، بل كانت الثقافة قسلة شائعة بين الناس جميعا ، يشارك فيها خاصة الناس وعامتهم ، وكلهم يشتغلون بها ، ويقتنون كتبها ، ويحضرون مجامعها ومناظراتها . وقد شاع ذلك بينهم شيوعا كبيرا ، حتى اننا نرى بعضهم يجمع أمشاجا كثيرة من الثقافات فيكون أعجوبة الأعاجيب . ولا أدل على ذلك من قصيدة لابن الرومى يقول فيها متهمنا :

قولا لطوط أبى على	بصرينا الشاعر المنجم
المنذر المضحك المغنى	الكاتب الحاسب المعلم
الفيلسوف العظيم شأنا	العائف القائف المعزّم
الماهن الكاهن المعادى	فى نصر ابليس كل مسلم

وهذه الأبيات — على ما فيها من سخرية — تشير الى ما كان في طوق الأديب آنذاك من الجمع بين ألوان هذه المعارف المختلفة . وكان كثير من الخلفاء في ذلك العصر لا يضيّقون بهذه العلوم الحديثة ، بل ان بعضهم كان يميل اليها ويشجعها بسلطانه وجاهه ، مثل الواثق الذي يقولون عنه انه كان محبا للنظر ، مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد وأصحابه ، محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبّين . وكان له مجلس يعقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم ، فكانت سيرته كسيرة عمه المأمون في هذا الباب . ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلا حادا أكثر مما كانت في عهد أبيه المعتصم (١) .

ويبدو أن علم النجوم والرياضيات كان أكثر العلوم الحديثة شيوعا . وسر ذلك طرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته ، وشيوع الحضارة الفارسية التي كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعد والنحس . وكان العرب يتعاطون علم القيافة ويؤمنون بالزجر والنحس وما اليهما ، فلم يجدوا في العلم الحديث غرابة وقبلوه في غير عسر .

ولهذا كان الخلفاء يعتقدون أن للنجوم أثرا في أحداث الكون ، من موت وحياة ، وسعادة وشقاء ، وصحة ومرض ، وتقدير في الرزق وغير ذلك . ولعل الشيعة كانوا قوي أثر بالغ في

(١) تاريخ الخلفاء بتصرف ص ٣٦١ .

إشاعة التنجيم بين الناس ، وقد نسب اليهم كثير من التنبؤ بالحوادث ، وكانوا ييغون من ذلك دعاية لأنفسهم .

وقد عظم شأن المنجمين في العصر العباسي ، واستغلوا إيمان الناس بالتنجيم حتى الخلفاء . وقد روى أن المنصور تخير وقتا معيناً لوضع الحجر الأساسى لمدينة بغداد ، وكذلك صنع الفاطميون حينما همّوا بإنشاء القاهرة . ولا يبعد عن أذهاننا ما كان من أمر المعتصم ؛ فقد نصح له المنجمون بالخروج الى الحرب أيام نضج التين والعنب ليكون النصر محققا ، ولكن الظروف دفعته الى مقاتلة الروم في غير هذا الوقت ، فأحرز نصرا ميينا في موقعة عَمُورية ، وقال أبو تمام قصيدته المشهورة التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجِدِّ واللعب

وقد ظل أمر التنجيم مسيطرا على عقول الكثيرين الى اليوم ؛ فهم يؤمنون بما يتنبأ به الفلكيون من أن مواليده شهر كذا سوف تجرى السعادة فى ركايبهم ، ومواليده شهر كذا سوف يحف الشقاء بحياتهم ، وأن الناس تتباين أخلاقهم نتيجة اختلاف شهور ولادتهم .. ونحو ذلك ، ولا شك أن هذا زعم باطل ، لأنه لو صحت نبوءاتهم لاتفقت أحوال من ولدوا فى شهر واحد ، مع أننا نجد فوارق كثيرة بينهم تبلغ حد التضاد . ولكنها طبيعة الانسان التى تريد أن تخرق الحجب وتعلم أسرار الغيب . وما أجدرنا بأن نعى قول العلى الكبير « قل لا يعلم الغيب

الا الله » وقوله تعالى على لسان رسوله الكريم « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » .

وبعد فقد رأينا أنه كان للعلم مناهج متعددة ، لكل منها منحي خاص . ونحن نستطيع أن نقول — مطمئنين — بعد ذلك أن حكم ابن قتيبة فيه شيء من الشطط ، لأنه كان ينظر الى عصره حسب ميله وثقافته . وقل مثل ذلك فيمن كانوا مشغوفين بالعلوم الحديثة في هذا العصر .

وليس من العسير أن نتخيل هذه الحالة بجمالها ، فهي قريبة الشبه جداً بما نحن فيه الآن : كلف " بالقديم وتعصب " له ، وتهالك " على الحديث وازدراء للقديم " ، ثم قصد " واعتدال بين هذا وذاك " . وربما كان الفرق بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالى .. هؤلاء الذين كانت العصية الجنسية تدفعهم الى دراسة العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية ، فضلاً عن أنهم كانوا ييغون ألا ينفرد العرب بالدين والسياسة وبالعلم كذلك ، وألا يستأثروا دونهم بكل كمال وفضيلة .

ونستطيع أن نطبق رأينا هذا في وصف ابن قتيبة لعصره على ما حدث في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، فأنت حين تقرأ شعر بشار وأبي نواس ومطيع بن اياس وابن الضحاك تقول انه عصر فجر وفحش ونكر . وحين تقرأ لأبي العتاهية وغيره من الزاهدين ، وحين تعرف أن الرشيد كان يحج سنة ويفزو أخرى ، تقول انه عصر زهد وورع وتقوى . وكلا الحكيمين لا يصيب

الحقيقة ، والحكم الصحيح الذي لا ميل فيه أنه كان لهذه النزعة عشاقها ، ولتلك النزعة أربابها .

وأحب أن أذكر هنا أن العلماء في ذلك العصر قد أدركوا حقائق بعض الأشياء ، والأمثلة على ذلك كثيرة مبلوثة في كتب الجاحظ وابن قتيبة . وحسبنا أن نذكر أنهم كانوا يعرفون أن « الرأس يتفرق منه العصب الذي فيه الحس . وبه قوام البدن » (١) ، وأن الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة (٢) . وقد كنا نعتقد أن هذه الحقيقة الأخيرة لم تعرف الا في أوائل العصر الحديث على يد العالم الألماني « كوبرنيكس Copernicus ١٤٧٣ — ١٥٤٧ » كما يقول المؤرخون ، وأيده العالم الايطالي « جاليليو Galileo ١٥٩٠ — ١٦٤٣ » ، وهو أول من استعمل المنظار في رصد الكواكب .

(١) عيون الأخبار ٣/ ٢٠٠ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ١٥١ .

الباب الثاني

سيرة ابن قتيبة

الفصل الأول

مولدة وحياته

هو « أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة » . وأصله فارسي من غير شك ، وهو يصرح بذلك فيقول محاجاً الشعبي : « فلا ينبغي نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها » (١) . ويقال في نسبه « الدينوري » لأنه أقام بالدينور قاضياً مدة فنسب إليها . ويقال أيضاً « المروزي » كذلك لأن أباه من « مرو الروذ » ، و « الكوفي » لأن بعضهم يقول انه ولد فيها كما سنوضحه ، و « البغدادى » لأنه ولد فيها على رأى البعض الآخر ، أو نزل بها . ولا نعرف عن أبيه « مسلم بن قتيبة » شيئاً أكثر من اسمه ، ولا شك أن اهمال المراجع له — سيان في ذلك كتب ابن قتيبة وكتب غيره — يدل على أنه لم يكن له شأن ما . واسم أبيه « مسلم » واسم جده « قتيبة » يدلان بوضوح على أن كليهما كان مسلماً في القرن الثانى الهجرى . وعلى ذلك يمكن القول ان ابن قتيبة قد ولد من أبوين متعربين ، وانه كان يتكلم العربية كلغة وطنية .

(١) كتاب العرب في رسائل البلقاء ص ٣٥٦ الطبعة الثانية .

ولم يهتم كثير من المؤرخين بسنة ولادته ، لأن المرء يولد ولا يتكهن الناس بمصيره في مستقبل الأيام . والذين اهتموا بمولده يجمعون على أنه ولد سنة ٢١٣ هـ (١) ، وهذه السنة توافق سنة ٨٢٨ ميلادية .

وهؤلاء الذين عنوا بسنة ولادته لم يختلفوا اختلافهم في سنة وفاته . وهذا أمر غريب حقا ، لأن المعقول ألا يختلفوا في تاريخ وفاته ، وإنما يكون الاختلاف في تاريخ ولادته .

وقد عثرت في المكتبة الأهلية بباريس على نسخة خطية لكتاب « المعارف » (رقم ١٤٦٥ مخطوطات عربية) ، وقد كتب في الصفحة الثالثة هذه العبارة : « كتاب المعارف للشيخ الامام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة القتيبي الدينوري البغدادي النخعي » ، ولد في بغداد سنة ٢١٣ وتوفي سنة ٢٧٦ ، وله جملة من التصانيف ، نعمة الله برحمته ونفعنا بعلومه » ، وهذه النسخة كتبت سنة ٨٠٦ هـ .

وهناك عبارة لابن قتيبة يفهم منها أنه ربما يكون قد ولد قبل هذا التاريخ ، لأنها تدل على أنه كان يرتاد مجالس الأدب ويعنى ما كان يقال فيها في زمن الخليفة المعتصم ؛ فقد ذكر في كتاب « الشعر والشعراء » في ترجمة « دعل الخزاعي » انه قد نسي

(١) انظر وفيات الاعيان ٢٥١/١ ، وبغية الوعاة ص ٢٩١ ، وتاريخ ابي الفدا ٢/٣١ ، وتاريخ ابن كثير ٤٨/١١ ، وطبقات المفسرين للداودي في ص ١٠٣ (مخطوط) ، وروضات الجنان ص ٤٤٧ .

شعر لدعبل في هجاء المعتصم « فأمر بطلبه فاستتر ، ثم هرب ،
ورأيت أنه وهو يحلف ما قال الشعر ، وإنما قيل علي لسانه
وكيد به » (١) .

ثم يقول بعيد ذلك : وسئل وأنا حاضر عن أجود شعره ، فقال :
« القدينة » . ومعنى ذلك أنه كان في زمن المعتصم فتى يافعا يغشى
مخاطل الأدب . والمعروف أن المعتصم حكم من سنة ٢١٨ الى
سنة ٢٢٧ هـ ، فيكون ابن قتيبة — على حسب قول المؤرخين
الذين ذكروا تاريخ ولادته — قد بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى
نهاية حكم المعتصم . وهذه سن لا تخول لصاحبها — فيما أرى —
أل يشارك في حلقات الأدب ، اللهم الا اذا أوتي حظا كبيرا من ذكاء
القلب والنضج المبكر .

وقتيبة يضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الياء
المثناة من تحتها ، وبعدها ياء موحدة ، ثم هاء ساكنة — كما
يقولون — تصغير قتيبة « بكسر القاف وسكون التاء » أو قتب
أو قتب « بفتح القاف والتاء » واحدة الأقباب ، ومعناها المعنى
أو الأكاف وهو ما يوضع على ظهر الراحلة . وقد تناول اللغويون
هذه الكلمة بشيء من التفصيل (٢) بما لا يخرج عما ذكرنا .

(١) الشعر والشعراء ص ٥٤٠ طبعة ذي جوية .

(٢) انظر الباب في تهذيب الأنساب ٢/٢٤٢ لابن الأثير ، وتاج

العروس ١/٤٣٠ ، والقاموس المحيط ، ولسان العرب ، وصحاح
الجوهرى ، والنهاية لابن الأثير ٣/٢٢٧ ، ولسان البلاغة ، وأقرب
الموارد .

وقد اختلفوا في موطن ولادته ، ففريق يقول انه ولد بالكوفة
 كابن الأنباري (١) وابن الأثير (٢) وابن النديم (٣) ، وجرى على
 هذا الرأي بعض الباحثين المعاصرين مثل بروكلمان في دائرة
 المعارف ، وجورجي زيدان (٤) . ومن أجل هذا يطلق عليه لقب
 « الكوفي » . وفريق آخر يذكر أنه ولد في بغداد كالسمرقاني (٥)
 والقفطي (٦) والبغدادى (٧) والموسوى (٨) ، ووافقهم على ذلك
 بعض الباحثين المعاصرين كالشيخ رشيد رضا (٩) وخير الدين
 الزركلى (١٠) ، والبستاني . وفريق ثالث لا يجزم برأى ، ويشول
 انه ولد في بغداد ، وقيل في الكوفة ومن هؤلاء ابن خلكان ،
 وسار على رأيه بعض المستشرقين مثل « هوارت Huart »
 في كتابه « الأدب العربي » (١١) .

وأنا أرجح أنه ولد بالكوفة وسكن بغداد ، لأن من ذكر ذلك
 أسبق من غيرهم مثل ابن الأنباري وابن النديم ، ولأن بعض
 الثقات يذكر أنه « نزيل بغداد أو سكن بغداد » مثل أصحاب
 مرآة الجنان ، وتهذيب الأسماء ، والمنظوم في تاريخ الأمم والملوك ،
 وطبقات المفسرين ، واللباب .

-
- (١) طبقات الأدباء . (٢) تاريخ ابن الأثير ١٧٥/٧ .
 (٣) الفهرست ٧٧ .
 (٤) تاريخ آداب اللغة العربية ١٧٠/٢ .
 (٥) الأنساب ٤٤٣ . (٦) انباه الرواة ١٤٣/٢ .
 (٧) تاريخ بغداد ١٧٠/١٠ .
 (٨) روضات الجنان ٤٤٧ . (٩) مجلة النار ٥٨٤/٨ .
 (١٠) قاموس الأعلام ٥٨٦/٢ . (١١) Litterature Arabe 153

ونحن — مع بالغ الأسف — لا نعرف شيئا عن طفولته ونشأته ، شأنه في ذلك شأن غيره من كبار علمائنا القدامى ، وربما كانت معرفتنا لهذه الحقيقة من حياته — لو تيسرت — تلقى ضوءا على كثير مما خفى علينا من ميوله واتجاهاته وتكوينه العلمي ، ولكن الأيام تطوى ذلك كله في بطونها طي السجل للكتب .

مهما يكن من شيء ، فقد قضى معظم حياته في بغداد ، وأخذ عن علمائها — وهي في أوج مجدها العلمي — علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار . وقضى وقتا من حياته في « الدينور » أثناء ولايته القضاء فيها ، ولذلك ينسب إليها . والديزور بلدة من بلاد الجبل قرب « قرميسين » وينسب إليها جماعة كثيرة . من أهل الأدب والحديث ^(١) . وقد ذكروا كثيرا من هؤلاء المنتسبين إليها وليس فيهم ابن قتيبة ، مع أنه أبعد صيتا وأعلى قدرا ممن ذكروا . ولست أدري سر ذلك ، وهو أن دله على شيء فانما يدل على أن هذا الرجل غير محدود .

ويبدو لي أنه قضى في « دينور » مدة طويلة استطاع فيها أن يقيم له في نفوس أهلها مكانة أثيرة ، وأن يصنف كتباً أقبل عليها الناس بنهم ، ويقول ابن النديم : « وكتبه في الجبل مرعوب فيها » ^(٢) . وليس من شك في أن اقامته بالدينور قد أعانت على إتقان اللغة الفارسية .

(١) اقرأ الأنساب للسمعاني ص ٢٣٨ ، ووفيات الأعيان ٢٥١/١ ، ومعجم ما استعجم للبكري ٣٥٨/١ طبعة وستنفلد ، ومعجم البلدان لياقوت ١٨٨/٤ . (٢) الفهرست ٧٧ .

ومن غريب الأمر أنه لم يشر في أى كتاب من كتبه الى اقامته في الدينور أو الى توليه القضاء فيها . ويظهر لى من ذلك أنه قد ضاق ذرعا بقيود الوظيفة ، لأن الانسان مولع دائما بالحديث عن ذكرياته الطيبة في مناسبة وفي غير مناسبة . ويظهر لى من ذلك أيضا أنه كان قليل الاحساس بالمجتمع وما يدور فيه ، بيان في ذلك ما يتصل به وما لا يتصل به ، وأنا أعزو ذلك الى أنه كان أبدا في شغل شاغل بأمرين ملكا عليه عقله وحواسه ، وهما : الدفاع عن أهل السنة ومذاهبهم ، ووضع المؤلفات لسد حاجة المسلمين وتحسينهم في دراسة العربية . وكان يعتبر ما دون ذلك من شئون الحياة لا يستحق النظر والتسجيل .

على أنى أعتقد أن أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء يضيقون بالوظيفة وأغلالها ، لأنها تحد من حرية تفكيرهم ، وهم قوم ييغون الحرية والانطلاق . وها هو ذا معاصره الجاحظ يصف ذل الوظيفة فيقول : « فإن أولئك » أى الموظفين « لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرعب وألفها الذل .. فهم مع ذلك فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول .. الخ » (١) ، فهؤلاء العلماء — كما ترى — يرتبون بأنفسهم عن أن يقارفوا خدمة السلطان ، أو يستكينوا للرؤساء خوف الذل والملق .

ولست أعرف عن حياته أكثر مما ذكرت . ولم أجد فى جميع

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل ٢٤٨/٢ .

المراجع التي تناولت ابن قتيبة — على كثرتها — شيئا غير هذا ، وهو — كما ترى — قليل الغناء .

ولم يغفل واحد من المؤرخين والعلماء الذين تعرضوا لابن قتيبة ذكر سنة وفاته . وهذا شأنهم مع أفذاذ الرجال ؛ لا يهتمون بمولدهم ، لأنهم لا يعرفون ما سيكون من أمرهم بين ملايين المولودين ، حتى اذا برزوا في ميادين الفنون والعلوم وذاع صيتهم في الآفاق ، ومضوا الى جوار ربهم عنوا بحياتهم وأرخوا سننى وفاتهم . وكذلك كان حالهم مع ابن قتيبة .

وقد اختلفوا فى سنة وفاته ، فبعضهم يقول انه توفى سنة ٢٧٠ هـ ، والبعض الآخر يذكر أن ذلك كان فى سنة ٢٧٦ هـ ، والقليل منهم يقول انه مات سنة ٢٧١ هـ . ولكنى بعد تمحيص دقيق لهذه الروايات المختلفة أرجح أن وفاته كانت سنة ٢٧٦ هـ . بل ان هناك مسألة تجعلنى أكاد أقطع بأنه توفى فى هذه السنة ؛ فقد تحدث ياقوت فى « معجم البلدان » عن بلدة اسمها « بيانة » ، وهى بلدة أندلسية بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا ، وذكر أن منها قاسم بن أصبغ بن يوسف البيانى ، وقد رحل قاسم هذا الى المشرق فى سنة ٢٧٤ هـ ، وأخذ العلم عن جماعة من العلماء منهم ابن قتيبة (١) . ويؤيد هذا أن محمد بن خير الاشيلي أحد علماء الأندلس ذكر قاسم بن أصبغ هذا بين من روى عن ابن قتيبة

(١) معجم البلدان ٣١٩/٢ طبعة دار المأمون .

كتبه في الأندلس (١) . وهذا يدل على أن ابن قتيبة كان حيا في سنة ٢٧٤ هـ . وبما أن سنتي ٢٧٤ ، ٢٧٥ لم تردا قط في سنوات وفاته عند أحد من المؤرخين فيتعين أنه مات سنة ٢٧٦ هـ الموافقة لسنة ٨٨٩ ميلادية .

أما سبب موته فيكادون يجمعون على أنه « أكل هريسة فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغشى عليه الى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدا ، فما زال يتشهد الى وقت السحر ، ثم مات » ، ويزيد ابن حجر العسقلاني : « أنه ازدرد الهريسة ساخنة قبل أن تنقأ حرارتها فأهلكته » (٢) . وقد استخلص بعضهم من قول ابن حجر ما جعلهم يرمون ابن قتيبة « بالتسرع والتهافت والنهم والجشع » (٣) . والحق أن قول ابن حجر يجب أن يؤخذ بشيء من التحفظ ، لأنه ترجم في كتابه « لسان الميزان للمحدثين المغفورين في نظره ، وكان من الحاملين على ابن قتيبة . ويغلب على الظن أن الهريسة كانت فاسدة فأصيب بالتسمم من جراء فسادها ، لأنه ليس من المعقول أن يموت رجل بسبب التهام طعام ساخن ، والمعقول أنه حين يحس بحرارته يلفظ اللقمة من فيه قبل أن تصل الى المريء ، وهذا رأى طبيب ثقة أطمئن اليه .

(١) فهرست ابن خير ص ٣٧٧ طبعة سرقسطة .

(٢) لسان الميزان ٣٥٧/٣ .

(٣) انظر كتاب « ادب الجاحظ » ص ٥٣ للأستاذ حسن

السندوني .

الفصل الثاني

خلق ابن قتيبة

كان ابن قتيبة لين العريكة ، وكان يحث دائما في كل مناسبة على التحلي بكرم الخلق وحيد السجيا ، ويرى أن التجل بها أفضل من طلب العلم .. يقول في مقدمة أدب الكاتب : « ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهدب أخلاقه قبل أن يهدب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة ، وصناعته عن شين الكذب » . وكان يمقت هجر القول وفاحش الكلام ، وفي ذلك يقول : « فأما السباب وشتم السلف وذكر الأعراض بكبير الفواحش فما لا نرضاه لخساس العبيد وصغار الولدان » ! وهو يلتمس لنفسه مخرجا عند ذكر العورة بصريح لفظها ، فيقول في مقدمة عيون الأخبار : « انها لا تؤثم وائما الاثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » . ونراه يختم مقدمة أدب الكاتب بالحث على ترويض النفس على كرم الخصال ، وتجميلها بالتواضع وحج الحق فيقول : « فمن تكاملت له هذه الأدوات ، وأمدّه الله بأدب النفس من العفاف والحلم والصبر والتواضع للحق وسكون الطائر

وخفض الجناح ، فذلك المتساهى في الفضل ، العالى في ذرا المجد ،
الحاوى قطب السبق ، الفائز بخير الدارين ان شاء الله تعالى .
وابن قتيبة يحث الناس على التواصى بسلام الأخلاق ، وينذ
الخوض في الأعراض والأحساب ، وهو يجعل من نفسه قدوة لهم ،
ولذلك أبت عليه أخلاقه الكريمة أن يخوض في حقيقة أصل
أبي عبيدة معمر بن المثنى أحد زعماء الشعوبية ، فانصرف عن ذلك
قائلاً عنه : « وحاله في نسبه وأبيه الأقرب إليه حال فكره أن
تذكرها ، فتكون كمن أمر ولم يأتمر وزجر ولم يردجر » (١) .

ولعل من أبرز خلق ابن قتيبة التواضع ، فهو لا يدعى لنفسه
شيئاً ليس له ، ولا يستعلى على غيره ، ولا يتورع عن أن يأخذ
العلم عن أخس الناس ، فإن العلم ضالة المؤمن ، من حيث أخذه
نفعه ، وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : « خذوا الحكمة
ممن سمعتموها منه ، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم ، وتكون
الرمية من غير رام » .

وابن قتيبة يوضح ذلك كله في كلمات لا تنقصها الصراحة في
مقدمة عيون الأخبار فيقول : « واعلم أنا لم نزل نلتقط هذه
الأحاديث في الحداث والاكتهال عن هو فوقنا في السن والمعرفة
وعن جلسائنا واخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ... وعن هو
دوتنا ، غير مستكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحدثه ، ولا عن
الصغير قدرا لخبره ، ولا عن الأمة الوكلاء لجهلها ، فضلا عن

(١) كتاب العرب من رسائل البلاء ص ٣٤٦ .

غيرها ، فإن العلم ضالة المؤمن .. ولن يزرى بالحق أن تسمعه
من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين ، ولا يضير
الحسناء أطبارها ، ولا الذهب الأبريز مخرجه من كبا « أى
الكناسة » . ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة ،
والفرصة تمر مرة السحاب » .

وكان ابن قتيبة موطأ الأكناف ، سهلاً سمحاً ، يرعوى عن
الغنى إذا ما بدا له وجه الحق في غير صلف أو تكبر . واني لأذكر
قصة صغيرة تريتاً كيف كان هذا الرجل يرى الفضيلة في الرجوع
الى الحق .. يحدثنا العزالي أن ابن قتيبة قال : « مرّ بي بشر بن
عبد الله فقال : ما يجلسك ههنا ؟ فقلت : خصومة بينى وبين ابن
عم لى ، فقال : ان لأبيك عندى يدا ، واني أريد أن أجزيك بها ،
واني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ، ولا أقص للمروءة ،
ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال : فقلت
لأنصرف ، فقال لى خصمى : مالك ؟ قلت : لا أخاصمك . فقال :
عرفت أن الحق لى . فقلت : لا ، ولكنى أكرم نفسي عن هذا » (١) ..
لقد ترك ابن قتيبة اللدد والخصومة ترفعا عن أن ينزلق الى مهاوى
الشطط والتزيد . وقديما عرف الناس أن الوقوف أمام المحاكم
يغض من أقدار الرجال ؛ فإن الذى يقف للدفاع عن حقه أمام
المحكمة قد تدفعه ظروفه الى التزيد ، والتزيد أمر قبيح فيه
ضلال ، وقد ينتهي الى رمى الخصم بعبارات أو اشارات لا يصح

(١) احياء علوم الدين ١٢٥/٣ .

أن تصدر من رجل كريم . ومن هنا كره الصالحون أن يكون
الرجل فصيح اللسان أمام القضاة ، لأن فصاحة اللسان قد تحقق
باطلا وتزهق حقا في كثير من الأحيان .

وابن قتيبة يرسم للناس قواعد السلوك والمعاشرة ، فإن الحديث
ومخالطة الناس أمران يحتاجان إلى قدرة بارعة ، فقد يحسن
الكلام في موضع قد لا يحسن فيه السكوت ، وقد يكون الخير
في العكس . وقديما قالوا : « حثف المرء في منطقه » وقال النبي
الكريم : « وهل يكب الناس على وجوههم يوم القيامة إلا حصائد
السنثم » . وهو يبين لنا ذلك في مقدمة عيون الأخبار فيقول :
« ولا ترى غبا أن يتكلم الناس وأنت ممسك ، فإذا رأيت خلا
تشاكل ما حضرك من القول أحضرته ، أو فرصة تخاف فوتها
اتهزتها . وكان يقال : « اتهمزوا فرص القول ، فإن للمقول ساعات
يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب » وقالوا : « رب كلمة
تقول لصاحبها دعني » . وقد أعجبني قول عبد الله بن المبارك
في رثاء مالك بن أنس :

صوت إذا ما الصمت زين أهله

وفتاق أبكار الكلام المخشم

فأنت ترى ابن قتيبة يضع للناس دستورا في أدب الحديث
ينبىء عن شيء غير قليل من الحصافة وسداد الرأي .
ويجب أن أقدر أن ابن قتيبة من أوائل من جعلوا الزهد ركنا
هاما من أركان الأدب . فانه أفرد له بابا خاصا في كتاب « عيون
الأخبار » . وقد ذكر الجاحظ تنفا متفرقة عن الزهد والزهاد في

« السيلان والكسين » ، ولكن ابن قتيبة أنشأ للزهد بابا مستمضيا
منسقا ، وقلده أحمد بن عبد ربه في « العقد الفريد » . فابن قتيبة
قد شارك بذلك في مقاومة تيار المجون الذي ألج على الدولة في
ذلك العهد .

وكان هذا الرجل مثالا بليغا لنبل الخلق ، فلم تورثه شهرته
العلمية زهوا ولا غورا ، ولذلك لم نحص له في أى كتاب من
كتبه ما يشير من قريب أو بعيد الى شيء من الفخر والكبرياء .
يبد أنى ألمح فيه أحيانا شدة الاعتداد بالنفس ، والاعتداد
بالنفس صفة محموددة تضاف على صاحبها قوة الخلق وكمال
الرجولة ، ولكنها قد تكون مذمومة اذا أريد بها المكابرة والتشبث
والعناد . وهذا ما نلنسه في ابن قتيبة . وهو بذلك يناقض بعض
ما يتصف به من التواضع والخضوع للحق ، فلذا رأى رأيا حاول
أن يدعمه ويؤيده بهختلف الوسائل حتى لا يطأطئ رأسه أمام
خصومه . ولذلك يرى — ولنا في دهشة من ذلك — أنه خير
للإسنان أن يأتى الاتهم على جهل به ولا يسأل أهل العلم . يقول :
« وكأنت العلماء تنهى العوام عن كثرة السؤال ، وقالوا : لأن
يؤتى الشيء على جهل به أسلم من أن يؤتى على علم » (١) . وهذا
— في رأبي — خطأ كبير ، لأننا لو جرينا وراء هؤلاء العلماء
لكان مثلنا كمثل النعامة التي يضنيها طراد الصياد ، فتدس رأسها
في الرمل ظانة أنه لا يراها ما دامت هي لا تراه .

ولم يرو عن ابن قتيبة أنه كان يرتاد مكان ربيعة ، أو يأتي
ما يثلم دينه . ولم يعرف عنه قط أنه قصر في إقامة شعائر الدين ،
كما عرف عن الجاحظ مما سنبينه في حينه . وكل ما يؤخذ من
مؤلفاته أنه كان شديد الاخلاص للإسلام والمسلمين ، وبخاصة
العرب لأن الرسول بعث منهم ، ولذلك نراه يدافع عن الدين
وعن العرب في حرارة واخلاص .

الفصل الثالث

صلة بكبار رجال الدولة

يبدو لي أن ابن قتيبة كان يحيا — على العموم — حياة مستقرة ليس فيها كثير من الترحال والظعن ، وقد أتفق الشطر الأكبر منها في بغداد في طلب العلم ، ثم في تصنيف الكتب وإملائها. والظاهر أنه أدى فريضة الحج والزيارة ، لأنه يذكر في كتاب « المعارف » أنه قرأ على موضع الزيادة التي أضافها المأمون إلى مسجد المدينة عبارة يسجل فيها تاريخها (١). ولكننا لا نعرف تاريخ حجه على وجه التحديد ، وهو على كل حال قد أدى هذه الفريضة قبل سنة ٢٥٦ ، أي قبل تأليف كتاب المعارف ، وسنعرف ذلك في موضعه .

ولم يعرف عنه كبير اتصال بعظماء الدولة ، أو المناصب الحكومية ، اللهم إلا توليه القضاء في الدينور ، فأقام بها مدة حتى نسب إليها ، ثم عاد إلى بغداد واتخذها مقاما له حتى مات . وكانت له علاقة بوزير المتوكل والمعتمد « أبي الحسن عبيد الله بن يحيى

(١) كتاب المعارف ص ٢٤٥ طبعة المطبعة الإسلامية .

ابن خاقان . والظاهر أن هذه العلاقة لم تزد على أن تكون علاقة علمية ، لأنه أهدى له كتاب « أدب الكاتب » . وأنا أعتقد أن تولية قضاء الدينور كان الثمرة العملية الوحيدة لهذه العلاقة كما يقول ابن السيد البطليوسي (١) . وقد ذكر ابن قتيبة هذا الوزير في صدر « أدب الكاتب » ، وأثنى عليه ، وأشار إلى أنه صنف الكتاب اجابة لطلبه . ومن المحقق أنه لم يكن من خاصة الوزير والمقربين إليه ، لأنه لم يشر إلى ذلك قط في كتبه الأخرى ، كما أنه لم يكن مغمورا بالنعمة والحياة الرخية . شأن المقربين من الوزراء وكبار رجال الدولة . وربما كانت هذه هي الصلة المحققة التي كانت لابن قتيبة مع عطاء الدولة .

وقد عثرت له في عيون الأخبار على كتاب شكر وجهه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) ، ولا بد أن يكون هناك سبب لهذا الشكر . غير أنه لم يشر قط في أى مؤلف من مؤلفاته إلى صلته بهذا الأمير كما أشار في مقدمة أدب الكاتب إلى الوزير عبيد الله ابن خاقان . وكل ما يمكن أن يقال في هذا الأمر أن اسحاق بن راهويه — أحد شيوخ ابن قتيبة — كان على صلة بعبد الله بن طاهر أمير خراسان . وكان ابن قتيبة في فتاه سنة يتردد على خراسان ليأخذ العلم عن أستاذه اسحاق ، وكان يتبعه في غدوه ورواحه . وليس بعيد أن يكون التلميذ قد قصد أستاذه في دار الامارة ذات مرة ، فالتقى هناك بابن الأمير « محمد بن عبد الله

(١) الاقتضاب في شرح ادب الكاتب ص ٢٤ .

(٢) انظر عيون الأخبار ٢/٢٢٢ .

(ابن طاهر) ، فحدث بينهما ما يشبه الألفة التي تعقدها حياة الشباب .

وقد ذكر الدكتور اسحاق الحسيني أنه عثر على نسخة فريدة من كتاب المعارف في المتحف البريطاني نسخت في شعبان سنة ٧١٠ هـ ، وقد كتب الناسخ في نهايتها أن الموفق — وهو أخو الخليفة المعتد — استدعى ابن قتيبة سنة ٣٦٦ الى بغداد ، فأتى ، وقرأ عليه هذا الكتاب « المعارف » فأجازه بعشرة آلاف دينار (١) . وإذا صحت هذه القصة — وقد صدقها الدكتور الحسيني —

كانت وساطة هذه الصلة الوزير عبيد الله بن خاقان الذي كان مقربا لدى الموفق ، وهو الذي ولاه الوزارة في خلافة المعتد . ولكنني أشك في هذه القصة ، لأنها لو حدثت لأشار إليها ابن قتيبة في الكتاب نفسه ، كما فعل في « أدب الكاتب » الذي أشار فيه الى الوزير ابن خاقان ، أو ذكره في أى كتاب من كتبه ، وبخاصة أن القرب من الموفق في ذلك الحين كان مدعاة للثب والفضل ومطمح نفوس العلماء ، لأن السلطات كلها كانت في قبضة يده دون الخليفة . وأنا أرى أن الناسخ نفسه هو الذي فعل ذلك ليرفع من شأن الكتاب . والكتاب — في حقيقة الأمر — قيم جدا وليس في حاجة الى محاولة الاعلاء من شأنه .

على أن صلاته بهؤلاء العظماء — ان صحت جميعها — لم تكن من القوة التي تتيح له أن يكون من خواصهم المغمورين بنعمهم وأفضالهم .

الفصل الرابع

شيوخه

أخذ ابن قتيبة العلم عن علماء كثيرين مختلفي المناحي ، ولهذا كان متنوع الثقافة غزيرها ، أخذنا من كل لون منها بحظ طيب . فمنهم المحدث ، ومنهم اللعوي ، ومنهم النحوي ، ومنهم راوية الشعر والأخبار .. الخ . وبعضهم يذكر من أساتذته شيوخا يسقطهم البعض الآخر . وقد تشبعت في دقة العلماء الذين أخذ عنهم ، سواء الذين صرح هو بالأخذ عنهم في كتبه ، أو الذين ذكرهم المترجمون له كشيوخ تلقى العلم عنهم ، وهم كثيرون يزيدون على الأربعين شيخا ، وبعضهم لم يزوعنه ابن قتيبة الا قليلا ، وأمثال هؤلاء لا نعتبرهم — بطبيعة الحال — من أساتذته . وغلبنا أن نوجه اهتمامنا إلى شيوخه الذين لازمهم وأخذ عنهم ، وهم الذين ذكرهم المترجمون له على أنهم أساتذته فقالوا انه أخذ العلم عن فلان وفلان .. ويمكن حصرهم في خمسة شيوخ أجلاء كانوا — من غير شك — المنهل الذي ارتشف منه ابن قتيبة ثقافته ، وهم : أبو الفضل الرياشي ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن قريظ ، وهو ابن أخي الأصمعي ، وإبراهيم بن سفيان الزياتي ،

وأبو حاتم السجستاني ، واسحاق بن راهويه . وهؤلاء جميعا من أساطين العلماء في اللغة والأدب والنحو والرواية والحديث والتفسير ، ومعظمهم من مدرسة الأصمعي . ومن الخير أن أعرف بكل واحد منهم في عبارة قصيرة ، ما عدا الشيخين الأخيرين « السجستاني وابن راهويه » فقد رأيت أن أخصهما بشيء من التفصيل لعظيم تأثيرهما في ابن قتيبة دون غيرهما .

فالرياشي كان ضليعا في النحو واللغة ، وقد قرأ النحو على المازني ، وقرأ عليه المازني اللغة (١) ، وكان كثير الرواية عن الأصمعي . وقد قتله الزنج بالبصرة بالأسيف ، وهو قائم يصلي الضحى سنة ٢٥٧ هـ (٢) .

وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي كان ثقة فيما يرويه عن عمه ، وعن غيره من علماء البصرة . وكان بارعا في حفظ اللغة والأشعار (٣) ، وقد ذكره الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين .

والزيادي ينتهي نسبه الى زياد بن أبيه ، وكان نحويا لغويا راوية ، أخذ عن سيبويه وأبي عبيدة والأصمعي ، ومات سنة ٢٤٩ هـ .

أما شيخاه الأخيران فهما أخلق بالعناية من غيرهما وهما :

(١) طبقات النحاة لابن قاضي شهبة ص ١١٩ « مخطوط بدار الكتب » .

(٢) تاريخ الطبري ١٠/ ١١٢ .

(٣) طبقات المفسرين ص ١٣٣ ب « مخطوط بدار الكتب » .

أبو حاتم السجستاني :

هو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ، ينسب الى سجستان بالقرب من كابل ، وهو ممن سكنوا البصرة . وكان عالماً ثقة ضليعا في العربية والشعر دقيق النظر ^(١) . وقد أخذ العلم عن كبار علماء عصره كأبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي والأخفش . وأخذ عنه أبو بكر بن دريد وابن قتيبة والمبرد وغيرهم . وكان اماما في النحو واللغة والعروض والقراءات ، صادق الرواية . وقد اشتغل بالحديث وكتب كثيرا منه عن ثقات ^(٢) . ويقول عنه أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي : « وكان أبو حاتم في نهاية الثقة والأتقان والنهوض باللغة والقرآن ، مع علم واسع بالاعراب أيضا » ^(٣) . وكان معنيا بالنحو ، وقد قرأ كتاب سيبويه على الأخفش مرتين ^(٤) ، ويذكرون أنه صنف فيه ، ولكن يظهر أنه لم يبلغ فيه درجة الحذق ؛ لأنهم يروون أنه كان اذا اجتمع بأبي عثمان المازني في دار عيسى بن جعفر الهاشمي تشاغل أو بادر بالخروج خوفا من أن يسأل عن مسألة في النحو ^(٥) . ويعزى ذلك الى أنه « ترك النحو بعد اعتناؤه به حتى كأنه نسيه ، ولم يكن

(١) الانساب ص ٢٩١ .

(٢) انظر الفهرست ص ٥٨ ، وطبقات الأدباء ص ٢٥١ ، وشذرات الذهب ١٢٠/٢ ، والمزهر ٤٠٨/٢ .

(٣) مراتب النحويين ص ١٣٠ (مخطوط) .

(٤) وفيات الأعيان ٢٧٣/١ .

(٥) المصدر نفسه .

حافظاً فيه» (١)، وكان — إلى جانب ذلك — صالحاً غفياً يتصدق كل يوم بدينار ، ويختم القرآن في كل أسبوع كما يقول ابن خلكان . ولا يبعد أن يكون ذلك قد أثر في سلوك تلميذه « ابن قتيبة » الشخصي ، فوصفه بالورع والتقوى .

وكان أبو حاتم خفيف الروح ، محباً للدعابة ، رقيق العاطفة ، ذواقة للحسن (٢) . وتستطيع أن تقرأ له شعراً لطيفاً في الجزء الأول من وفيات الأعيان . ولم يتصف التلميذ بما اتصف به الأستاذ من حب الدعابة وخفة الروح ، لأنه كان يأخذ نفسه بجد العالم ووقاره .

ومات أبو حاتم في منتصف القرن الثالث الهجري فيما بين سنتي ٢٤٨ ، ٢٥٥ على اختلاف بين الرواة . وفي هذا الوقت كان ابن قتيبة في عتفوان رجولته ، ويمكن أن يقال أنه اتصل بأستاذه مدة لا تقل عن عشرين عاماً . وكان يذهب إليه بالبصرة لملاقاته ، كما كان الأستاذ يتردد على بغداد الحين بعد الحين فيقبل عليه التلميذ لينهل من علمه . ولا شك أن ابن قتيبة قد استفاد منه كثيراً في نواح مختلفة من العلم . وربما كان تنوع معارف ابن قتيبة راجعاً إلى أستاذية أبي حاتم ، فقد كان الأستاذ نحويًا وله مؤلفات في النحو ، وكان ابن قتيبة كذلك نحويًا وله كتب في النحو أيضاً كما يقولون . ولكنني أرجح أن ثقافة ابن قتيبة

(١) طبقات المفسرين ص ٩٠ (مخطوط) .

(٢) الأنساب ص ٢٩١ .

النحوية يرجع أكثرها الى الرياشي والزيادي ، وبخاصة الرياشي
لأنه كان تلميذا لسيبويه .

وكان السجستاني لغويا ، وله كتب في اللغة ذكرها ابن النديم
وأخذ عنه ابن دريد ، وكذلك كان ابن قتيبة لغويا ضليعا وله
مؤلفات لغوية متعددة في موضوعات شتى ، وصل إلينا منها أدب
الكتاب ، وكتاب النعم والبهائم ، وكتاب المسائل ، وكتاب المعاني
الكبير .

وكان أبو حاتم ذا دراية بالشعر والأخبار ، وهذا هو ميدان
ابن قتيبة المجلّي فيه . وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء ،
والمعارف كلها ناطقة بذلك .

وقد أغنى أبو حاتم بالحديث ، وكان ثقة فيه ، وروى له
النسائي في سننه (١) . وعناية تلميذه ابن قتيبة بالحديث كبيرة ؛
فقد وضع الكتب في غريب الحديث ، وفي مشكله ، وفي تأويل
مختلفة . بيد أنني أرى أنه تأثر في هذه الناحية (ناحية الحديث)
بأستاذه الآخر ابن راهويه ، وبالإمام ابن حنبل أكثر من تأثره بأبي
أستاذ آخر .

وكان أبو حاتم معنيا بالقراءات ، وهم يذكرون أن له مؤلفات
فيها . وقد جرى تلميذه على سننه ، فعنى بالقراءات ، ووضع فيها
الكتب كما يذكرون ، ولكن لم يصل إلينا شيء منها .
وهكذا نرى أن ابن قتيبة كان — كأستاذه — عالما غزير

(١) طبقات المفسرين ص ٩٠ .

العلم ، ولم يقتصر على لون واحد من ألوان المعارف العربية .
وامتاز عن أستاذه بوقوفه على كثير من الثقافات الأجنبية مما وسع
في أفقه وصقل ذهنيته .

اسحاق بن راهويه :

هو الامام أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي
المروزي ثم النيسابوري الحافظ (١) من جلة أصحاب أحمد
ابن حنبل (٢) رضى الله عنه . وراهويه لقب أبيه أبى الحسن
ابراهيم (٣) . وقد ولد اسحاق بين سنتي ١٦١ و ١٦٦ هـ ، وتوفي
فيما بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٨ هـ كما يذكر الرواة مختلفين (٤) ،
وكان من كبار المحدثين ، وقد رحل بسبب الحديث الى الحجاز
واليمن والشام ، وسمع من النضر بن شميل ، ومن سفيان
ابن عيينة ، ومن في طبقته . وروى كذلك عن الامام الشافعي
ورضى الله تعالى عنه . ويقول أحمد بن حنبل : « اسحاق عندنا امام

(١) شذرات الذهب ٨٩/٢ .

(٢) الفهرست ص ٢٣٠ .

(٣) وراهويه « بفتح الراء ، وبعدها هاء ساكنة ، ثم واو
مفتوحة ، وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة » . وقد سأل عبد الله
ابن طاهر اسحاق عن هذا الاسم فقال ان اباه ولد في الطريق فقالت
المراوذه : راه « يعني طريق » ، و « وبه » يعني « وجد » . ومعنى
ذلك « وجد في الطريق » أي « ولد في الطريق » . ثم يقول اسحاق :
وكان أبى يكره هذا الاسم ، أما أنا فليست أكرهه . الأنساب للسمعاني
ص ٢٤٥ .

(٤) انظر وفيات الأعيان ٨٠/١ ، والأنساب ، والفهرست ،
وطبقات الأدباء ص ٢٥٣ .

من أئمة المسلمين ، وما عبر الجسر أفقه من اسحاق » . وكان
 ذا حافظة قوية ساعدته على أن يفي في ذاكرته عشرات الآلاف من
 الحديث . وكان شديد الورع والتقوى ، ويقول محمد بن أسلم :
 « ما أعلم أحدا كان أخشى لله من اسحاق » (١) . وكان — الى
 جانب ذلك — من أعلم الناس بتفسير آي الذكر الحكيم ، ويقول
 أحمد بن سلمة : « أُملى على اسحاق التفسير عن ظهر قلبه » (٢) .
 ولكون ابن راهويه أستاذ ابن قتيبة الأعظم في الحديث
 يجدر بي أن أبين فضل هذا الرجل على الحديث وعلماء الحديث :
 المعروف أن أبا جعفر المنصور أمر الامام مالك بن أنس بجمع
 كتابه الموطأ ، وهو أقدم كتاب في الحديث والفقه وصل إلينا .
 ومنذ ذلك العهد انصرفت همم أئمة المسلمين الى جمع الحديث
 وتدوينه ، حتى كان أنفس ما يتنافس في معرفته العلماء . وقد
 نفقت سوق رجاله عند الخلفاء وأشراف الأمة ، فاندس بينهم كثير
 من أهل الضلالة والزندقة ، ووضعوا كثيرا من الأحاديث التي
 قبلها منهم بعض أهل الغفلة من طلاب الحديث فشق ذلك على
 الخلفاء ، فحملوا عليهم حملة حازمة ، وزجّوا بهم في أعماق
 السجون ، وأعملوا فيهم التقتيل حرصا على حديث النبي الكريم .
 وقد أكب الأئمة على تمحيص الصحيح من المصنوع ، فأقتفوا
 آثار الرواة جرحا وتعديلا ، ونظروا في الأحاديث نقدا وتصحيحا ،

(١) شذرات الذهب ٩٠/٢

(٢) طبقات المفسرين ص ٤٤ .

ووضعوا لذلك متونا وكتبوا خاصة ، ورتبوا أنواع الحديث
مراتب مختلفة صحة وضعها .

وكان على رأس من قام بهذا العمل الجليل الضخم اسحاق
ابن راهويه . وقد أضاف الى ذلك فضلا آخر ؛ ذلك أنه أول
من جرّد كتب الحديث من مسائل الفقه والتفسير ، وكانت قبل
مستخرجة . ثم اشتهر بعده تلميذه شيخ المحدثين «محمد بن اسماعيل
البخارى» ، فوضع بإشارة منه كتابه الجامع الذى جمع فيه
الصحاح فقط . وكانت الأحاديث قبل ذلك تجمع مختلطا صحيحها
بضعيفها ، وتبعه فى ذلك مسلم بن الحجاج وهو ممن أخذوا عن
اسحاق ، فكان صحيحا همام أصح الكتب بعد كتاب الله . ثم
استدرك الأئمة بعدهما ما فاتهما من الصحيح ، ووضعوا فى ذلك
كتبا كثيرة أجمع الناس على صحة الأربعة المشهورة منها .

ومن ذلك يتضح لنا أن اسحاق بن راهويه قد قدّم للحديث
أكبر صنيع ، فانه قام بتنقيته من المدسوس عليه ، وجرده كذلك
من مسائل الفقه بعد أن كان مختلطا بها . وقد تفخ فى تلاميذه
من روجه ، فنبغ فيهم أعظم علماء الحديث وهم البخارى ومسلم
والترمذى . ونستطيع أن نقول فى ثقة ان ابن قتيبة قد عنى
بالحديث متأثرا بأستاذه اسحاق بن راهويه . ويشير ابن تيمية الى
ذلك فيقول : « كان ابن قتيبة يميل الى مذهب أحمد واسحاق
ابن راهويه » (١) .

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

ولكن ابن قتيبة كان — مع ذلك — لا ينكر الرأي والقياس ،
ويوجب الاجتهاد الذي لا يتعارض ومتواتر الحديث كما سنعرف
فيما بعد .

على أن ابن راهويه نفسه قد اتصل بالشافعي ولازمه وأعجب
به ، وأدى اعجابه هذا الى أن يعتنق مذهبه ، وهو المذهب الذي
يتوسط مذهبي الرأي والحديث . فقد توسع الشافعي في
الاستدلال بالحديث أكثر مما فعل أبو حنيفة ، ولم ينكر القياس
جبلة .

ومن ذلك نعرف أن ابن قتيبة قد تأثر بأستاذه اسحاق أكبر
تأثير . وأعظم مظاهر هذا التأثير عنايته بالحديث واتباع مذهبه
الفقهي ، ولو أن اشتغاله بالحديث كان ذا طابع أدبي جدلي ،
وسنبين ذلك في فصل خاص .

وتأثر ابن قتيبة كذلك بأستاذه المحقق من ناحية اشتغاله
بتفسير القرآن ، فليس من شك في أنه قد وعى عنه تفسير آي
الذكر الحكيم . ومن مظاهر ذلك مؤلفاته في التفسير التي لم يصل
اليها منها الا كتابا غريب القرآن ومشكل القرآن .

وهناك أمر يجب ألا نغفله ، وهو اقتداء ابن قتيبة بأستاذه
الجليل الورع في السلوك . واليه يرجع ما كان يتصف به ابن قتيبة
من الجد والتوقر الى حد التزمّت . واذن فقد بث اسحاق كثيرا
من سخاياه في تلميذه ، فثبأ على خلايقه ، كما سار على منواله
في مذهبه .

وكان التلميذ يلتقي بأستاذه في نيسابور ، كما كان يلتقي به
في بغداد كذلك وكانت منتجع كل قاصد من العلماء والأدباء في
ذلك الحين .

ونستطيع أن نقول بعد ذلك ان ابن قتيبة قد أخذ عن أستاذه
أبي حاتم السجستاني علوم العربية ، كما أخذ عن أستاذه
ابن راهويه علوم الدين .

الباب الثالث

آثار ابن قتيبة

الفضل الأول

ابن قتيبة المؤلف

كان ابن قتيبة من خير النماذج التي تمثل ثقافة ذلك العصر
أصدق تمثيل . فقد ألمّ خير الملمّ بالوان الثقافة العربية ، ووقف
وقوفا طيبا على بعض الثقافات الأجنبية التي ظهرت في محيط الفكر
العربي آنذاك . ويقول المستشرق الفرنسي الأستاذ « جود
فروي ديمومين Gaudfroy Demombynes » في مقدمته للترجمة
الفرنسية التي وضعها لمقدمة كتاب الشعر والشعراء (١) : « يعتبر
ابن قتيبة مثلاً للرجل المثقف الذي يمثل ثقافة عصره في العصور
الوسطى ، سواء في الشرق أو في الغرب » . ويقول الأستاذ
« بروكلمان Brocklman » في دائرة المعارف الإسلامية :
« الواقع أن مصنفات ابن قتيبة قد تناولت جميع معارف عصره » .
ومصدق ذلك أننا نراه قد ألف في جميع الفنون العربية التي
كانت معروفة في زمنه كما سنعرف .

وكان ابن قتيبة ذا عقلية منظمة مصقولة ، ولذلك جاءت كتبه

(١) قابلت هذا الرجل في مدرسة اللغات الشرقية في باريس ،
وأهدى إلى نسخة من كتابه هذا ، واسمعه بالفرنسية :

وليدة هذا الفكر المنسق . فقد كان التأليف الأدبي ساذجا لا يعنى فيه الا بالاختيار ، فمسألة من هنا ومسألة من هناك ، واستطراد لا ضابط له ، ومسائل من واد واحد مفرقة في الكتاب ، ومسائل مجتمعة لا تنضوي تحت موضوع واحد ، وذلك ملحوظ في كتب « البيان والتبيين » ، و« الحيوان » ، و« الكامل » . فاذا تناولت كتاب « الحيوان » أحسست أنه يمثل فوضى التأليف ، فهو حين يتكلم عن الكلب والديك ، وحين يعرض للمفاضلة بينهما ، وما يحتاج به صاحب كل منهما .. يخرج عن ذلك كله الى موضوعات لا تخطر على بال . فزراه في أثناء ذلك يسوق كلاما في الإمامة والشيعة ، وفي الشعر وأثره في القبيلة ، واعتزاز العرب بالشاعر .. وهكذا ، وكذلك الحال في البيان والتبيين و« الكامل » .

ولكن الأمر يختلف في « عيون الأخبار » مثلا ، ففيه تشعر بأن كتب المختارات الأدبية قد خطت خطوات واسعة نحو التوقل والكمال على يد ابن قتيبة .. وذلك أنه رتب المختارات وبوبها وجمع ما تشابه منها تحت عنوان واحد ، مثل : كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب الطعام وكتاب النساء .. الخ ، وبذلك يسهل على الباحث أن يجد ضالته في غير عناء . وهو حين يتناول الموضوع يستقصيه استقصاء شاملا ، فاذا تحدث عن السلطان مثلا يتكلم عن صحبته وآدابها ، واتقاء شره ، واختيار علماله وكتابه وبطانته ، وغير ذلك ، موردا في ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم والشعر الرائع والنادرة اللطيفة والفكاهة الباردة .. كل ذلك في تنسيق بديع ، ولا ينتقل من نقطة الى أخرى من غير أن

يرشح لها باستطراد مناسب ليس كاستطراد الجاحظ ، بل يمضى
فى الموضوع الذى يتناوله الى أن يوفيه حقه ، ثم ينتقل الى
غيره .

ويرجع هذا التنظيم الذى نراه فى كتب ابن قتيبة
— فيما أرى — الى المامه باللغة الفارسية ووقوفه على مؤلفات
الفرس التى كانت — من غير شك — تتاج عقول متحضرة تعاقبت
عليها أحقاب طويلة . ولهذا السبب نفسه يرجع تنظيم التأليف عند
عبد الله بن المقفع فى الأدب الصغير والأدب الكبير ، وكليلة ودمنة .
أضف الى ذلك أن ابن قتيبة اطلع على مؤلفات غيره ، فأزعجه
ما فيها من خلط وفوضى ، فاحترز من ذلك فى كتبه .

ومما ساعد ابن قتيبة على تركيز التأليف أنه كان يضع كتبه
بقصد افادة المتأدين ، فكان يعرف حاجتهم الى ألوان من المعرفة
يجعلونها مع ضرورتها ، أو يعرفونها معرفة فاقصة خاطئة . ولهذا
كان يوجه عنايته الى وضع كتب فى موضوعات بعينها فى الغالب
حتى يسهل على الناس ادراك بغيتهم منها . ويشير الأستاذ
« نيكلسون Nichlson » الى ذلك فيقول : « ان كتب
ابن قتيبة تعتبر من المؤلفات القيمة المنظمة التى تتناول موضوعات
بذاتها » (١) . والرواة يشيرون الى أنه « أحسن العلماء ترصيفا
وأجودهم تصنيفا » (٢) .

(١) A literary history of the Arabs. p 364

(٢) مجلة المنار ج ٨ مجلد ٩ ص ٥٤٨ عن كتاب « التحديث
بمناقب أهل الحديث » .

وقد ألف ابن قتيبة في فنون متنوعة مختلفة . وكلهم يشيرون الى أن كتبه قيمة معروفة لدى الناس جميعا . وبلغ من تقدير الناس لكتبه أن قال العالم الجليل ابن تيمية : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه » (١) .

وكان أهل المغرب والأندلس يقدرون كتبه تقديرا عظيما ويعنون بدراستها ، ويذكر العالم الأندلسي « أبو بكر محمد ابن خير الاشبيلي » بعض كتب ابن قتيبة التي كانت متداولة في بلاده ، وهي : الأتواء ، والمعارف ، والشعر ، والشعراء ، والمسائل ، وعيون الأخبار ، ومعاني الشعر ، والميسر ، والقداح (٢) . وهذه الكتب من خير ما ألف في الثقافة العربية في بابها . وكان أهل المغرب يحطون ابن قتيبة ومؤلفاته من نفوسهم أسمى محل ، ويكفرون من يثلمه (٣) .

وهم يصفونه بكثرة المؤلفات ، ويذكر بعضهم أنه ألف ما يقرب من ثلثمائة كتاب في شتى أنواع المعارف العربية . وهذا أمر مبالغ فيه ، ولكنه يشير الى كثرة مؤلفاته . ونحن نقول — والأسف يكلم الفؤاد — انه لم يبق لنا من هذه المؤلفات الا نزر يسير لا يتجاوز بضعة عشر كتابا . وانه لمن المؤلم حقا أن تمتد يد البلى الآثمة الى مؤلفات له وضعت في علم بعينه ففتحها وآت عليها . فنحن لم نظفر له مثلا بأى مصنف له في النحو ، مع

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٧٧ .

(٣) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

أنهم يذكرون له أكثر من مؤلف في هذا العلم . ولهذا نجد شيئاً كبيراً من العسر في معرفة آرائه النحوية . والذي يحيرني أنهم يصفونه بالنحوى ، ويذكرون أنه خلط بين المذهبين ، ولا نعرف له في هذا الباب إلا آراء متناثرة فيما بقى من مؤلفاته لا تغنى شيئاً .

ويجب أن أشير هنا إلى أن عدداً كبيراً من الكتب قد نسب بغير حق إلى ابن قتيبة ، وذلك أنه كانت تطلق عدة أسماء على الكتاب الواحد ، ويختلط الأمر على بعض الناس فيظنون أن كل اسم منها لكتاب معين . فمثلاً يطلق على كتاب « العرب » هذه الأسماء في مصادر مختلفة : « ذم الجسد »^(١) ، والرد على الشعوية وتفضيل العرب^(٢) ، والتسوية بين العرب والعجم^(٣) ، وتفضيل العرب على العجم^(٤) . وكذلك لكل من كتاب « الشعر والشعراء » ، وتأويل مختلف الحديث ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، والمعاني الكبير « أكثر من اسم .

وابن قتيبة — إلى جانب نهوضه بالتأليف — يعتبر من أوائل المؤلفين الذين عنوا بوضع مقدمة لكل مؤلف من مؤلفاتهم تبين الغرض منه والدافع إلى تأليفه .

(١) كتاب العرب في رسائل البلغاء .

(٢) العقد الفريد ٧٢/٢ طبع المطبعة الأزهرية .

(٣) الفهرست ص ٧٨ .

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ص ٢٢١

(مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة) .

وكتب ابن قتيبة قسمان :

١ - قسم نقلى ، وهو ما ليس له فيه من فضل الا الجمع

والتوبيخ والتنسيق ، مثل كتابي « عيون الأخبار ، والمعارف » .

وهذا القسم لا تتجلى فيه شخصيته بصورة واضحة .

٢ - قسم وضعى ، وهو ما كانت مادته من لدنه ، وهذا

النوع قسمان :

(أ) ما يستمد مادته من عقليته التى لها منحى خاص فى

التفكير والحجاج . وفى هذا النوع يدرك الانسان مدى فطنته

ولون منطقته وسعة أفقه ، كالكتب التى ألفها فى الرد على أعداء

أهل الحديث وعلى الشعوية . ومن أمثلة ذلك كتب « تأويل

مختلف الحديث » ، والاختلاف فى اللفظ والرد على المشبهة

والجهمية ، وكتاب العرب ، ومقدمة الشعر والشعراء » . ويسكن

أن يلحق بهذا القسم « كتاب الأشربة » . وهذا النوع يصح أن

نسميه « ذا المادة الداخلية » . أعنى أن مادته من وضعه .

(ب) ما يستمد مادته من « القسم النقلى » ، ولكنه يعرضه

فى أسلوبه الخاص ، ويؤلفه فى أثواب من صناعته ، ويشفعه ببعض

آرائه فى الغالب . ومن أمثلة ذلك كتاب « الشعر والشعراء »

وكتاب « الميسر والقداح » وكتاب « الأنواء » ، ويصح أن نطلق

على هذا اللون « ذا المادة الخارجية » .

ومن العسير جدا أن نرتب هذه الكتب ترتيبا زمنيا مقترنا

بأطوار حياة ابن قتيبة لأسباب ثلاثة هى :

١ — أننا نجهل حياته كل الجهد كما عرفنا في فصل سابق ؛
فلا نستطيع أن ندرك مسيرة مؤلفاته لها .

٢ — ان كتبه التي تعتمد على عقلية الخاصة تكاد تكون في
مستوى واحد .

٣ — انه لم يشر الى أى شيء من ذلك في لفظ صريح يمكن
الاعتماد عليه في أى كتاب من كتبه . بل انه لم يشر الى الكتب
التي ألفها في مدينة « الدينور » أثناء اشتغاله بالقضاء فيها .

ولكننا سنحاول جهد طاقتنا أن نرتب هذه الكتب ، معتمدين
على اشارات يسيرة وردت في ثناياها تدفعنا الى شيء من الترجيح
بعيد عن مرتبة القطع والعزم . وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي
رأيناها صالحة لترتيب مؤلفاته ترتيباً زمنياً بقدر الامكان .

الفصل الثاني

كتب ابن قتيبة

والآن نسوق هذه الكتب مرتبة ترتيبا زمنيا حسب ما داخلنا من الترجيح ، موردين نبذة يسيرة عن كل كتاب بقدر ما يتسع له المقام :

١. — كتاب الأنواء : ترجح أن هذا الكتاب أسبق كتب ابن قتيبة التي وصلت إلينا ، لأنه لم يشرف فيه إلى واحد من كتبه الأخرى ، وقد أشار إليه في « كتاب المعاني الكبير » الذي يعتبر من أوائل مؤلفاته (١) . وقد ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة ، وهو مطبوع بحيدر أباد بالهند ، وله نسخة خطية بالخزافة الزكية أخذت لها صورة شمسية « رقم ١٠٨٠ ميقات » بدار الكتب (٢) . وهذا الكتاب يقفنا على علم الميقات من وجهة نظر العرب . وقد اتبع فيه طريقة استنباطية علمية . فقد جمع أسجاع البدو المنتشرة ، التي تتضمن تنبؤاتهم الفلكية والجوية ، واستخلص منها قواعدهم العامة . وكان يشفع هذا الاستنباط بالاستيثاق من

(١) كتاب المعاني الكبير ص ٣٧٥ ، ٧٣٨ طبعة حيدر أباد .

(٢) وهذه المخطوطة هي التي اعتمدت عليها .

أعراب البدو الذين يتطأون إلى صدق معلوماتهم .. فمثلا يقول
ساجع العرب : « اذا طلع الغفر اقشعر السفر ، وتزبل النضر ،
وحسن في العين الجمر » (١) .

وهذه العبارة وأمثالها سجلت نتيجة للملاحظات المتكررة
للمظاهر الجوية والفلكية . ونحن في ريفنا المصرى نشاهد الفلاحين
يضعون لكل شهر من الشهور القبطية جملة تشير الى معنى من
المعاني التي استنبطت بالملاحظة ، وهي كثيرة نذكر منها هذه
العبارات كما ينطقها أهل الريف باللغة العامية : « طوبة يخلّى
الصبية كركوبة ، أمشير يخلّى جلد العجوز عالفرش حصير ،
في كياك « كيهك » تقوم من جنبك تحضّر عشاك » .. وغير ذلك
من الأمثلة الكثيرة التي لا يتسع المقام لذكرها .

وللكتاب قيمة خاصة تظهر في شرح بعض الألفاظ والتعابير
الفلكية التي وردت في القرآن والحديث والشعر .

وقد تناول ابن قتيبة فيه منازل القمر والأنواء والفرق بين
يماينها وشاميها ، والسحب ، المطر منها والمخلف ، والبروق ،
الخلب منها والصادق ، وأمارات خصب الزمان وجلبوته ،
ومساقط النجوم ، ومواقع الكواكب وأثرها في عصمة الانسان
من الضلال في المهامة والبيد . وتحدث عن الأزمنة وتحديد أوقاتها

(٢) كتاب الأنواء ص ٣١ .

الففر : يفتح الفين منزل للقمر ثلاثة أنجم صفار ، ولا يكون
الا في الشتاء حيث يشتد البرد . تزبل النضر : زالت نضارة
الأشجار .

عند العرب ، ونجومها ، والفصول ، وأسماء الكواكب المنسوبة الى الثريا ، والعيشوق ، والشمس ، والقمر ، والقطب ، والمجرة ، والرياح وأنواعها وتحديد مهامها .. وغير ذلك من المعلومات الجنة التي تنبئ عن دقة الملاحظة عند العرب . وهو لا ينسى أن يبين فضل العرب في هذه الناحية ، فيقول في المقدمة : « وكان غرضي في جميع ما أنبأت به الاقتصار على ما تعرف العرب في ذلك وتستعمله دون ما يدعيه المنسوبون الى الفلسفة من الأعاجم ، ودون ما يدعيه أصحاب الحساب ، فاني رأيت علم العرب هو العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان ، النافع لنازل البر وراكب البحر وابن السبيل » .

ويذكر ابن قتيبة أنه صحب أعرابيا في فلاة ، فأخذ يسأله عن محال العرب ، والأعرابي يدلّه على كل محلّة بنجم يسميه ويعيّن موضعه في دقة تامة تدعو الى الإعجاب . وهذا يدل على أن ابن قتيبة كان يستقى معلوماته من مناهلها الحقّة .

وقد اعتبره بعض المستشرقين من كبار علماء الفلك ، وعلى رأسهم الأستاذ « ادوارد براون E. Browne » في كتابه « تاريخ الأدب الفارسي » ^(١) . وساعدتهم على هذا الاعتقاد وجود نسخة من كتاب الأنواء في مكتبة « أكسفورد » تحمل اسم « علم الفلك » . ولو نظروا الى مادة الكتاب لأدركوا أنه لا يمكن أن يعتبر كتابا في علم الفلك بالمعنى المعروف . فهو لا يعدو أن

يكون معلومات عرفها العرب من خبرتهم العملية الطويلة ، تكفى حاجتهم في الحل والترحال ، وقد استخلصها ابن قتيبة من أسجاع طالعرب وما أثر من أقوالهم كما يصرح هو بذلك . ولهذا لا يعتبر ابن قتيبة — في نظري — من علماء الفلك .

٢ — كتاب المعاني الكبير : ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة . وقد تم طبعه منذ بضع سنين بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند ، بتحقيق عبد الرحمن ابن يحيى اليماني المصباح بدائرة المعارف .

ويرجع الفضل في نشر هذا الكتاب الى المستشرق الدكتور « كرنكو Krinkau » ، فقد حصل على نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي لجزء منه موجود في خزانه « أيا صوفيا باستنبول » ، ووجد الجزء الآخر بمكتب الهند بالقسم العربي بلندن . وقد نسخ هذين الجزأين بخط يده ، وبذل غاية الجهد في تصحيحهما ، واضطر الى أن يقلب كثيرا من المعاجم اللغوية ودواوين الشعراء كما يقول المحقق . وقد أشار الدكتور « كرنكو » الى أن الجزأين بخط واحد ، مما جعله يرجح أنهما كانا نسخة واحدة فرقت بينهما يد الزمان ، وأنهما كتبا في القرن السادس أو السابع الهجرى . وذكر أنه وجد في الأصل كثيرا من الخطأ والتصحيح ، فأثقف وقتنا طويلا في تصحيح هذا الأصل السقيم ، وبخاصة الأشعار . ثم أكمل هذا العمل المضنى بوضع فهرس قيمة متنوعة .

وهذا الكتاب من أضخم كتب ابن قتيبة وأجزؤها فائدة .

وأغلب الظن أنه لم يكن هناك غرض خاص يتعلق بتأليفه سوى
إفادة كل ناشد للعلم .

ولا شك أن هذه النسخة التي بأيدينا ناقصة من أولها ، ومن
آخرها . أما نقصها من أولها فيتضح من خلو الكتاب من المقدمة ،
وليس هذا شأن ابن قتيبة ؛ فلا يخلو كتاب من كتبه من مقدمة
قيمة تبين غرضه من تأليفه والدافع إليه . هذا إلى أن الكتاب مبدوء
بشرح أبيات في وصف سرعة الجواد ولا عنوان لها .

وأما نقصها من آخرها فقد أشار الناشر نفسه إلى ذلك ، ورجا
كل ناطق بالضاد أن يبادر بالاتصال بدائرة المعارف العثمانية إذا
وجد الجزء الباقي ليكمل طبع الكتاب . والكتاب نفسه يشعرك
في غير لبس بأنه ناقص ، فقد ختم بهذه العبارة « ثم ابتداءً فقال »
ولم يذكر المقول .

وهذا الكتاب من بواكير مؤلفات ابن قتيبة ، لأنه لم يشر فيه
إلا إلى كتاب « الأنواء » السابق الذكر ، وإلى كتاب الأبل وهو
مفقود . وقد أورد فيه شعرا كثيرا في الميسر ، ولم يشر إلى الكتاب
الذي ألفه خاصة في هذا الموضوع ، وهو كتاب « الميسر
والقداح » . وهذا يدل على أن كتاب المعاني ألف قبل كتاب
الميسر .

وكتاب المعاني الكبير كتاب أدب وشعر ولغة ، وكله شرح
لنصوص شعرية ، وفي ثنايا هذا الشرح يسوق شواهد شعرية
كثيرة .

وهذا الكتاب من أوضح كتب ابن قتيبة دلالة على تبحره في اللغة تبحرا قلما أتيج لغيره من علماء عصره .

ومن الأمور التي تسترعى النظر أنه لم يتوخ " إلا الأشعار الممنعة في الغرابة ، والتي تبدو لقارئها وكأنها سجل لطوائف من الألفاظ الغراب . ولعلهم كانوا يقصدون من اسم « أبيات المعاني » مدلولاً يرمي إلى غرابتها ، ويدلنا على ذلك قول السيوطي في كتاب « المزهر » في فصل الألفاظ « .. وأبيات لم تقصد العرب الألفاظ بها ، وإنما قالتها فصادف أن تكون ألفاظا ، وهي نوعان ، فأنها تارة يقع الألفاظ بها من حيث معانيها ، وأكثر أبيات المعاني من هذا النوع ، وقد ألف ابن قتيبة في هذا النوع مجلدا حسنا ، وكذلك ألف غيره . وإنما سموا هذا النوع « أبيات المعاني » لأنها تحتاج إلى أن يسأل عن معانيها » (١) .

ومن تدبر أبيات المعاني بآن له أن خفاء معانيها يرجع غالبا إلى وحشي ألفاظها وبعده مأخذها .

والكتاب كله مادة مصمتة ليس فيه حكمة ولا مثل ولا نادرة ولا خبر . وإنما هو أبيات من عويص الشعر في موضوعات خاصة منسقة ، تناولها ابن قتيبة بالشرح القيم المستفيض .

والكتاب الذي وصل إلينا يشتمل على كتاب الخيل ، وكتاب السباع ، وكتاب الطعام والضيافة ، وكتاب الذباب ، وكتاب الوعيد والبيان ، وكتاب الحرب ، وكتاب الميسر ، ومتفرقات في

أوصف الشعر والشعراء ، والتظير والقال ، ووصف الآثار ،
والآداب ، ومكارم الأخلاق .

وقد أورد ابن قتيبة الأشعار التي قيلت في هذه الأبواب كلها ،
وقسم لكل كتاب منها الى أقسام مفصلة في ترتيب بديع ، وتناولها
بالشرح المفصل .

وغزارة مادة الكتاب تدفعنا الى القول بأنه يضم بين دفتيه
كثيرا من الكتب التي تنسب الى ابن قتيبة ، على اعتبار أنها
كتب مستقلة . وقد يزيد هذا القول يقينا عثورنا على الجزء
الناقص منه .

وكتاب المعاني الكبير ذخيرة أدبية عظيمة ، ولعلنا ندرك قيمته
إذا عرفنا أن جميع المؤلفات التي وضعت في « المعاني » قد
فقدت ، ولم يصل إلينا منها الا كتاب أبي عثمان الأشناداني .
وقد تصفحت هذا الكتاب — واسمه معاني الشعر — فوجدته
ليس شيئا بجانب كتاب ابن قتيبة .

٣ ، ٤ — كتابا مشكل القرآن ، وغريب القرآن : ذكر هذين
الكتابين الكثرة الكاثرة ممن ترجموا لابن قتيبة . ويغلب على
ظني أن ابن قتيبة ألفهما في آن واحد ، لأن كلا منهما يشير الى
الآخر في مواطن متفرقة . وهذا — مع تشابه مادتهما واتفاق
منهجيتهما — ما جعلنا نتحدث عنهما معا .

ويبدو لي من مادتهما أنه وضعهما في الأطوار الأولى من
حياته . وأنا أرجح أنهما أسبق من كتاب « الميسر والقдах »
الذي يعتبر من أوائل مؤلفاته . ودليلي على ذلك أنه حين يتحدث

فى « الغريب » عن الميسر فى آية البقرة لم يشر الى هذا الكتاب .
وهما أسبق من « أدب الكاتب » لأنه أشار فيه الى « مشكل
القرآن » .

وكتاب « المشكل » مطبوع (١) ، أما « الغريب » فقد قرأت
صورة شمسية له مأخوذة من نسخة خطية موجودة فى مكتبة
المرحوم الشيخ عثمان القارىء بالطائف .

والتصفح للكتابين يجد أنهما لا يخرجان عن كونهما نوعاً من
التفسير لبعض آى الذكر الحكيم . وأنت لا تستطيع أن تميز
— من حيث المنهج والمادة — بين المشكل والغريب . فالذى يفهم
من لفظ « الغريب » أنه يتناول الألفاظ التى لا يستطيع فهمها فى
يسر ، ولكن ابن قتيبة يتعرض فى كثير من الأحيان لألفاظ
وعبارات لا يدق فهمها على أبسط العقول .

وأى عسر يجده المرء فى فهم قوله تعالى « وأتم تعلمون »
أى تعقلون ؟ ومع سهولة هذه الجملة ذكرها ابن قتيبة فى
« الغريب » . وكذلك « التى وقودها » و « جنات » وغير ذلك
من الألفاظ والعبارات السهلة التى لا غرابة فيها .

الا أن كتاب « المشكل » يتناول بعض المباحث القيمة
كالتناقض ، والمتشابه من القرآن ، والمقلوب ، والحذف ،
والاختصار ، وتكرار الكلام ، والزيادة فيه ، ومخالفة ظاهر
اللفظ معناه ، واللفظ الواحد للمعاني المختلفة .. وما شابه ذلك .

(١) قام بتحقيقه الأستاذ سيد أحمد صقر .

ولهذا كان أعظم قيمة من « الغريب » ، لأن المسائل التي يتعرض لها من أجزل المباحث فائدة .

والواقع أن كتاب « الغريب » ليس له من اسمه نصيب ، فكثيرا ما يترك الألفاظ الصعبة ، ويتعرض للواضح السهل .

ومهما يكن من شيء فلا تستطيع أن تلبس في كلا الكتابين شخصية للمؤلف ذات طابع خاص أكثر من أنه عالم لغوى غزير المادة .

وقد جمع الكتابين في كتاب واحد الامام محمد بن أحمد ابن مطرف الكنانى الأندلسى ، أحد قراء الأندلس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، وسماه « القرطين » ، وجعله في جزأين . وغرضه من ذلك أن يجمع الفائدة بين الكتابين ، كما يقول . وقد وضع ما ورد في « المشكل » مع ما ورد في « الغريب » عن الآية الواحدة أو الجملة الواحدة من القرآن الكريم ، ورمز للغريب بحرف « غ » ، وللمشكل بحرف « ش » ، وجعل كلا من الرمزین بين قوسين . وتناول الكتابين بشيء من التغيير اليسير ليتسنى له ضمهما ، وكتاب « القرطين » مطبوع .

٥ — كتاب تأويل مختلف الحديث : ذكره جماعة ممن ترجموا لابن قتيبة باسم « مختلف الحديث » وذكره آخرون باسم « اختلاف تأويل الحديث » . وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب ضمن مجموعة عنوانها « الرد على من قال بتناقض الحديث » . ولكن الاسم الأول أشهر هذه الأسماء .

وأنا أرجح أنه ألف بعد كتاب « مشكل القرآن » لأنه أشار -

اليه فيه (١) . وقد ألفه ابن قتيبة حين رأى أهل الكلام يمعنون في ثلب أهل الحديث . وقد عز على أحد أنصار أهل الحديث هذا التجامل من المتكلمين ، فكتب الى ابن قتيبة — وهو شيخ أهل السنة — يستهضه الرد على أهل الكلام ، فوضع هذا الكتاب . وقد أحزنه أن يجعل هذا الخلاف بأس المسلمين بينهم شديدا ، فينقسموا شيعا يتسابتون ويشتجرون . يقول ابن قتيبة في المقدمة : « فأنك كتبت الى تعلنى ما وققت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث ، وامتهانهم ، واسهابهم في الكتب بدمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض ، حتى وقع الاختلاف ، وكثرت النحل ، وتقطعت العصم ، وتعادى المسلمون ، وأكفر بعضهم بعضا .. الخ » . وقد يفهم من هذا النص كذلك أن هذه الشيع نشأت بسبب ما يرويه أهل الحديث من التناقض ، على حد قول أهل الكلام ، فاعتصمت كل شيعه بما روى من الحديث الذى يناسب هواها .

وقد أراد ابن قتيبة من تصنيف هذا الكتاب — الى جانب الرد على أهل الكلام — تصحيح الأحاديث التى ادعى عليها المتكلمون التناقض . ولهذا جاء الكتاب وافيا بحاجة كل من يرغب فى الوقوف على التوفيق بين الأحاديث المتناقضة . وقد بذل ابن قتيبة فيه جهدا مشكورا ينبىء عن ثقافة دينية واسعة ، وتظهر فيه شخصيته ومنطقه كل الظهور . وقد آثرت أن أعرض لذلك فى

افاضة أثناء الحديث عن موقفه من أهل الرأي وأهل الكلام .
والكتاب مطبوع .

٦ — كتاب الميسر والقдах : ذكر هذا الكتاب معظم مترجمي ابن قتيبة ، ويظهر لى أنه ألفه هو وكتاب « الأشربة » فى وقت واحد ، لأنه يشير فى كل منهما الى الآخر ^(١) . وهذا ما يرجح عندى أنه ألفهما فى آن واحد ، فضلا عن أن الآية الكريمة تنظمهما فى عقد واحد « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس .. الآية » . وقد بين ابن قتيبة حقا اثم كل منهما ومنافعه فى بيان واضح مفصل .

ويبدو لى أن ابن قتيبة ليس أول من ألف فى الميسر والقдах ، فقد ذكر أبو القدا — وهو يسرد كتب الأصمعى — كتابا له بهذا الاسم ^(٢) ، ولكنه لم يصل إلينا . ومن الجائز أن يكون ابن قتيبة قد استأنس به فى تأليف كتابه هذا .

وقد صنفه ابن قتيبة اجابة لرغبة أحد مريديه الذى أبدى له حاجته فى معرفة أمر الميسر والقдах عند العرب ، وهذا يتضح من مقدمة الكتاب .

ولقد نهج ابن قتيبة فى تأليفه منهجا علميا أشبه بالبحوث العلمية التى تصنف اليوم . فهو يستقرئ ما قيل فى القдах والميسر عند العرب ، ثم يصور من تلك النصوص هذه الناحية الاجتماعية البارزة فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقد أشار

(١) مقدمة الميسر والقдах ، كتاب الأشربة ص ٧٢ .

(٢) تاريخ أبى القدا ٣٢/٢ .

ابن قتيبة الى منهج بحثه في مقدمة الكتاب ، فقال : « ولم أجد السبب الى ما التمسته الا جمع الأبيات في الميسر وتدبرها والاستدلال على كيفيته باعتبارها ، ففعلت ذلك ، وأودعت كتابي هذا منه ما أدى اليه النظر ودل عليه الاستخراج » .

وتاريخ الميسر والقдах يعتبر جزءا هاما من تاريخ العرب الاجتماعى قبل الاسلام . وهذا الكتاب يجلبه لنا ويعيننا على فهم الآيات الكريمة التى تشير الى هذه المسألة . وقد أشار ابن قتيبة الى ما لاقاه من المشقة فى وضع هذا الكتاب ، وذلك لأن ما ورد من شعر العرب فى هذا الباب قليل جدا — كما يقول — بالقياس الى ما ورد فى الخيل والناقة والظباء والقطا ، وبعضهم لم يجر له على لسان .

وقد سلك ابن قتيبة فى الكتاب مسلكا منطقيا ، فبدأه بتعريف الميسر والياسر ، ثم انتقل الى الاستقسام بالأزلام ، وعرفته ، وهو يشبه القرعة التى أجازها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء فى صحيح البخارى أن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) . وبعد ذلك تحدث عن نفع الميسر ، مفسرا الآية الكريمة ، فبين أن الناس كانوا ابان الشتاء عند جذب الزمان وشدة يتقامرون بالقдах على الابل ، ثم يجعلون لحومها لذوى الحاجة منهم ، فيخصب

(١) انظر صحيح البخارى ١٠١/٢ (وبهامشه شرح السندى طبعة بولاق .

الناس ويستريشون ، ولذلك كان العرب يمدحون بأخذ القداح ويسبّون بتركها . ثم تناول أسماء القداح ؛ وهى سبعة ذوات حظوظ ، وثلاثة لا حظوظ لها وتسمى « الأغفال » . وتحدث عن الافاضة ، وهى ارسال القداح ، وذكر المفيض ويسمونه « الحُرْضة » ، ويبن عمله بتفصيل ، ولا بد من رقيب يراقبه حتى لا يختل أو يخون .

وصفوة القول أن ابن قتيبة لم يترك شاردة تتصل بالقداح من قريب أو بعيد الا أشار اليها . ولهذا كان كتابه خير مرجع لهذه الظاهرة الاجتماعية التى كانت قاشية عند العرب فى الجاهلية . وهو مطبوع .

٧ - كتاب الأشربة : ذكره سواد من ترجموا لابن قتيبة ، وقد نقل ابن عبد ربه قدرا كبيرا منه أثناء كلامه عن الطعام والشراب فى كتابه « العقد الفريد » (١) . ويشير اليه ابن قتيبة فى بعض كتبه بهذا الاسم أحيانا ، وأحيانا أخرى باسم « كتاب الشراب » (٢) . وقد كان هذا الكتاب فى طى النسيان مع ما طوى من آثار السلف حتى جاء المستشرق الفرنسى « أرتوركى Artourki » فنشر قسما منه فى المجلد الثانى من مجلة « المقتبس » فى عدد ربيع الثانى سنة ١٣٢٥ هـ « مايو سنة ١٩٠٧ » تحت عنوان « صحف منسية » . ثم جاء العالم الجليل المرحوم الأستاذ محمد

(١) العقد الفريد ٤،٩/٣ طبعة بولاق .

(٢) انظر الشعر والشعراء ص ١٣٨ تحقيق شاکر ، وعيون

الأخبار ٣٢٥/١ طبعة دار الكتب .

كرد علي ، ونشر هذا الكتاب القيم في سنة ١٣٦٦ هـ «سنة ١٩٤٧ م» .
بعد تحقيق ومقارنات بين المخطوطات التي عثر عليها كما يقول .
ولكن الطبعة — مع هذا — جاءت مليئة بالأخطاء ، بعضها مطبعي ،
وبعضها خفي علي الأستاذ الناشر ، مما حدا ببعض النقاد الي
أن ينشر الكثير من هذه المآخذ في مقالات نشرت تباعا بمجلة
الرسالة عام ١٩٥٠ . وتوجد نسخة خطية من هذا الكتاب ضمن
مجموعة بدار الكتب .

وأنا أرجح أن هذا الكتاب ألف قبل الشعر والشعراء وقبل
عيون الأخبار ، لأنه أشار اليه في كل منهما . ويرى البعض
— ومنهم بروكلمان في دائرة المعارف — أنه جزء من عيون
الأخبار ، ولكنني أعتقد أنه كتاب مستقل ، لأن منهجه يخالف كل
المخالفة منهج عيون الأخبار ، فالأول منهجه فقهي تحقيقي ، والثاني
أخبار وحكم وأشعار ومثلح .

والتصفح لكتاب الأشربة يجده مزيجا من الأدب والفقه ،
ولهذا جاء لطيفا ، خفيف المحمل ، سهل التناول ، نائيا عن الجفاف
الذي نحسه في كتب الفقهاء . وكانت مسألة الأشربة قد شغلت
أمناء الشرع ، وانقسم الشرعون بين محلّ ومحرم للأبدة ،
كل منهما يفتي بمبلغ علمه وما وصل اليه من نصوص الكتاب
والسنة . وقد سجل ابن قتيبة رأيه مستندا الي أقوال الأئمة ،
فجاءت فتواه مدعومة بالأدلة الشرعية والمنطقية ، ومعرضة
باخلاص ونزاهة يبرئانها من تحامل الفقهاء وتقصيرهم .

والكتاب سفر طريف مملوء بالأخبار والأشعار المستطرفة

التي ربما لا يستسيغها العرف الخلقى اليوم

وهذا الكتاب من أدلة كتب ابن قتيبة على عقلية . فقد نهج فيه منهجا يدل على ثقته بعقله وقوة منطقته ، ذكر أولا حجج المحلين ، وأردفها بما قاله الشعراء المعاقرون للخمر ، ولم يتخرج عن ايراد الأشعار الخمرية التي تغمر الدين ، وتجرع بعصيان الله ، وتزين معاورة الصهباء ، من أمثال أشعار مجان الشعراء كالوليد بن يزيد وأبي نواس ودعبل وأبي الشيصر وصريع الغواني والحماد بن الوليد بن عقبة الذي صلى بالناس وهو مخمور فحدّ وعزل . ثم ذكر بعد ذلك حجج المحرمين والأشعار التي قيلت في ذمها وتقييها ، واستلابها للعقول ، ومجانبة شاربيها لدين الله الحنيف ، وما تجرم عليهم من المهانة والسخرية ، ثم بين ما ينتظرهم من العذاب الأليم في الدار الآخرة .

وبعد هذا ناقش ابن قتيبة حجج الفريقين مناقشة قوية معتمدة على العقل والنقل معا ، وانتهى من ذلك الى رأى أستطيع أن أخصه فيما يأتى :

يرى ابن قتيبة في النبيذ أن ما كثيره مسكر فقليله مكروه ، نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم نهى التأديب ، فإن أنت تركته فالفضيلة والمشوبة في تركه ، وإن أنت شربته « فلا جناح إن شاء الله » غير أنك رغبت عما أدبك به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأطعت هواك بخالفته .

أما أصناف الخمر الأخرى فهي محرمة تحريما قاطعا ، سيان في ذلك قليلها وكثيرها .

٧٠ — كتاب العرب : ذكره معظم مترجمي ابن قتيبة ، ويسميه بعضهم « كتاب تفضيل العرب » ، ويسميه آخرون « فضل العرب » ، ويذكره جماعة ثالثة باسم « التسوية بين العرب والعجم » و « كتاب ذم الحسد » . وقد ذكر ابن عبد ربه في عقده فصلا بعنوان « كتاب اليتيمة في النسب وقضائل العرب » ، وأشار الى أنه أخذ من كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة (١) . وذكر الألوسي جزءا من هذا الفصل — قفلا عن العقد الفريد فيما أعتمد — تحت عنوان « رد ابن قتيبة على الشعوبية » ، وأعقبه برد الشعوبية على ابن قتيبة (٢) .

وقد نشر بعض هذا الكتاب « السيد جمال الدين القاسمي » أحد علماء دمشق في المجلد الرابع من مجلة « المقتبس » الدمشقية ، وذكر أنه نقله من نسخة خطية في مكتبة المرحوم « شاكر الحجازي » بدمشق . ثم نشر هذا الجزء المرحوم « محمد كرد علي » في كتابه « رسائل البلغاء » .

ويغلب على ظني أن هذا الكتاب ألف قبل كتاب « الشعر والشعراء » ، لأنه أشار في الثاني الى الأول (٣) . ومن هذه الإشارة تدرك أن الكتاب لم يصل إلينا كاملا ، لأننا لم نجد في هذا الجزء الموجود ما يحيل عليه ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » . والطبعة التي أشرف عليها « الأستاذ كرد علي » فيها كثير من

(١) العقد الفريد ٧٢/٢ طبعة المطبعة الأزهرية .

(٢) بلوغ الأرب ١٦٩/١ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٦ ، ٣٥ طبعة ليدن .

الأخطاء التي لا يستقيم بها المعنى ، وهى شبيهة بطبعة « كتاب الأشرية » التي لم تسلم من الأخطاء كما ذكرنا .

ولقد كان ابن قتيبة من مسلمى الموالى الذين نزههم إيمانهم العميق عن أن ينزعوا نزع الشيعوية ، اذ كانوا يعرفون للعرب فضلهم ، لأن محمدا عليه السلام بثع رسولا منهم ، فكان الحب العميق للإسلام ولرسوله يدفعه هو وأمثاله الأتقياء الى أن يتعصبوا للعرب ويشيدوا بفضلهم على أمم الأرض جميعا .

ولهذا الكتاب فى نظرنا قيمة كبيرة ، هى أنه يعتبر مثالا طيبا لأسلوب ابن قتيبة الجدلى والانشائى ، اذ نحس فيه بصدق العاطفة وشبوب الوجدان . ولذلك رأينا أن نتخذ منه موضوعا لفصل خاص نتحدث فيه عن « أدب ابن قتيبة الانشائى » .

٩ — كتاب الشعر والشعراء : ذكره معظم من ترجم لابن قتيبة ، ويسميه بعضهم « طبقات الشعراء » ^(١) ، وانى لا أميل الى هذه التسمية ، لأنه لم يجعل الشعراء طبقات كما فعل ابن سلام فى كتابه . ويرجح المستشرق « دى جويه » تسميته بهذا الاسم « طبقات الشعراء » لأن ابن قتيبة — فى زعمه — رتب الشعراء بحسب مكائهم الفنية ^(٢) ، ولكنى سأبين فى فصل آخر أنه لم يراع كثيرا هذه الناحية الفنية . وفى ملاحظة على كتاب « المحاسن والأضداد » للجاحظ ذكر باسم « أخبار الشعراء » ^(٣) .

(١) كشف الظنون ٩٣/٢ .

(٢) مقدمة « دى جويه » باللغة اللاتينية لكتاب الشعر

والشعراء . (٣) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ طبعة بولاق .

وجاء في المجلة الآسيوية أن عنوان المخطوطة الموجودة في بيروت من هذا الكتاب هو « ديوان الشعر والشعراء » (١) :

ويبدو على أن ابن قتيبة قد قسم هذا الكتاب الى قسمين : القسم الأول هو المقدمة . ومن المحقق أن هذا القسم هو المقصود باللفظ الأول من العنوان وهو « الشعر » لأنه تحدث فيه عن الشعر وأقسامه وعيوبه .. الخ ، وهو يفصح عن ذلك فيقول : « وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته .. الى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول » ، فهو يسمى هذه المقدمة النفيسة « الجزء الأول » كما ترى .

والقسم الثاني هو تراجم الشعراء ، وهو الذي يختص بالشرط الثاني من العنوان « الشعراء » . وقد أشار الى ذلك — أى الى هذين القسمين — في مقدمة « عيون الأخبار » وفي كتاب « المعارف » . ونحن نستخلص من ذلك أيضا أن كتاب « الشعر والشعراء » قد ألف — فيما أرجح — قبل كتابي عيون الأخبار والمعارف . ويرجح « دى جويه » أن ابن قتيبة هو الذى وضع هذا الاسم « الشعر والشعراء » وأنا أؤيده في هذا الرأي .

وهذا الكتاب لو أن آخر من مؤلفات ابن قتيبة ، ويعتبر من أقوم الكتب وأجداها ، ففيه نقد وأدب وتاريخ ، ومقدمته قيمة جدا ، وقد أودع فيها مذاهبه النقدية ، فخطابه خطوات واسعة

نحو القول والتحرر، وسنتناول ذلك بالتفصيل عند الكلام عن
« أدب ابن قتيبة الوصفى » .

وقد بين ابن قتيبة الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فقال :
« وكان أكثر قصدى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل
الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو
وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأما من خفى اسمه وقل ذكره وكسد شعره وكان لا يعرفه
الا الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة ، اذ كنت لا أعرف
لذلك القليل أخبارا » . ولهذا نراه لا يذكر من الشعراء من لا يدل
عليه « بخبر أو زمان أو نسب أو نادرة أو بيت يستجاد
أو يستغرب » .

ومقدمة الكتاب من أعظم ما خلفه ابن قتيبة من الآثار
الأدبية ، لأنه وضع فيها مذهبا جديدا في تقويم الشعر والشعراء .
وأستطيع أن أقول بادية ذى بدء ان هذا المذهب يدل على أنه
رجل جرىء ، مجدد ، نائر على التقاليد النقدية العتيقة . فقد نبذ
التقليد جانبا ، وقوّم الشعر من حيث هو شعر ، بدون نظر الى
قائله ، وهذا رأى خليق بالاعتبار .

ثم تناول ابن قتيبة دواعى الشعر ، وذكر منها الطمع والشوق
والطرب والغضب ، وأورد الأمثلة على اجادة بعض الشعراء لفنون
من الشعر وتخلّفهم في بعضها بسبب تلك الدواعى . وتحدث كذلك
عن أمور وثيقة الصلة بالنقد سنشير اليها في فصل خاص .
وبعد ذلك انتقل الى كتاب الشعراء ، فترجم فيه لعدد ضخم

منهم ممن ظهروا في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي الأول . وجلهم من مشهورى الشعراء الذين يعرفهم أهل الأدب والذين يحتج بأشعارهم كما يقول . وقد أورد لكل شاعر قدرا مختارا من شعره ، وتناوله أحيانا بالشرح والتعليق .

ويعتبر هذا الكتاب من أعظم المصادر الأدبية الكبرى التي لا يستطيع باحث أن يغفلها ، وهو أصدق مظهر لأدب ابن قتيبة الوصفى .

وقد طبعت المقدمة « كتاب الشعر » في ليدن سنة ١٨٧٥ مصدرة بمقدمة باللغة الفلمنكية . ثم طبع المستشرق « دى جويه » الكتاب كله بقسياه « الشعر والشعراء » في ليدن سنة ١٩٠٢ ، ووضع له مقدمة قيّمة باللغة اللاتينية . ثم طبع بمصر عدة طبعات رديئة . وأخيرا طبع طبعة جيدة جدا سنة ١٩٤٥ في مطبعة عيسى الحلبي بتحقيق المرحوم الشيخ شاکر .

١٠ — كتاب أدب الكاتب : ذكره بعض مترجمى ابن قتيبة بهذا الاسم ، وذكره بعض آخر باسم « أدب الكتاب » ، وذكره ابن قاضي شهبة باسم « أدب القاضي » ^(١) ، ويسميه الأزهري « آداب الكتبة » ^(٢) . ولكنى أرجح أن اسم الكتاب « أدب الكاتب » لسببين : الأول أن السواد الأعظم من مترجمى ابن قتيبة يذكرونه بهذا الاسم . والثاني أن الصولى المتوفى

(١) طبقات النحاة لابن قاضي شهبة ٥٢/٢ « مخطوط » .

(٢) تهذيب اللغة ١٥/١ .

سنة ٣٣٥ له كتاب اسمه « أدب الكتاب » ، وأنا أستبعد أن يسمى كتابه باسم آخر لمؤلف سابق .

ونحن نستطيع أن نعين لتأليف هذا الكتاب زمنا على وجه الاجمال . فالمعروف من مقدمة الكتاب أنه ألفه للوزير « عبيد الله ابن يحيى بن خاقان » ، وقد تولى هذا الرجل الوزارة في عهد المتوكل سنة ٢٣٦ . ولما ولى المعتمد الخلافة سنة ٢٥٦ اختاره أبو أحمد الموفق أخو الخليفة وزيرا ، فتردد ، ثم قبل بعد الحاج ، وظل وزيرا حتى سقط عن دابته ومات سنة ٢٦٣ . وأنا أرجح أنه ألف قبل عيون الأخبار ، لأنه يشير في مقدمة الأخير إليه . . . وبعض الأدباء يرى أن الكتاب خطبة بلا كتاب . ولكن الحقيقة أنه كتاب جزيل النفع « قد حوى من كل شيء أحسنه » كما يقول صاحب كشف الظنون ^(١) . ويقول ابن خلكان : « والناس يقولون ان أكثر أهل العلم يقولون ان أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ، وهذا فيه نوع من التعصب عليه ، فان أدب الكاتب قد حوى من كل شيء ، وهو مفنن » ^(٢) . ويقرر صاحب « مرآة الجنان » أنه كثير الفوائد ^(٣) . ويذكر ابن أبي أصيبعة أن بعض الناس كانوا « يحفظونه حفظا متقنا » ^(٤) . وكان شيوخ ابن خلدون يعتبرونه من عمد الأدب الكبرى الأربعة مع كتاب

(١) كشف الظنون ١/٧٣ .

(٢) وفيات الأعيان ١/٢٥١ .

(٣) مرآة الجنان ٢/١٩١ .

(٤) طبقات الأطباء ص ٢٠٣ .

الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي الباقلي » وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها ^(١) .

وقد وضع ابن قتيبة هذا الكتاب ، لأنه خشى على اللغة أن تنحدر ، أو يقل ادراك الناس لدقائقها ومعركة الفروق بين مترادفاتهما كما يقول في مقدمة الكتاب .

والواقع أنه حدث في أواخر العصر العباسي الأول ما يشبه الانقلاب الأدبي في ألفاظ اللغة العربية ، فتنوعت معاني بعضها حتى خرجت عما وضعت له . وقد شق ذلك على علماء اللغة ، فوضعوا الكتب في اصلاحها . وفي مقدمة من تجردوا لمخاطبة هذا الانقلاب اللفظي علمنا ابن قتيبة في كتابه هذا بإشارة من الوزير ابن خاقان ، لأنه — بحكم مركزه السامي وإشرافه على الدواوين — قد لمس ما خالط الأقلام والألسنة من اللحن والخطأ . وضع ابن قتيبة هذا الكتاب لإرشاد الكتاب الى سنن الصواب ، وأطلق عليه اسما يشير الى الغرض منه « أدب الكاتب » ، وذلك لأنه رأى كثيرا من الأدباء والكتاب قد أهملوا النظر في اللغة وما إليها ، وانصرفوا الى العلوم الحديثة والمترجمة ، فضغفت صلتهم بالعربية ، وجعلوا الكثير من مسائلها ، فآلف لهم هذا الكتاب ، وجمع فيه بين تقويم اللسان وتقويم اليد ، أى رسم الكلمات . ثم جاء بعده « أبو بكر محمد بن يحيى الصولي »

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥١ بيروت .

المتوفى سنة ٣٣٥ وألف كتابه « أدب الكتاب » ، فغمر فيه ابن قتيبة بالتقصير في كتابه (١) ، وتوسع في مسائل لم يتعرض لها سابقه ، كحسن الحظ ، والدواة والقلم وترتيب الكتاب ، والقراطين ، والدعاء في المكاتبات وغير ذلك من المسائل الكثيرة التي أغفلها ابن قتيبة .

وإذا كان لنا أن نرد الفضل الى ذويه وجب علينا أن نذكر أن ابن قتيبة هو أول من ألف في الموسوعات العربية ، ثم اتخذ من جاءوا بعده هذا الأساس ، وشادوا عليه موسوعاتهم ، حتى أوصلها القلقشندي الى ذروتها السامية في موسوعته المشهورة « صبح الأعشى » . فابن قتيبة — من غير شك — يعتبر الأستاذ الأول لمواضع الموسوعات .

وكتاب « أدب الكاتب » مزيج من معارف مختلفة ، فهو كتاب أقرب ما يكون الى اللغة ، ولكن فيه مباحث في النحو والصرف ، وفي تقويم البلدان ، وفي الجغرافيا الفلكية ، وفي قواعد رسم الكلمات .

وقد وصف بعض المستشرقين هذا الكتاب وصفا دقيقا في كلمات موجزة ، فقال « البارون دي سلان Le Baron de Slane انه دليل المعارف الأدبية والنحوية والتاريخية التي لا يستغنى عنها الكاتب الفنى » (٢) ويقول « بروكلمان » في دائرة المعارف انه

(١) انظر أدب الكتاب للصولي ص ٢٠ .

(٢) فهرس « دي سلان » للمخطوطات العربية بباريس

أهم مؤلفات ابن قتيبة اللغوية ، ويقول « بلوشيه Blochet »
انه بيان دقيق للمعارف التي يجب أن يلم بها الكاتب الديواني
الرفيع ^(١) ، ويقول « جورجى زيدان » انه كتاب « يبحث فيما
يحتاج اليه الأديب في صناعة الكتابة من الآداب والعلوم واصلاح
ما كان يقع فيه الكتاب في أيامه من الخطأ أو الوهم في معاني
الألفاظ أو الاشتقاقات والتراكيب ، مما نحن في حاجة اليه حتى
اليوم » ^(٢) .

ومن أهم مزايا الكتاب أنه وسع في أفق النشاط اللغوى ،
وجعله يتعدى دائرة اللغويين الى دائرة الكتاب وموظفى الديوان
وغيرهم .

وفى الكتاب ظاهرة تستثير الإعجاب ، وهى أن ابن قتيبة لم
يعتمد على المدرسة البصرية كل الاعتماد ، فقد أعطى مدرسة
الكوفة نصيباً من عنايته ، ولم يكن يعتمد فى كليهما الا على ذوقه
الخاص .

وقد لاقى كتاب « أدب الكاتب » عناية كبيرة قلما حظى بها
كتاب آخر . فقد أقبل الناس على قراءته وتفهمه ، وتناوله بعضهم
بالشرح والتعقيب والتعليق . وأهم هذه الشروح شرح ابن السيد
البطلبوسى المتوفى سنة ٥٢١ ، وشرح أبى منصور الجواليقى
المتوفى سنة ٥٣٩ .

(١) فهرس « بلوشيه » للمخطوطات العربية بباريس ص ١٦٦ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١٧١/٢ .

وأول من عنى بطبع كتاب « أدب الكاتب » المستشرق
« اسبرول Sproull » ، فقد طبع قسماً منه مع ترجمة له باللغة
الفلمنكية ، وعليه تعليقات في ليبسك سنة ١٨٤٧ ، وطبع الكتاب
بمصر سنة ١٣٠٠ هـ ، ثم طبعه « الدكتور ماكس جرونرت
Max Grunert » طبعة جيدة في ليدن سنة ١٩٠٠ ، ووضع لها
فهارس قيمة .

١٠ — كتاب عيون الأخبار : من أشهر كتب ابن قتيبة ،
ويغلب على ظني أنه ألف مع كتاب « المعارف » في وقت واحد ،
لأنه يشير في كل منهما إلى الآخر (١) .

وهذا الكتاب من خير الكتب التي تقدم لقارئها مادة طيبة
تصل ذهنه ، وتؤدب نفسه ، وتزيد من معارفه . وإذا كان ابن
قتيبة قد وضع كتاب « أدب الكاتب » ليستفيد منه الخاصة ،
فانه صنف « عيون الأخبار » ليستفيد منه خاصة الناس وعامتهم ،
وهو يفصح عن ذلك في المقدمة فيقول انه « وفي كل فريق من
هؤلاء قسمة ، ووفر عليه سهمه .. فاذا مر بك أيها المتزمت حديث
تستخفه أو تعجب منه أو تضحك له فأعرف المذهب وما أردنا به .
واعلم أنك ان كنت مستغنياً بنسكك فان غيرك ممن يترخص فيما
تشددت فيه محتاج اليه ، وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك
فيهماً على ظاهر محبتك » . وابن قتيبة يرى أنه لا تكتمل ثقافة
الأديب مالم يزوده بقدر صالح « من المتخير من كلام البلغاء

(١) انظر مقدمة عيون الأخبار ، وكتاب المعارف ص ٥٥ .

وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف ... ليروض نفسه على
 الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمية وأدب كريم وخلق
 عظيم ، ويصل بها كلامه إذا حاور وبلاغته إذا كتب . ويصف
 الكتاب فيقول « لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء » .
 وقد أعجب العلماء قديما بعيون الأخبار ، ويقول السمعاني :
 « سمعت الأمير أبا نصر الميكالي يقول : تذاكرنا المنتزهات يوما ،
 وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الأماكن غوطة دمشق ،
 وقال آخرون : بل نهر الأبله ، وقال آخرون : بل سغد سمرقند ،
 وقال بعضهم : نهر وان بغداد ، وقال بعضهم : شعب بوان بأرض
 فارس ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ ، فقال الأمير : هذه منتزهات
 العيون ، فأين أتم من منتزهات القلوب ؟ قلنا : وما هي
 يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار للقتبي » (١) .

فالكتاب — في الواقع — يمتاز بالايناس ، لما يورده من
 طريف الأخبار ومليح الأفاكه . وهو ليس كتاب رواية وخبر
 فحسب ، ولكنه كتاب أدب ، لأنه يجمع قدرا عظيما من رائع
 الشعر وبلغ الشر . وهو مختارات واسعة في الأدب والاجتماع
 والسياسة والأخلاق . وقد قسمه الى عشرة أجزاء ، وسمى كل جزء كتابا ،
 وهي : كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب
 الطبائع والأخلاق ، وكتاب العلم ، وكتاب الزهد ، وكتاب
 الاخوان ، وكتاب الخوائج ، وكتاب الطعام ، وكتاب النساء .

وفي هذا الكتاب يظهر تأثر ابن قتيبة بالجاحظ ، فهو يمزجه بالمزح أحيانا ، حتى لا يمل القارئ .

والكتاب يدل على ما أرجاه ابن قتيبة للتأليف من فضل ، فقد سما به وهذبه ، وخلصه من الاضطراب والقوضى . ويلاحظ أن روح ابن قتيبة التقى سارية فيه . فهو لا يترك مناسبة تمر دون أن يورد كثيرا من كلام الزهاد في أمر الدنيا ومهاتها واقبالها وإدبارها . ولهذا تجد كتاب الزهد من خير ما صنف في هذا الباب .

وقد تلمظ ابن قتيبة مادة الكتاب من مصادر كثيرة أشار إليها في مواطن متعددة من الكتاب . وكان رجلا واسع الأفق ، لا يستنكف أن يلتقط الجوهرة من الوحل كما يقول الفرنسيون . فلا يضيره أن يأخذ « عن الحديث سنا لحدائثه ولا عن الصغير قدرا لخساسته » ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها .. فلن يزرى بالحق أن نسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين .

وابن قتيبة يتناول الموضوع ، ويورد ما قيل عنه في أمة من الأمم ، ثم يتبعه بما لدى الأمم الأخرى في نفس الموضوع . فإذا تحدث مثلا عن مصادقة السلطان ذكر ما ورد عن خلفاء العرب وأمرائهم وسادتهم ، ثم ذكر ما يقوله « ابن المقفع » ثم ما يقوله « بزرجمهر » و « أبرويز » الفارسيان ، ثم ما أئز عن حكباء الهنود وفلاسفة اليونان .. وهكذا . وبذلك يستطيع القارئ في سر أن يقارن ويوازن ويفاضل بين هذه الأقوال ، وقد يعينه ذلك على

تعرف الأصل منها والفرع ، والوقوف على مصدر كل عنصر من عناصر هذه المعارف .

فالكتاب في الحقيقة مظهر راق لامتزاج الثقافات في العصر العباسي ، وهو يدل على أن مؤلفه رجل يمثل ثقافة عصره خير تمثيل .

وأحب أن أقول ان الكتب الأدبية التي ألّفت في هذا العصر مثل « عيون الأخبار » ، والبيان والتبيين ، والكامل « لا تنبئ عن شخصية المؤلف الأدبية أو أسلوبه ، مع ما تجد فيها من بسطة العلم وغزارة المادة . فلو أحصيت مثلاً ما للجاحظ في « البيان والتبيين » لما وجدته يبلغ خمس الكتاب ولا سدسه ، وقل مثل ذلك في كتاب « عيون الأخبار » ، والكامل « ، وفضل المؤلفين ينحصر في الاختيار والنقل والجمع . ولكن فضل ابن قتيبة في هذه الناحية أظهر من فضل الجاحظ ، لأن كنهه منظمة حسنة الترتيب .

وأخص ظاهرة في مؤلفي المختارات في هذا العصر تأثرهم برجال الحديث . ولذلك نراهم يعنون بالاسناد على نمط اسناد الحديث . وأنت حين تقرأ خبراً عن شاعر أو خطيب في هذه الكتب تشعر أنك تقرأ قطعة من أحاديث البخاري أو مسلم . والكتاب طبع عدة طبعات ، أجودها طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣ هـ . وقد عني المستشرقون قبل ذلك بطبع أجزاء منه بين سنتي ١٨٨٨ ، ١٩٠٨ في « غوتنجن وإستراسبورج » ، وعلى رأسهم « وريمار Warimmar » و « بروكلمان » .

١٢ — كتاب المعارف : هذا الكتاب ألف — في غالب الظن —

بعد « الشعر والشعراء » ، لأنه أحال في « المعارف » عليه (١) .
والأمر الذي لا شك فيه أنه تم تأليفه بعد سنة ٢٥٦ ، لأنه ذكر
فيه الخليفة « المعتمد » الذي ولي الخلافة في هذه السنة .

وقد أطلق الرواة على هذا الكتاب عدة أسماء ، فيذكره حاجي
خليفة باسم « المعارف » و « معارف من التاريخ » و « معارف
التاريخ » (٢) . وكنت أظن أن لابن قتيبة مؤلفا آخر في التاريخ
مفقودا ، ذكره مترجموه باسم « تاريخ ابن قتيبة » ، غير أن
الدكتور اسحاق الحسيني ذكر في رسالته أنه عثر على كتاب بهذا
العنوان في المكتبة الظاهرية بدمشق ، فتصفحه فوجده نسخة من
كتاب المعارف (٣) .

وكتاب المعارف يدخل في عداد التاريخ على شيء من التجوز .
وأنا أعني بكلمة « التاريخ » أوسع معانيها ، لأنه يشتمل على كل
ما يمت الى التاريخ بسبب قريب أو بعيد . ففيه شيء من علم
الأنساب ، وانشاء المدن والمعالم ، وعلم الأجناس ، وعلم الحديث
ونشأته وأعلامه ، وتاريخ العالم من مبتدأ الخلق حتى « المعتمد »
آخر خليفة أدركه ابن قتيبة . ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب ،
مبيناً المعارف المتنوعة التي ساقها : « وكتابي هذا يشتمل على فنون
كثيرة من المعارف ، أولها مبتدأ الخلق وقصص الأنبياء وأزمانهم

(١) كتاب المعارف ص ٢٨٥ طبعة المطبعة الإسلامية .

(٢) كشف الظنون ١٤٢/٢ .

(٣) رسالة الدكتور الحسيني (الانجليزية) ص ٦٢ .

وحلاهم (١) وأعمارهم وأعقابهم واقتراق ذرايهم ونزولهم بمشارك
الأرض ومغاربها وأسيف (٢) البحار والقلوات والرمال .. ووصلت
ذلك بذكر أنساب العرب ، مختصرا ذلك ، ومقتصرا على العماثر (٣)
ومشهورى البطون . ثم أتبعته أخبار رسول الله صلى الله عليه
وسلم في نسبه .. وأخبار العشرة من المهاجرين رحمهم الله تعالى ،
ثم الصحابة المشهورين ، ثم الخلفاء .. والمشهور من صحابة
السلطان والخارجين عليهم من الخوارج ، ثم التابعين ومن بعدهم
من حملة الحديث وأصحاب الراى ، ومن عرف منهم بالترفض
والتشيع والارجاء والقدر ، وأصحاب القراءات .. والنسابين ،
وأصحاب الأخبار ، ورواة الشعر والغريب ، وأصحاب النحو ،
والمعلمين ، وأول من أحدث شيئا بقى على مر الأيام . وذكرت
المساجد المشهورة ، ومتى ابتنت ، وعلى يد من أسست ..
وأخبرت عن الفسوح ، وما كان منها عنوة ، وما كان عن
صلح .. الخ » .

وهكذا نرى الكتاب قد جمع فأوعى . فهو كتاب فيه معارف
متنوعة الطعوم ، لا يستغنى عنه من غشى « مجالس الملوك ومحافل
الإشراف وحلق أهل العلم » كما يقول . ولعل اسم « المعارف »
يشير في غير خفاء الى ما يضمه الكتاب بين دفتيه من كل ما من

(١) الحلا : بالكسر ، جمع حلية « بكسر الحاء » ، وهى الصفة .

(٢) أسيف : جمع سيف « بكسر السين » وهى الحافة وساحل

البحر .

(٣) العماثر : واحدها عمارة « بفتح العين » وهى الحى العظيم

من الناس .

« إن يفت العقل ، ويهذب النفس ، ويكون الرجل المستنير الممتاز . ويقول عنه ابن قاضي شهبة : « هو كتاب نفيس ما صنف مثله ، وفيه فوائد وغرائب لا توجد في غيره » (١) . وقد أطلق عليه المستشرق الفرنسي « هوارت Huart » اسما مناسباً يحدد موضوعه ، فسماه « دليلاً تاريخياً Manuel d'Histoire » (٢) وهناك أمر أرى — اجزأاً للفائدة — أن أشير إليه في لمحة خاطفة ، وهو أن بعضهم يتهم ابن قتيبة بأنه نقل كتاب « المعارف » من كتاب « المحبر » لابن حبيب . وأول من أشار إلى ذلك أبو طالب المفضل ابن سلمة الكوفي في كتاب « الفاخر » (٣) .

وقد تصفحت كتاب « المحبر » لأبي جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥ طبعة حيدر آباد الدكن ، فوجدت أن الكتابين يختلفان في المصادر وفي المنهج وفي ألوان المعلومات التاريخية . يضاف إلى ذلك أن التواريخ في الكتابين غير متفقة في كثير من الأحيان .

ويرجع سر هذا الوهم — فيما أظن — إلى التشابه الظاهر بين الكتابين في الموضوع ، فكلاهما يجمع متفرقات من المعارف التاريخية على نحو خاص .

وأول من عني بنشر كتاب « المعارف » المستشرق « وستنفلد Wustenfled » ، فقد طبعه في « جوتنجن » سنة ١٨٥٠ ،

(١) طبقات النحاة لابن قاضي شهبة ٥٢/٢ . « مخطوط » .

(٢) Littérature Arabe p. 154.

(٣) كتاب « الفاخر » ص ٦٧ « مخطوط بدار الكتب » .

وقد طبع أخيراً .

ثم طبع بمصر عدة طبعات ، أجودها الطبعة التي حققها الدكتور
ثروت عكاشة أخيراً .

١٣ — الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبعة :
وهذا كتاب قيم من كتب ابن قتيبة يجد فيه كل طالب علم ضالته ،
فالباحث الأدبي يستشرف منه سمات أسلوب ابن قتيبة في الحاجة ،
اذ يلحظ فيه اختياره لتعابير جدلية خاصة ، واعتماده على عبارات
لها مدلولات من المعاني يكررها في مواطن كثيرة ، ويحكم — تبعاً
لذلك — بأنه كان في هذا الكتاب كراً في أسلوبه هذا ، ينجح
الى الغموض أحياناً .

والمشتغل بأصول الفقه يرى فيه أن هذا الخصم القاسى قد
سلس قياده ، وخفت حدة خصومته لأصحاب الرأي الى حد ما
بالمقاييس الى كتاب « تأويل مختلف الحديث » . وهذا يدل على
أن الكتاب من أواخر مؤلفاته .

والباحث في « مشكلة خلق القرآن » يجد فيه عقلاً حصيفاً
يعرف كيف يوفق بين الرأيين المتناقضين . وسنعرض لذلك بالتفصيل
في فصل خاص .

والفقيه يلحظ فيه ارتجاعه عن تجاهل أقدار أهل الفقه
المجتهدين ، وبخاصة إمام أهل الرأي « أبو حنيفة النعمان » وكبار أتباعه .
وهذا الكتاب دليل على أن ابن قتيبة قد شارك في مناقشات
عصره الفقهية والكلامية ، ووقف موقف المدافع عن القرآن
والحديث ضد نزعات الشك الفلسفية ، فهاجم خصومه عن إيمان
واقتناع . ويقول الأستاذ « بروكلمان » في دائرة المعارف : « ان

خصوم ابن قتيبة أرادوا أن يسددوا له طعنة فجاء ليتقوا حملته عليهم ، فرموه برقة الدين ، ونسبوه مرة الى الكرامية ، وأخرى الى الجهمية ، وثالثة الى المشبهة ، فوضع كتابه ليرد على الجهمية والمشبهة ، وليدافع عن نفسه .

والكتاب — فوق ذلك — يبين لنا كيف كان العلماء ورجال الدين يختصمون ويشتجرون . وهذا يدعونا الى التبصر والتروى فيما نقرأه من التجريح لرجال هذا العصر وغيرهم ممن أشار اليهم المؤلف . ويقول أبو طالب المكي مصورا هذه الحال : « وقد يتكلم بعض الحفاظ بالاقدام والجرأة فيما جاوز الحد في الجرح ، ويتعدى في اللفظ ، ويكون المتكلم فيه أفضل منه ، وعند العلماء بالله تعالى أعلى درجة ، فيعود الجرح على الجارح » (١) . وابن قتيبة نفسه يصور تلك الحال المؤلمة التي فشت في ذلك

العصر فيقول : « فانه ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث ، وهو من الأدب غفل ، ومن التمييز خلو ، ليس له من معاني العلم الا تقادم سنه ، وأنه قد سمع ابن عيينة وأبا معاوية ويزيد وأشباههم ، فيبدؤه قبل الكتاب بالحنة ، فالويل له ان تلغشم أو تمكث ، أو سعل ، أو تنحج قبل أن يعطيهم ما يريدون ، فيحمله الخوف من قدحهم فيه واسقاطهم له على أن يعطيهم الرضا ، هيتكلم بغير علم ، ويقول بغير فهم ، فيتباعد من الله الذي أمّل أن يتقرب فيه منه » (٢) .

(١) هامش الاختلاف في اللفظ ص ٦٢ .

(٢) الاختلاف في اللفظ ص ٦٣ .

وابن قتيبة يتناول في هذا الكتاب الآيات القرآنية وبعض الأحاديث التي تأولها أصحاب الكلام تأولا يخرج بها عن المعنى المقصود . وهم في هذا التأول يفهمون من الألفاظ غير مدلولاتها التي وضعت لها . ويرد ابن قتيبة عليهم ردّا لغويا خالصا مستندا الى نصوص لغوية شتى . ولا ينسى أثناء ذلك أن يحكم العقل بينه وبينهم ، ويستعين أحيانا — ليدعم قوله — بعلم التوحيد ، وبخاصة حين يتحدث عن صفات الله ، مفندا تأويلهم لبعض آي القرآن ، مما يشير الى علم الله وبصره وسمعه .

وجملة القول أن الكتاب قصد به ابن قتيبة ايضاح الاختلاف في اللفظ في القرآن الكريم . وهو كتاب صغير لا تتجاوز صفحاته المائة ، وقد طبع بمصر مرتين .

١٤ — كتاب النعم والبهائم : وهذا كتيب صغير لا يجمع الا لونا واحدا من ألوان المعرفة ، هو اللون اللغوي . وهذا يخالف المؤلف من ابن قتيبة ، فكل مصنف من مصنفاته يجمع — في الغالب — معارف مختلفة متقاربة ، تطغى احداها على سائرها : فكتاب « أدب الكاتب » يجمع أنواعا من المعارف ، ولكن تغلب عليه الناحية اللغوية . وكتاب « عيون الأخبار » يلم أشتاتا من الأخبار والنصوص ، ولكن تبرز فيه الناحية الأدبية . وكتاب « المعارف » يضم بين دفتيه ألوانا كثيرة من المعلومات ، ولكن تظهر فيه الناحية التاريخية . وهكذا .

أما هذا الكتيب فلم يتجه الا الى الناحية اللغوية فقط ، وهو — على صغره — جم الفائدة .

وأحب أن أقول أن كتب ابن قتيبة ثمتاز بشيء من الاستقلال الذاتي الذي اكتسبته من شخصية المؤلف . فكتاب « عيون الأخبار » يختلف كثيرا عن « البيان والتبيين » وكتاب « أدب الكتاب » ، وكتاب « المعارف » لا نظير لهما بين مؤلفات سابقيه ومعاصريه . وقل مثل ذلك في سائر مؤلفاته . أما كتاب « النعم والبهايم » فيعتبر امتدادا لما سبقه من المؤلفات ، أو بعبارة أصح تعد حلقة أخرى تضاف الى نظيراتها السابقة .

ومن المحقق أن علم اللغة هو أول فاحية أدبية اتجه اليها العلماء ، وعنوا بها قبل غيرها من النواحي الأخرى للاستعانة بها في فهم كتاب الله وحديث رسوله ، ثم جاءت النواحي الأخرى تبعا لها ، كرواية الشعر والخطب والأخبار والنوادر . ويعنى بعلم اللغة الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها ، وينتهى ذلك بتأليف المعاجم اللغوية التي تم نضجها في القرنين الرابع والخامس الهجريين . وقد سبق ذلك محاولات مهدت السبيل لظهور هذا العلم بما ألفه العلماء من الكتب في ألفاظ الموضوعات الخاصة ، كالأصمعي ، وابن الأعرابي وأبي عبيدة وغيرهم ، مثل كتاب الخيل ، وكتاب النساء وكتاب النخل وما شابهها .

وكانت للعرب همة قعساء في استقصاء ذلك ، يتبارون في التنقيب عن اللغة الصحيحة من مظانها ، ولهذا كانوا يشدون الرحال أحيانا الى البادية . وكان فصحاء الأعراب يفدون الى البصرة والكوفة ، فيأخذ عنهم العلماء .

ولقد كان الأمويون قبل هذا يستحثون العلماء بمناقشات
يثيرونها بين أيديهم في هذه الموضوعات . فقد روى أن عبد الملك
ابن مروان جلس ذات يوم في مجلس ضم جماعة من خواصه
وسمّاه وقال : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله على
ما يتمنى ؟ فقام إليه « سويد بن غفلة » وقال : « أنا لها يا أمير المؤمنين »
فقال : قل ما عندك ، فقال : أنف ، بطن ، رقوة ، ثغر ، جمجمة ،
خلق ، خد ، دماغ ، ذكر ، رقبة ، زند ، ساق ، شفة ، صدر ،
ضلع ، طحال ، ظهر ، عين ، غيبة « لحمة في الحلق » ، فم ، قفا ،
كف ، لسان ، منخر ، ثغغ « موضع بين اللهاة والحلقوم »
هامة ، وجه ، يد ، فهذه حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين .
فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : أنا أقولها في جسد الانسان
مرتين » ، فضحك عبد الملك وقال لسويد أما سمعت ما قال ؟ قال :
نعم أنا أقولها ثلاثا ، فقال له : لك ما تتمنى ، فقال : أنف ، أسنان ،
أذن — بطن ، بصر ، بز — رقوة ، تمر ، تينة — ثغر ، ثنايا ،
ثدى — جمجمة ، جنب ، جبهة — خلق ، حنك ، حاجب — خد ،
خصر ، خاصرة — دبر ، دماغ ، دُرْدُر « سقف الحلق » —
ذكر ، ذقن ، ذراع — رقبة ، رأس ، ركة — رُند ، زردمة
« موضع الابتلاع » ، زغب — ساق ، سرّة ، سبابة — شفة ،
شعر ، شارب — صدغ ، صدر ، صلعة — ضلع ، ضفيرة ،
ضرس — طحال ، طرة « خاصرة » ، طرف — ظهر ، ظفر ، ظلم
— عين ، عنق ، عاتق — غيبة ، غلصمة ، غنّة — فم ، فك ،
فؤاد — قلب ، قدم ، قفا — كف ، كتف ، كعب — لسان ، لحية ،

لوح — مرفق ، منكب ، منخر — تفتنح ، ناب ، نن — هامة ،
هيف « ضمور البطن والخاصرة » ، هيئة — وجه ، وجنة ، ورك
— يمين ، يسار ، يافوخ . فأنعم عليه عبد الملك وبالنح في
الاحسان اليه (١) .

وقد تابع الناس الاهتمام بالفاظ اللغة والعناية بجمعها ،
فقاموا بالتأليف فيها على شكل مجموعات ، كل مجموعة في
موضوع بعينه تضم شتات ألفاظه كلها كما أشرنا . وهذا اللون
من المعاجم يسميه بعض الباحثين المعاصرين « المعاجم المعنوية » ،
وهي التي تجمع مفردات اللغة بحسب معانيها ، تميزا لها عن
« المعاجم اللفظية » التي تجمع الألفاظ حسب ترتيبها الهجائي .
وأشهر المعاجم المعنوية « المخصص » لابن سيده و « فقه اللغة »
للشعالبي ، ولا شك أنهما أتم وأنضج مما صنعه الأصمعي وزملاؤه .
وأول من سبق إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف
المعجم هو العالم الجليل « الخليل بن أحمد القراهيدي » البصري
المتوفى سنة ١٧٠ . وليس في المقام متسع لبيان عبقرية هذا الرجل
وفضله العظيم على العربية وأصحابها . وقد سمي معجمه « كتاب
العين » ، ورتبه على حسب مخارج الحروف ، وقد بدأه بحرف
العين ، لأن مقره آخر الحلق ، وبه سمي الكتاب .

ثم جاء علماء القرن الثالث فآلفوا كتباً تجمع مع اللغة الأدب
والنحو والأخبار ، ولكن ابن قتيبة ألف كتاب « النعم والبهايم »

(١) المخصص لابن سيده ٢/٢٧١ .

في اللغة ليس غير . ولا شك أنه استأنس بكتب من سبقه من أصحاب
المعاجم المعنوية ، لأن كتابه على غرار كتابهم .

وقد شك الدكتور الحسيني في نسبة هذا الكتاب الى
ابن قتيبة ، ولكني أرجح صحة هذه النسبة ، لأنه يناقش الجاحظ
ويخطئه في بعض الألفاظ على طريقته المعهودة . أضف الى ذلك
أنه طعمه ببعض الألفاظ الفارسية كعادته حين يتحدث عن أصل
الكلمة أحيانا ، وحين يقارن بين اللفظين الفارسي والعربي .

وقد قام بنشر كتاب « النعم والبهائم » الأب « مورييس بوج
Maurice Bouges » أحد الآباء اليسوعيين ، ووضع له
بعض ملاحظات باللغة الفرنسية . وهو كتاب مفيد جدا من الناحية
اللغوية ، وموضوعه النعم والبهائم والوحوش والسباع والطيور
والهوام . والنعم « بفتح النون » مفرد ، ومعناه الابل والشاء ،
ولكنه أكثر ما يكون للابل . وبعضهم يقول انه المال الراعية ،
لوجمعه أنعام ، ومنه اسم السورة الكريمة .

١٥ — كتاب المسائل والأجوبة : رواه عنه تلميذه
« أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن السكري » . ويبدو أنه وصل
اليها كاملا ، لأنه مختوم بهذه العبارة « آخر المسائل والحمد لله
رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه
أجمعين » .

وهو كتاب لغة ، ونحن ندرجه بين كتب ابن قتيبة من باب
التجاوز ، لأنه عبارة عن أسئلة كان يوجهها اليه تلميذه « السكري »
فيجب عنها .

وقد بدأه بقوله : سألت عن قوله « لا داء ولا غائلة ولا خبيثة » ، أما قوله « لا داء » فإنه يريد لا داء لك في العبد من الأدواء التي يرد منها ، مثل الجدام والبرص والسل والجنون والأوجاع المتقدمة .. الخ . ويستمر في شرح الكلمات شرحا لغويا أدبيا حتى ينتهي منها ، ثم ينتقل الى الإجابة عن سؤال آخر في مسألة أخرى ، وهكذا حتى ينتهي الكتاب .

وهذه المسائل لا تجرى على نسق خاص ، فمسألة عن الهجين من الخيل والناس ، وبجانبها مسألة عن الزاني وأصل الكلمة وحده .. وهكذا نراه يتعرض لمسائل متنوعة لا رابط بينها . وهو كتاب صغير جدا ، غير مطبوع ، وتوجد منه مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة .

وبعد فهذه هي الكتب التي استطعنا الحصول عليها من مؤلفات ابن قتيبة ، والتي لا يشك في صحة نسبتها إليه . والرواة يذكرون له عشرات الكتب ، ولكنها فقدت ، ولم يقع في أيدينا إلا ما ذكرنا . ومن المحقق أن بعض كتبه قد ذكر مكررا بأسماء مختلفة كما أشرنا . كما أن أجزاء من بعض كتبه الكبيرة قد ذكرت على أنها كتب مستقلة بذاتها . وقد أشرنا الى أن بعض المراجع ذكر أن له كتابا باسم « كتاب الخيل » ، وآخر اسمه « كتاب السباع » والحقيقة أن هذين الكتابين جزآن من كتاب « المعاني الكبير » ، وهذا مثل أسوقه برهانا على ما أقول .

والأمر الذي يدعوا الى الأسف حقا أنه لم يصل إلينا كتاب من

الكتب التي ألفها في النحو والتي أشار إليها مترجموه ، لنقف على آرائه النحوية وكل ما نعرفه من ذلك آراء قليلة في النحو والصرف منبثة في كتبه التي بين أيدينا ، وبخاصة في كتابي أدب الكاتب ومشكل القرآن » ، وهي في جملتها من المذهب البصري .

ولا ريب في أن ابن قتيبة قد اشتغل بالنحو ، لأن النحو كان أحد فروع الأدب الهامة التي لا يصح أن يغفلها متأدب . وكان الكثير من أساتذته من المشتغلين بهذا العلم ، مثل السجستاني والرياشي والزيادي . وقد أشار هو في بعض كتبه إلى أنه قرأ كتاب سيبويه ودرسه دراسة طيبة (١) .

وأول من أشار إلى اشتغال ابن قتيبة بالنحو « أبو الطيب عبد الواحد بن علي » المتوفى سنة ٣٥١ هـ ، فقد ذكر في كتابه « مراتب النحويين » أن لابن قتيبة كتابا في النحو ، وأخذ عليه أنه « قد خلط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن يأخذها عن ثقات » (٢) . ثم جاء بعده ابن النديم وعقد في « الفهرست » فصلا ذكر فيه العلماء الذين خلطوا بين نحوى المصرين وأنشأوا المذهب البغدادي ، وذكر علي رأسهم ابن قتيبة ، وقال عنه « انه كان يغلو في البصريين ، الا أنه خلط المذهبيين » وحكى في كتبه عن الكوفيين » (٣) وذكر له ضمن مؤلفاته كتابين في النحو ، هما

(١) انظر كتاب المعاني الكبير ص ٨٣٢ ، وكتاب المعارف ص ٢٦٥ .

(٢) مراتب النحويين ص ١٣٧ « مخطوط » .

(٣) الفهرست ص ٧٧ .

« جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير »^(١) . ويرى المستشرق « هاول Howell » في كتابه « النحو العربي Arabic Grammar » أن ابن قتيبة هو الذي حمل عبء مزج المذهبين وانشاء المدرسة البغدادية^(٢) .

ويبدو أن ابن قتيبة لم يكن ذا باع طويل في النحو ، يدلنا على ذلك أننا لم نجد أحدا من المتقدمين الذين صنفوا في سير النحاة ينظمه في سلكهم . فأبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ — وهو من كبار النحاة — لم يذكره قط في كتابه « أخبار النحويين البصريين » مع أنه كتب عن معاصريه ممن أقاموا في مدينة بغداد . وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ وضع ابن قتيبة في كتابه « طبقات النحويين واللغويين » ضمن اللغويين ، لا النحويين . ولم يرد له ذكر قط في كتاب « الانصاف » لابن الأنباري ، وكذلك لم يشر اليه ابن جنى في الخصائص .. كل ذلك يدل على أنه لم يكن من المبرزين في علم النحو تبريزه في العلوم الأخرى .

ولقد أضيف الى ابن قتيبة كتاب اسمه « الامامة والسياسة » . وكتاب آخر اسمه « تلقين المتعلم من النحو » . ولكن التخصيص الدقيق يدفعنا الى أن نرفض — في غير تردد — نسبة هذين

(١) وذكرهما كذلك السيوطي والقفطي وحاجي خليفة .

(٢) انظر كتاب Arabic Grammar. p. 8

الكتابين الى ابن قتيبة . ولتحدث عن كل منهما ، موردين الأسباب التي تدعونا الى ذلك .

أولاً : كتاب الامامة والسياسة : ذكره « البارون دي سلان » في فهرست المخطوطات العربية بمكتبة باريس باسم « أحاديث الامامة والسياسة » ، ويقول انه منسوب الى ابن قتيبة ، ويقول مثل ذلك المستشرقان « بروكلمان وبلوشيه » . ويرى المستشرق « دي جويه » أنه من تأليف رجل مصرى أو مغربى معاصر لابن قتيبة . ويرى الدكتور اسحاق الحسينى أن نسبة هذا الكتاب الى ابن قتيبة قد خرجت من المغرب ، لما كان يتمتع به عالمنا هناك من سمو المكانة وعظيم الشهرة .

والواقع أن هذا الكتاب ليس من تصنيف ابن قتيبة . وأول من ارتاب في ذلك رجل عاش في القرن السابع الهجرى اسمه « أبو بكر محمد بن عبد الله المعافى » في كتابه المسمى « العواصم من القواصم » (١) . ولم يعرض لهذه المسألة بعد ذلك أحد من مؤلفى العرب . ولكن المستشرقين — وهم يعنون كثيراً بالتحقيق — هم الذين أولوا هذا الأمر عناية كبرى . وأول من أثار ذلك منهم « ب . دي جاينجوس P. de Gayangos » في كتابه « تاريخ الحكم الاسلامى في أسبانيا Muhammedan Dynasties in Spain » وقد أشار الى ذلك في مقدمة الكتاب . وأكد هذا الشك الدكتور « ر . دوزى R. Dozy »

(١) العواصم من القواصم ص ٥٥ « مخطوط » .

في كتابه المعروف « أبحاث في التاريخ السياسي والأدبي لأسبانيا
في العصور الوسطى Recherches sur l'Histoire Politigueet

« Littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age » (١)

أما أنا فعندى من التحقيق العلمى والفنى ما يدعونى الى
رفض نسبة هذا الكتاب الى ابن قتيبة رفضا قاطعا .
فالتحقيق العلمى ينبئى بأن جميع مترجمى ابن قتيبة
لم يذكروا له قط كتابا بهذا الاسم . والكتاب يشعر القارىء
بأن المؤلف كان يقيم بدمشق ، فى حين أن ابن قتيبة — كما عرفنا
من سيرته — لم يذهب قط الى دمشق . وهناك أمر يبدو غريبا
ويؤيد موقفنا ، وهو أن مؤلف الكتاب يروى عن « أبى ليلى »
الذى كان قاضيا بالكوفة سنة ١٤٨ (٢) فى أسلوب يدل على أنه
كان يتلقف منه الأخبار ، ولم يولد ابن قتيبة الا بعد ذلك بخمسة
وستين عاما (٢١٣ هـ) . وأعجب من هذا أن المؤلف يروى أخبار
فتح الأندلس مشافهة عن امرأة شهدتة . والمعروف أن فتح
الأندلس حدث قبل مولد ابن قتيبة بنحو مائة وعشرين عاما .
وأشد من ذلك غرابة أن يذكر فتح « موسى بن نصير » لمدينة
« مراکش » ، مع أن هذه المدينة أنشأها « يوسف بن تاشفين »
سلطان المرابطين حوالى سنة ٤٧٠ هـ (٣) . وهذا خلط يدعونا الى
رفض نسبة الكتاب الى ابن قتيبة . أضف الى ذلك أن لهجة

Récherches sur... V. I. p. 10 (1)

(٢) وفيات الأعيان ٤٩٢/١ .

(٣) انظر معجم البلدان ٤٧٨/٤ .

الكتاب تشف عن انحراف عن أهل بيت على كرم الله وجهه ، وهذا يخالف ما نلاحظه في سائر كتب ابن قتيبة من بالغ الاعظام لعلى وذريته ، كما سنعرف فيما بعد . ومؤلف الكتاب يروى عن رجلين اسمهما « أبو مريم وابن عفير » ، وهذان الرجلان لم يروا عنهما ابن قتيبة في أى كتاب من كتبه .

وربما كان التحقيق الفنى — الى جانب التحقيق العلمى الذى ذكرنا — خير معين على الوصول الى الحقيقة . فأول ما يبد هنا فى هذا الكتاب تلك المقدمة القصيرة التى لم تتعودها من ابن قتيبة . فمقدماته دائما وافية تبين منهج الكتاب والغرض من تأليفه والدافع اليه . أما مقدمة هذا الكتاب فهى قصيرة جدا لا تزيد على أربعة أسطر ، وليس بينها وبين مقدمات كتبه الأخرى شبه ما . هذا الى أن أسلوبها يغير أسلوب ابن قتيبة كل المغايرة ، ففيها سجع مقصود أشبه بأساليب القرن الخامس الهجرى .

وفى الكتاب ظاهرة أخرى لم نر لها مثيلا فى مؤلفاته ؛ تلك أنه يبدأ الفصل بقوله « وحدثنا قال حدثنا .. » أو بقوله « قال ثم ان .. » . وهو يكثر من لفظ « ثم ان » . وهذا التركيب جاء متأخرا عن عصر ابن قتيبة ، ولم أعثر عليه فى كتب الجاحظ والمبرد ، وفى ثنايا كلامه يكرر كثيرا لفظ « قال » ، ولا يسوق خبرا من غير أن يصدره بكلمة « وذكروا » . وهذا غير ملاحظ فى كتب ابن قتيبة . وتتردد فى الكتاب كثيرا هذه الجملة « وذكروا عن بعض الشيخة » ، وليس لها وجود فى أى كتاب من كتبه .

والكتاب لا يسير فى منهجه الروائى على نمط واحد ، فقد

جرى في الصفحات الأولى من الجزء الأول على نظام الرواية
المعنونة ، ثم ترك هذا النظام في سائر الكتاب .

والكتاب تشيع فيه القوضى ، فهو يورد الخبر أحيانا ، وقبل
أن ينتهي منه ينتقل الى غيره مقدما له بكلمة « قال » ، ثم يعود الى
الخبر الأول ليتمه . وهذه الطريقة تخالف مذهب ابن قتيبة وتباين
روحه المنظمة .

وهناك أمر خليق بالنظر ، ذلك أنه ورد في الكتاب على لسان
« موسى بن نصير » والى افرقية في عهد الأمويين كلمة « تشرين
الآخر » أى « نوفمبر » وكلمة « آذار » ، ويقول موسى عن
« آذار » انه يسمى بالأعجمية « مارس » (١) . وهذه الشهور
لم تكن معروفة لدى العرب حتى ذلك الحين .

وقد أخطأ مؤلف الكتاب في حقيقة تاريخية معروفة ، ذلك أنه
يذكر أن الرشيد قد عهد بولاية العهد الى ابنه « عبد الله المأمون »
أولا ، ثم لابنه « محمد الأمين » ثانيا . وهذا يخالف الواقع ،
لأن العهد كان للأمين أولا ، ثم للمأمون ثانيا ، ثم للمعتصم ثالثا .
وقد سجل ابن قتيبة نفسه هذه الحقيقة في كتاب « المعارف » (٢) ،
ولا يعقل أن يناقض نفسه في أوليات التاريخ .

لهذه الأمور مجتمعة أرانى مطمئنا الى رفض نسبة كتاب
« الامامة والسياسة » الى ابن قتيبة .

ثانيا — كتاب تلقين المتعلم من النحو : لقد كان يحز في نفسي

(١) الامامة والسياسة ١١١/٢ .

(٢) كتاب المعارف ص ١٦٦ .

ألا أعثر على مؤلف لابن قتيبة في النحو ، فما كنت أجد هذا الكتاب مخطوطا في المكتبة الأهلية بباريس حتى غيرتني نشوة السرور . ولكني ما كنت أتصفحه وأمضي في قراءته حتى انهارت آمالي في الوقوف على مذهب هذا العالم الذي قيل عنه انه مزج بين فحوى المدرستين وخلق المذهب البغدادي . فقد ألقيت الكتاب لا يمت الى ابن قتيبة بسبب . والنظرة العابرة فيه تجعلنا نوقن كل الايقان بأنه بعيد كل البعد عن روح ابن قتيبة . ويدعوني الى رفض هذا الكتاب الأمور الآتية :

١ — الكتاب كله من أوله الى آخره « ويقع في ١٤٨ صفحة » ينهج نهجا تعليميا ، على شكل سؤال وجواب ، ويتناول قواعد النحو الأولى ، وكأنه وضع للتلميذ المبتدئ الذي لا يدرى من أمور النحو شيئا .

٢ — لم يرد لهذا الكتاب ذكر قط في المراجع التي تعرضت لمؤلفات ابن قتيبة ، وانما ذكروا له كتابين آخرين في النحو ؛ هما جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير .

٣ — لم يرد فيه اسم أى رجل من نحاة المدرستين ، ولم يناقش فيه أى رأى من الآراء . ولا يتعلل أن يمزج ابن قتيبة بين المذهبين — كما يقولون — من غير أن يعرض لكل منهما .

٤ — كل ما ورد في هذا الكتاب يتبع المذهب البصرى ، فأين إذن المذهب البغدادي الذي استحدثه ابن قتيبة كما يقول المؤرخون ؟

٥ — ليس للكتاب مقدمة ، وهذا يخالف ما جرت عليه مؤلفات ابن قتيبة .

٦ — وأخيرا لا نستشعر في هذا الكتاب روح ابن قتيبة المؤلف .

لذلك كله أقرر — في غير تردد أن هذا الكتاب أضيف الى ابن قتيبة خطأ ، ولا يمكن أن ينسب اليه .
والظاهر أن بعض الجهلة من الوراقين والناسخين كانوا يعمدون الى اضافة بعض الكتب الى مشهورى العلماء وكبار الأدباء لتنفق سوقها . وهذا عبث يؤلم نفوس العلماء والباحثين حقا .

الباب الرابع

ثقة ابن قتيبة

الفصل الأول

عالم يمثل ثقافته عصره

لقد كان ابن قتيبة واسع الثقافة الى أقصى ما تكون السعة ، وآية ذلك أن له مؤلفات في كل لون من ألوان المعرفة التي غزت العقل العربي في ذلك الحين ، فله مؤلفات في الأدب واللغة والنحو والتاريخ والفلك كما عرفت . وله مصنفات في القراءات ذكر ابن النديم وابن خلكان بعضها . وكان ضليعا في الحديث ، وله فيه المؤلفات القيمة ، وأهمها « تأويل مختلف الحديث » الذي وصل إلينا . وذكروا له « غريب الحديث » الذي قال عنه ابن الأثير في « النهاية » انه حذا فيه حذو « أبي عبيد القاسم بن سلام » الذي يعتبر أوله من صنف كتابا قائما بذاته من هذا النوع ، وله مشكل الحديث والمشتبه من الحديث والقرآن ، ولم يصل إلينا شيء من هذه الكتب . وله كذلك مصنفات في الفقه أشار إليها بعض المراجع ، منها « جامع الفقه » و « كتاب التفقيه » . وآلف في الأشربة وفي الميسر والقداح . وصنف في الغناء والألحان والخيل والأنواء والأمثال وتعبير الرؤيا . ووضع في الاجتماع كتابا اسمه « آداب العشرة » . وله غير ذلك من الكتب الكثيرة المتنوعة . وانه لمن المؤلفين

حقاً ألا يصل إلينا من هذا العدد الضخم من المؤلفات إلا التزوير اليسير .

وكلهم يصفونه بالفضل وغزارة المادة ؛ فيقول ابن الأنباري : « كان ابن قتيبة فاضلاً في اللغة والنحو والشعر ، متفنناً في العلوم ، وله المصنفات المذكورة والمؤلفات المشهورة » (١) ، ويقول السيوطي « كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ثقة ، ديناً ، فاضلاً » (٢) . ومثل ذلك يقول البغدادى والسمعاني وابن خلكان . ويقول عنه القفطى : « هو صاحب التصانيف الحسان في فنون العلم » (٣) ، ثم يقول بعد ذلك بقليل « وكان ثقة ، ديناً ، فاضلاً ، صادقاً فيما يرويه ، كثير التصنيف والتأليف » . ويقول عنه ابن قاضي شعبة : صاحب التصانيف المشهورة في فنون العلم والآداب » (٤) : وأنه لمن العجب العجائب أن ينسبه أبو بكر ابن الأنباري « إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة » (٥) . فأين إذن يكون العقل الرشيد والعلم الغزير إذا لم يكن ابن قتيبة موطنهما ؟ إن هذا الجائر وتحامل ظالم من ابن الأنباري . ولقد صدق الحافظ الذهبي في قوله عن ابن قتيبة « أنه من أوعية العلم » (٦) . ولعل الذي دفع ابن الأنباري إلى هذا القول غلطات وقع فيها

(١) نزهة الألباء ص ٢٧٢ . (٢) بغية الوعاة ص ٢٩١ .

(٣) أنباه الرواة ١٤٣/٢ .

(٤) طبقات ابن قاضي شعبة ٥٢/٢ (مخطوط) .

(٥) تهذيب اللغة للأزهري ١٥/١ (مخطوط) .

(٦) تذكرة الحفاظ ١٨٧/٢ طبعة حيدر آباد .

ابن قتيبة قد يقع فيها غيره من أفذاذ العلماء ، ولكل عالم هفوة كما يقولون .

والمستشرقون يعرفون لابن قتيبة قدره ؛ فيقول الأستاذ « هوارت Huart » ان هذا الرجل جمع بين ثقافات عصره . وقد لعب دورا فعالا في الصراع الذي شغل العقول الاسلامية في زمنه بين المتكلمين وأهل السنة » ، ثم يضع له وصفا دقيقا صادقا فيقول انه « موسوعة علمية Encyclopédique » . ويمثل هذا يضرح « بروكلمان » في دائرة المعارف ، ونيكلسون في تاريخه الأدبي ، و « دي سلان » في « كتالوجه » .

وقد كان ابن قتيبة مولعا بتحصيل العلم على اختلاف ألوانه ، وكان منهوما بالمعارف فهما شديدا ، وهو يصرح بذلك فيقول :

« وقد كنت في عنوان الشباب وتطلب الآداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم » (١) . ويقول أستاذنا المرحوم أحمد أمين : « وعلى الجملة فتقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة ، ومظهر امتزاج الثقافات عنده — مدنية كانت أو دينية — مظهر جلي واضح » (٢) . ويقول المستشرق « جون فروي دي مابين Gaudefroy Demombynes » في ترجمته الفرنسية لمقدمة كتاب « الشعر والشعراء » : « وقد اهتم ابن قتيبة بكل العلوم العربية الاسلامية ؛ فدرس القرآن والسنة وفقه اللغة والنحو والشعر والتاريخ وعادات العرب ، ولكنه كان ضليعا في

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٤ .

(٢) ضحى الاسلام ١/٤٠٦ .

فقه اللغة والسنة ، وكان في مستوى أرفع من مستوى بقية علماء السنة في عصره ، وكل ما وصلنا من تأليفه يدل على أنه عالم أديب فذ قد اتصل بنواح كثيرة من العلم من لغة ونحو وأدب وشعر ونقد وعروض وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية وعلوم كونية وغيرها . وهذا تصوير صادق لثقافة ابن قتيبة ، وتصوير صادق لرجل كان يمثل ثقافة عصره خير تمثيل .

وكان ابن قتيبة — الى جانب ذلك كله — رجل دين من رؤساء أهل السنة ، ذا صفة عملية في النزاع الذي كان ناشبا بينهم وبين خصومهم ، ولهذا كانت ثقافته الدينية لا تبارى . وكان حجة الاسلام الامام « ابن تيمية » لا يرى لابن قتيبة نظيرا في الفضل وطول الباع في علوم الدين خاصة ، واقراً قوله في معرض التعقيب على رأى لابن الأنباري قصد به الإنكار على ابن قتيبة في معاني التشابهات من كتاب الله تعالى : « وليس هو » . أى ابن الأنباري « أعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك ، وان كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة ، ولكن نعم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسير غريب الحديث . وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك ، وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم ، وهو وأمثاله يصيرون تارة ويخطئون أخرى » (١) . وابن تيمية يأخذ على ابن الأنباري « أنه يذكر في معاني التشابهات من الأقوال ما لم ينقل عن أحد

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٩٥ .

من السلف ، ويحتج لما يقول في القرآن بالشاذ من اللغة ، وهو قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة « (١) » .

ولم تقتصر ثقافة ابن قتيبة الدينية على الناحية الإسلامية ، فقد قرأ التوراة والانجيل ونقل كثيرا منهما في « عيون الأخبار » ، واعتمد عليهما كثيرا حين تحدث عن تاريخ الأنبياء في كتاب « المعارف » . وتراه يشير الى ذلك فيقول : « وقرأت في التوراة .. وقرأت في الانجيل .. » ، وينقل أقوالا للمسيح وداود ويوسف وسليمان وغيرهم من الرسل الكرام . وينقل كذلك أخبارا عن الرهبان وكثيرا من أقوالهم بجانب الأحاديث الشريفة وأقوال كبار الصحابة والتابعين والزهادين . ويورد مع هذا كثيرا مما أثر عن الفرس والهند واليونان والروم .

وكثيرا ما كان يستعمل عقله في التحقيق والمقارنة ؛ فيقارن مثلا بين ما ورد على لسان وهب بن منبه — وكان يهوديا وأسلم — وبين ما ورد في التوراة مما يتصل بتاريخ اليهود ، ويبين أوجه الخلاف بين الروايتين . فلا يأخذتك العجب اذا رأيته يتناول تاريخ اليهود في « كتاب المعارف » في سعة تتجاوز ما ورد عنه في أى كتاب آخر .

وابن قتيبة ينقل كثيرا من كتب الجاحظ ، وبخاصة « كتاب الحيوان » ويبدى رأيه فيما ينقله ، ففي كتاب « النعم والبهائم » يذكر أن الجاحظ قال في « كتاب الحيوان » ان الزرافة ولد

(١) المصدر نفسه .

النمر ، ويعلق ابن قتيبة على ذلك فيقول : « وهذا لا حقيقة له » (١) .
ويروى كذلك أن الجاحظ يذكر أنه « ليس شيء من الحيوان
يتصل قرنه كل عام الا الوعل » ، ويرد عليه ابن قتيبة فيقول :
« وانما هو الأيل الذى يتصل قرنه » (٢) . وهذان مثالان من أمثلة
كثيرة يدلان على أن ابن قتيبة كان — فى بعض الأحيان —
لا يأخذ كلام العلماء على علاقته . ولكنه مع ذلك — كما أشرنا —
كان يروى بعض الأقوال على أنها حقائق علمية من غير أن يظاھرہ
فى ذلك ضوء من اليقين ، فيروى مثلاً عن أحد شيوخه « أن الدنيا
كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ ، فملك السودان اثنا عشر ألف
فرسخ ، وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ ، وملك فارس ثلاثة
آلاف فرسخ ، وأرض العرب ألف فرسخ » (٣) . وما كان
لابن قتيبة أن يؤمن بذلك وليس لديه من وسائل التحقيق
ما يؤيده .

وكان ابن قتيبة — الى جانب عنايته بالعلوم العربية —
لا ينسى أن يأخذ حظه من العلوم الأجنبية . فقد عرف المصطلحات
الهندسية ، كالمثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج .
وعرف كثيرا من طبائع الحيوان ، ولكنه ما كان يؤيد علمه بالتجربة ،
كما كان يفعل الجاحظ . وألمّ بقدر طيب من الجغرافيا الفلكية ،
وعرف مجارى الأيام فى الزيادة والنقصان ، ودوران الشمس ،

(١) النعم والبهايم ص ٩١ .

(٢) النعم والبهايم ص ٩٥ .

(٣) عيون الأخبار ٢١٥/١ .

ومطالع النجوم ، وحال القمر ومنازله ، وبهذا اعتبره بعض المستشرقين من مشاهير علماء الفلك كما ذكرنا . وكان نهمه بالعلم لا يقف عند حد ؛ فقد عرف شيئا من علم الرى ووسائله كالقناطر والجسور والدوالي والنواير (١) . وأما درايته بالمنطق فتتضح من عقليته المنطقية فى مجادلة خصومه ، ولا شك أنه قد استعان به فى حاجة المتكلمين وأهل الرأى . وسنلمس ذلك فى الفصول التى سنخصصها للحديث عن موقفه منهم . وليس بعيد أن يكون قد أخذ المنطق من متكلمى البصرة حينما كان يت تردد عليها ، وقد ذكر مصطلحاته فى مواطن كثيرة من مؤلفاته .

ويلوح لى أنه لم يأخذ بحظ كبير من دراسة الفلسفة ، لأن أهل الحديث كانوا يمتقونها ويحاربونها . بيد أنه أعجب بالمنطق ، لأنه رآه يد الجدل الصنّاع . ومن الجائز أن يكون قد اتصل بالمتكلمين ثم انصرف عنهم ، لأنه رآهم يأتون أعمالا وينشئون عقائد تخالفه الدين .

وهكذا نرى ابن قتيبة من أغزر علماء الاسلام مادة وأوسعهم علما وفضلا وأجداهم على العلم والعلماء والمتأدين وطلاب المعرفة جميعا . فقد أكب على الدرس والتحصيل والتأليف فى كل نواحي العلوم ، حتى أصبح من رءوس علماء المسلمين ومن النايهين بينهم . وكان يعينه على ذلك ذكاء قوى وطبع سليم ونفس صافية قوية تجافت عن تبذل العامة واسفافها . وبذلك أصبح مثالا جميلا للعالم المسلم الممتاز فى القرن الثالث الهجرى .

(١) مقدمة أدب الكاتب .

وقد كان ينهل هذه الأمشاج من الثقافات من موارد مختلفة ،
 فأخذ عن أفاضل العلماء ، وجلهم من المدرسة الأصمعية . وكان ذا
 شغف شديد بالاطلاع والتحصيل ، فلم يقع في يده كتاب الا أتى
 عليه مهما كان لونه . وأنت واجد في كتاب « عيون الأخبار »
 مصداق قولى هذا ، فهو مزيج من ثقافات متعددة ، وكثيرا ما تقرأ
 فيه هذه العبارات « وقرأت فى التوراة » ، وقرأت فى الانجيل ،
 وقرأت فى كتب العجم ، وفى كتب الهند ، وفى كتب اليونان ،
 وسمعت عن فلان الفقيه وفلان المحدث ، وأخبرنى فلان الراوية ،
 وحدثنى فلان النحوى ، وقال لى فلان الشاعر الخ .
 والحق أن ابن قتيبة لم يترك بحرا من بحور العلم الا غاص فيه
 غوصا ، واستخرج درره ، وساقها لنا فى حلل قشبية بهية . ويدل
 تنوع كتبه على أنه كان ذا قدح مملئ فى كل ميدان من ميادين
 الثقافة الاسلامية ؛ فله فى اللغة كتاب « أدب الكاتب » وكتاب
 « المعانى الكبير » وكتاب « النعم والبهايم » . وله فى الأدب
 « كتاب المعانى » وكتاب الشعر والشعراء . وله فى النقد مقدمة
 الشعر والشعراء ، وفيها خرج على الناس بمذهب جديد سداه
 الانصاف ولحمته دقة النظر . وله فى الرواية والأخبار « عيون
 الأخبار » وهو مزيج من الحكم والنوادر والأشعار . وله فى
 الحديث وغريبه كتب كثيرة لم يصل اليها منها الا « تأويل مختلف
 الحديث » ، وحسبنا دليلا على تضلعه فى الحديث أنه تلميذ ابن
 حنبل وابن راهويه . وله فى القرآن مشكله وغريبه . وله فى
 التاريخ وتقويم البلدان كتاب « المعارف » . وكان فى النحو عالما

كثيرا حتى استحق من بعض العلماء أن يلقب « بالنحوى » ، وله فيه مؤلفات لم يصل إلينا منها شيء . وقد أسهم في المجادلات التي أثارها المتكلمون في زمنه ، وبخاصة مشكلة خلق القرآن ، ويذكر بعضهم أن له كتابا في الرد على القائلين بخلق القرآن . وكذلك حمل لواء الدفاع عن العرب ضد الشعوبية الذين أخذوا يرمونهم بكل نقيصة ، وله في ذلك « كتاب العرب » . وله في الفلك « كتاب الأنواء » . وفي كتابيه « الأشربة » ، والميسر والقдах « تلمس روح الفقيه المتمكن ، ولكنه ساق لنا الفقه في غير ائقال ، اذ مزجه بالأدب فجاء خفيف المحمل ، شهى التناول اذا قيس بكتب الفقه الخالصة . وفي جميع كتبه يتجلى لك أثر الثقافات الأجنبية واضحا » وبخاصة « غيون الأخبار » ، وأدب الكاتب ، والمعارف » .

ويذكر ابن تيمية أن ابن قتيبة كان خطيب أهل السنة كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة ، ولكنى لم أعثر له فى أى مؤلف من كتبه على خطبة واحدة ، ولم أقرأ فى سائر المراجع التى تحدثت عنه ما يشير الى أنه كان خطيبا .

ويظهر أن ابن تيمية يقصد من قوله هذا أن يضيف الى ابن قتيبة صفة الزعامة لأهل السنة فى زمنه ، ويؤيد ذلك قوله : « هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة » ، أى انه كان رأس أهل السنة كما كان الجاحظ رأس المعتزلة . ويجوز أن يكون المراد من ذلك أن ابن قتيبة كان يتولى خطابة أهل السنة فى المساجد وامامتهم ، لتقواه وورعه .

والقارىء لكتب ابن قتيبة يعترضه هذا السؤال : هل كان ابن

قتيبة لما باللغة الفارسية ؟ أما أنا فأرى — في غير تحفظ — أنه كان ذا دراية طيبة بالفارسية ، ودليلي على ذلك أنه يذكر ألفاظا وجملا فارسية كثيرة ويشرحها شرحا يدل على أنه كان يلم بفقها . والأمثلة على ذلك كثيرة ، اليك بعضها منها :

ورد في ترجمة أعشى قيس في « الشعر والشعراء » أن الأعشى كان يقد على ملوك فارس ، وسمعه كسرى يوما ينشد فقال : من هذا ؟ فقالوا : « أشروذ كويدتازى » ، أى « مغنى العرب » (١) . ويذكر أحيانا اللفظة الفارسية حين يفسر بعض الألفاظ العربية ، يقول في كتاب « النعم والبهايم » : ان الفرس يسمون الزرافة « اشتر كاو پلنك » ، ويترجم هذه اللفظة فيقول : « كأنها جمل يقهر نمر » ، ثم يقول ويسمونها كذلك « اشتر مرك » على التشبيه بالبعير والطائر ، كما قالوا « جاموس كاوميش » أى بقرة وضأن (٢) . وقد يستعين في شرح الكلمة العربية بإيراد معناها في الفارسية ، مثال ذلك أنه جاء في شعر أوس بن حجر كلمة « فصافص » ومعناها « الرطبة » ، ويقول ابن قتيبة وهى بالفارسية « اسپست » (٣) . ولا شك أن ذلك دليل على الملمة باللغة الفارسية . وكثيرا ما تقرأ له هذه العبارة « وقرأت في كتب العجم » . وهو يخص كتب العجم في مقدمة « عيون الأخبار » بالذكر كمصدر كبير من مصادر ثقافته فيقول : « واعلم أنا لم نزل نلتقط هذه الأحاديث

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٤ تحقيق الشيخ شاكر .

(٢) النعم والبهايم ص ٩١ ، ٩٥ .

(٣) الشعر والشعراء ص ١٠٢ .

في الحداثة والاكتهال عن هو فوقنا في السن والمعرفة وعن جلسائنا
واخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم . « هذا الى أنه قد دون
فصلا في كتاب « أدب الكاتب » « عما تتكلم به العامة من الكلام
الأعجمي » سرد فيه تلك الكلمات الأعجمية وأشار الى أصلها .

وليس من العجيب أن يعرف ابن قتيبة الفارسية ، وانما العجيب
ألا يعرفها فقد ولد من أبوين فارسيين من مدينة مرو ، وكان
الفرس — كما نعرف — جد حريصين على الاحتفاظ بمقوماتهم
من لغة وعادات وتقاليدهم فليس يبيد أن يكون والداه قد لقنهما
لغتهم الأصلية . وقد يكون قضاؤه في « الدينور » قد خلق له
فرصة تعلم الفارسية وهو رجل مشغوف بالمعرفة ، لا يجد لها
بابا الا ولجه . أضف الى ذلك أنه كان يتردد على نيسابور ليأخذ
عن أستاذه « ابن راهويه » فأتيحت له دراسة اللغة في موطنها .

بقي علينا سؤال قد يرد على خواطر الباحثين وهو : هل يعتبر
ابن قتيبة عالما بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة الآن ؟
أما أنا فأقول : لا .

نعم ، لم يكن ابن قتيبة — في نظري — عالما بالمعنى الذي
عناه العالم الفرنسي المعروف « شارل ريشيه Charles Richet »
في كتابه « تجارب في علم النفس العام » ، فقد عقد فيه فصلا
عرف فيه « العالم » تعريفا واضحا ، وبين ضروب العلماء .
وخلاصة هذا الفصل أن العالم هو الذي يتوخى البحث عن حقيقة
مجهولة . فالفرق بين علم العالم وعلم العامي من الناس أن العامة

تقتصر على معاينة الأشياء ، ولكن العلماء يحاولون أن يتعرفوا
أسباب هذه الأشياء (١) .

هذا هو العالم في نظر « ريشيه » ، وأنا أعتقد أن ابن قتيبة
لم يكن من هذا الطراز من العلماء . ومن الحق على أن أقول أنه
ربما كان « الجاحظ » يمت بصلة إلى مثل هذا العالم الحديث .
وسنعرض لذلك عند المقارنة بين العالمين الكبيرين . ولا يمكن أن
ننظم ابن قتيبة في عداد هؤلاء العلماء ، ولكن إذا أريد بلمنطة
« العالم » غزارة المادة وسعة المحصول فهو — من غير ريب —
على رأس هؤلاء العلماء الأفاضل ، وكأنه مستودع ضخم قد أترع
بالعلم والمعرفة . وهو — في نظري — يفوق الجاحظ في هذه
الناحية ، فهو عالم من طراز المحصلين الواعين .

وبعد ، فقد كان ابن قتيبة واسع الثقافة متنوعها ، وكان
نادرة زمانه في حب المعرفة والتحصيل . وثقافته — كما عرفنا
من مؤلفاته — ذات وجهين : وجه ديني ، ووجه أدبي . وسيبين
لك في الفصول التالية مواقفه من خصومه في الأمور التي تتصل
بالدين من قريب أو بعيد ، فنذكر موقفه من أهل الرأي ، والخلاف
بينهما يختص بالتشريع . ونذكر موقفه من أهل الكلام ، والخلاف
بينهما يتعلق بالمعتقدات . ثم نقف وقفة خاصة عند « مشكلة
خلق القرآن » ، لأنها شغلت المسلمين جميعا ردحا طويلا من

الزمان ، وكانت أكبر مظاهر الخلاف بين المتكلمين وأهل السنة ،
ثم نخرج بعد ذلك على تبيان مذهبه وهواه الديني . ثم نختم ذلك
بالحديث عن ابن قتيبة المحدث ، لأنه كان من رءوس أهل الحديث
الذين يجعلون جلّ اعتمادهم على الحديث في التشريع . وكان
اشتغاله بالحديث ذا لون خاص مصطبغ بروحه الأدبية وصفته
الدينية . وهذه الأمور كلها هي جوانب الوجه الديني .
أما الوجه الأدبي فله حديث مستفيض في باب خاص يتناول
شئى نواحى ابن قتيبة الأدبية .

ولا يعزبن عن أحد أن الصلة وثيقة بين الوجهين . فالواقع
يقرر أن الدراسة الدينية أساس للدراسة الأدبية في ذلك الزمان
وقد عبر عن ذلك في شيء من الدقة الدكتور اسحاق الحسينى ،
فقال في تعريف كلمة « الألب » اذ ذاك إنها دراسة العلوم الدينية
من الناحية الأدبية واللغوية ، ولهذا نرى أن أهل الحديث والفقه
كانوا يستعينون باللغة ومأثور الشعر . وكان المحدثون يرون
أنه ليس براو عندهم من لم يرو اللغة والأدب ، لأنهم لا يستطيعون
أن يقيموا آراءهم في غريب الأثر ومشتبه الحديث الا بما يحتجون
به من الشعر وكلام العرب . وقد أثر عن الشافعى رحمه الله أنه
طلب اللغة والأدب عشرين سنة لا يريد بذلك الا الاستعانة على
الفقه (١) . وكان ابن عباس يقول : ان الشعر ديوان العرب ، فاذا
خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا

(١) توالى التأسيس لابن حجر العسقلانى ص ٥ .

الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه « (١) . ويروى عن الشافعي أنه كان « يوصى الخاصة القائمين بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم بالاجتهاد في تعلم لسان العرب ولغاتها التي بها تمام التوصل الى معرفة ما في الكتاب والسنن والآثار وأقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين من الألفاظ الغريبة والمخاطبات العربية » (٢) . وابن قتيبة يسخر ممن يجلس للحديث وهو غير ملم بأطراف الأدب فيقول : « فانه ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث وهو من الأدب غفل ، ومن التمييز خلو ، ليس له من معاني العلم الا تقادم سنه .. الخ » (٣) . وهذا الكلام يدل على أن الالمام بفروع الأدب كان من ضرورات المشتغل بالحديث .

ومن ناحية أخرى كان رواة الأدب واللغة يلمون بتفسير القرآن الكريم ، وبالحديث ، لأنه أفصح ما أثر من بليغ الكلام بعد كتاب الله . والقول يطول بنا لو شئنا أن نبين أثر الحديث في رقي اللغة والأدب ، ولهذا كان من الطبيعي أن يكون الأدباء هم أول من وضعوا في غريب الحديث كتابا ، وقل أن تجد فيهم من لا رواية له في الحديث قلت أو كثرت . وعلمنا ابن قتيبة كان يستعين بدرايته باللغة والأدب في حل المشكلات الدينية التي تشأ من الاختلاف في فهم النصوص .

فنحن اذا عرضنا للناحية الدينية لابن قتيبة لم نكن قد بعدنا

(١) تاريخ يعقوبى ١١٠/٢ .

(٢) مقدمة تهذيب اللغة للأزهري .

(٣) انظر مقدمة كتاب الاختلاف في اللفظ .

عن الناحية الأدبية ، والعكس كذلك . بل إن دراسة الناحية الدينية
تعيننا على تفسير بعض مظاهر الناحية الأدبية . وربما كان ابن قتيبة
تقصه مؤيدا لنا في هذا الرأي إذ يقول : « من أراد أن يكون عالما
قليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في
العلوم » (١) .

وعلى هذا يعتبر ابن قتيبة من رءوس الأدباء ، لأنه قد توسع
في جميع العلوم التي كانت معروفة في عصره . وما أجدرنا بأن
نعنى بالناحية الدينية عند ابن قتيبة لتكتمل لنا صورة هذا الزعيم
الديني العالم الأديب . ولنتناول في هذه الفصول التالية نواحيه
الدينية لنفرغ الى نواحيه الأدبية .

الفصل الثاني

ابن قتيبة وأهل الرأي

لقد كان أهل الحديث يعضون أهل الرأي والقياس ، وكان الآخرون يحملون عليهم حملات عنيفة ، وينتهزون كل فرصة للايقاع بهم لدى الخلفاء وذوى السلطان ، ولكن أهل الحديث كانوا لا يتورعون عن أن يرموهم بأقذع الصفات ، ويوجهوا اليهم أفحش الألفاظ .

ومنذ أن ظهر من الفقهاء من يعتمدون على العقل والقياس ، قام أهل الحديث يسفّهون مذهبهم ويصمونهم بالخروج على الدين ، وقلة الاعتماد على أعظم مصدر للتشريع الإسلامى بعد كتاب الله ، وهو الحديث . وكان الفريقان يتراشقان بالألفاظ النابية التى تؤذى الأسماع ، وأنا أستخزي أن أذكر شيئاً منها ، وأحيلك على كتاب « تأويل مختلف الحديث » لتقرأ نماذج كثيرة لها .

وكان أول من استهدف لحملات أصحاب الحديث زعيم القياس وشيخ الفقهاء الامام الأعظم « أبا حنيفة النعمان (٨٠ — ١٥٠) » . والحق أنه جوزى على ما أداه للفقه جزاء سنمار . وقد جر عليه كل هذا البلاء أتباعه الذين أفسدوا مذهبه .

ويجمل بنا أن نين في ايجاز أساس هذا المذهب وتطوره لنذكر
مدى مبايئته لمذهب أهل الحديث ، ونصيب ابن قتيبة من هذا
الصراع العنيف :

لقد وجد الصحابة أنفسهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
أمام حوادث جديدة لا عهد لهم بها ، وبين أيديهم كتاب الله والمعروف
من سنن رسول الله ، فلجئوا الى الكتاب يعرضون عليه ما جد
من حوادث ، فان وجدوا فيه حكما صريحا حكموا به ، وان
لم يجدوا اتجهوا الى المأثور عن رسول الله واستشاروا ذاكرات
أصحابه ليعرفوا حكم النبي في أمثال تلك القضايا ، فان
لم يكن بينهم من يحفظ حديثا اجتهدوا آراءهم . ومثلهم في ذلك
مثل القاضي المقيد بنصوص قانون ، فاذا لم يجد في النص ما يحكم
به في قضية بين يديه طبق ما يراه عدلا وانصافا .

هكذا كان الصحابة يفعلون ، يعرضون القضية على الكتاب ،
ثم على السنة ، والا فليس أمامهم الا الرأي . وقد أفصح عن
ذلك عمر بن الخطاب في رسالته الى « أبى موسى الأشعري »
حيث قال : « الفهم ، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في
كتاب ولا سنة . اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند
ذلك » (١)

وحذا حذو الصحابة التابعون رضوان الله عليهم جميعا . وكان

(١) الكامل للمبرد ص ٣ ، والبيان والتبيين ٥٠/٢ .

الصحابة والتابعون في ذلك فريقين : فريقا يعتمد كثيرا على الرأي ، وفريقا يعمل به في شيء من القصد والحذر .

ولما جاء الامام أبو حنيفة رضى الله عنه وجد أن الحديث قد داخله كثير من الافتعال لأسباب عدة لا حاجة بنا الى ذكرها ، وأن ما صحح منه لا يفي بتشريعات الدولة الجديدة ، فلجأ الى الرأي وجعله دعامة مذهبه المعروف بمذهب الرأي والقياس .

وكان من أظهر مذهب أبي حنيفة ما يعرف « بالحيل الشرعية » . وهذا الباب من أوسع أبواب الفقه ، ولا يخلو منه مذهب من مذاهب الفقهاء ، ولكنه في مذهب الحنفية واسع كل السعة ، لأنه يوائم روح مذهب القياس . ويروون أنه كان لأبي حنيفة كتاب في الحيل ؛ فقد ذكروا أن عبد الله بن المبارك قال : « من كان عنده كتاب الحيل لأبي حنيفة يستعمله أو يفتى به فقد بطل حجه وبانت منه امرأته » (١) . وقد ألف « محمد بن الحسن » صاحب أبي حنيفة كتابا سماه « كتاب المخارج في الحيل » ونشره سنة ١٩٣٠ الأستاذ المستشرق الدكتور « يوسف شاخت » ، أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب سابقا . وإذا كانت بك حاجة الى أن تعرف الحيل الشرعية وأنواعها وخصائصها فارجع الى كتاب « أعلام الموقعين » لابن القيم ، ففيه كلام مسهب يرضى حاجتك » (٢) .

(١) كتاب « أبو حنيفة » للشيخ أبو زهرة ص ٤١٧ .

(٢) انظر اعلام الموقعين ج ٣ ص ٣٩٤ وما بعدها .

والواقع أن أبا حنيفة رحمه الله لم يكن يبغي بهذا التحايل في الافتاء ازهاق حق أو تحليل حرام أو أكل الأموال بالباطل ، وإنما كان يبغي من وراء ذلك أن يكتف الفقه بمرونة عقلية لا تجعله يقف حائرا جامدا أمام مشاكل الحياة التي تتبدل وتتغير حسب البيئة والزمان .

كان هذا صنيع أبي حنيفة ، وكله خير كما ترى . . . ولكن من جاءوا بعده توسعوا في هذه الحيل توسعا ذهب بمزية المرونة فيها . فقد سبحوا في الخيال يقرضون أمورا في الإيمان والطلاق لا تخطر على بال أي إنسان ، ولا يمكن أن تضادفه في حياته العملية .

ولقد اعتمد المتأخرون من الفقهاء على هذه المسائل القليلة التي وردت عن أبي حنيفة ، وتوسعوا فيها حتى جعلوها في كل باب من أبواب الفقه ، ولم يقفوا عند الحدود التي وقف فيها الأئمة ، بل جعلوا منها ما يحتال به على اضاءة الحقوق وافساد الالتزامات .

والحق ان أبا حنيفة قد خرج على الناس بنحو جديد من التشريع يعتمد كثيرا على العقل الحر ، بكثرة استعمال الرأي والقياس . وكان أبو حنيفة يمتاز بمقدرة فريدة في استنباط الأحكام وبشجاعة نادرة في مواجهة المسائل ، ما جد منها وما يفترض ، وبتعريف وجوه الحيل في الحدود التي لا تمس جوهر الدين . فهو بذلك قد قرّب الفقه من الأذهان ، وبيّن أن الدين يتمشى مع الروح الانسانية والفترة السليمة .

وقد قاسى أبو حنيفة هجوما مريرا من أهل الحديث ، وهذا أمر طبعى ، لأن منهجه يغاير منهجهم ، فهم يعتمدون على الحديث فى الافتاء ، ويكتفون من الراوى بالألا يكون مجرّحا فحسب . أما أبو حنيفة فينقد متن الحديث نفسه ويشك فى كثير منه ، ويرى أن مقياس صحة الحديث مطابقتها للعقل ، ولذلك كان يردّ أحاديث كثيرة ويقول : « دعنا من هذا » أو « هذا حديث خرافة » . ولذلك لم يصحّ عنده من الأحاديث الا القليل ، وهذا لا يساعده على استنباط الأحكام على طريقة أهل الحديث . والظاهر أنه هو وأصحابه كانوا يهابون رواية الحديث خوف الزيادة والنقصان وعدم تمييز الصحيح من غيره بعد أن فشا وضع الحديث ، وكانوا لا يهابون القسّيا ويقولون : « على الفقه بناء الدين فلا بد من اشاعته » .

وكان أهل الحديث من أجل ذلك يشنعون على أبى حنيفة ويقولون انه أكذب الحديث ، وانه يستعمل الرأى مع وجود الحديث فى نظرهم . وقد رموه باتباع الهوى ونسوا أن متبع الهوى انما ينبغى من وراء ذلك صالحا خاصا من مال أو جاه ، ومعاذ الله أن يكون أبو حنيفة من هؤلاء . فهو الرجل التقى الذى يقول عنه ابن التديم : « وكان من الورعين الزاهدين » (١) . وكل ما فيه أنه عالم نير البصيرة ، ثاقب الفكر ، يستعمل الرأى بعد بذل الجهد ليصل الى ما يعتقد أنه حق ، وهذا ليس من الهوى فى شىء . ويقول ابن عبد البر : « ان كثيرا من أهل الحديث

(١) الفهرست ص ٢٠١ .

استجازوا الطعن على أبي حنيفة لردّه كثيراً من أخبار الآحاد
العدول ، لأنه كان يذهب في ذلك الى عرضها على ما اجتمع عليه
من الأحاديث ومعاني القرآن ، فما شذ عن ذلك رده وسماه
شاذاً .. وكان مع ذلك محسوداً لفهمه وفطنته » (١) .

وفاته لمن المؤلم حقا أن ينزل الى تجريحه أفا من أئمة الفقهاء ،
كمالك بن أنس والأوزاعي وسفيان الثوري . وقد جرّحه الامام
محمد بن اسماعيل البخاري وعدّه من الضعفاء والمتروكين (٢) ،
ولذلك لم يرو له في صحيحه حديثاً واحداً ، وحذا حذوه مسلم
ابن الحجاج . ولكنه لم يعدم من تعصب له ودافع عنه من أهل الحديث
مثل شعبة بن الحجاج وابن جريح ويحيى بن معين وغيرهم من
أهل الحديث .

وقد حمل ابن قتيبة في عنف على أبي حنيفة وأصحاب الرأي
لعدة أسباب أهمها :

١ — أنه سائر بذلك أهل الحديث لما بيننا من خلاف بين
المذهبيين . وابن قتيبة — كما نعرف — زعيم أهل الحديث ،
فلا بدع اذا وقف يردّ عنهم كيد خصولهم .

٢ — وزاد هذه الخصومة شدة أن جماعة من القضاة المتقنين
من أهل الرأي قد تولوا اختبار المحدثين في محنة خلق القرآن ،
وكانوا يخرجونهم ويسدون عليهم الطرائق لقوة منطقهم في
الجدل والنقاش . فغرس ذلك في نفوس أهل الحديث البغض لهم

(١) الانتقاء ص ١٤٩ .

(٢) الانتقاء ص ٢٤٩ .

والحقد عليهم ، فهاجموهم في قسوة وشدة . ويعلم الله أن أبا حنيفة قد حملوه ظلما وزر ذلك كله .

٣ — ولا شك أن ابن قتيبة قد تأثر — الى جانب ذلك — بأستاذه « اسحاق بن راهويه » الذي كان يمقت أهل الرأي أشد مقت . وكان ابن راهويه يتفقه في مبدأ أمره على مذهب أهل الرأي ثم انحرف عنهم . وليس من العسير أن نعرف سر ذلك ؛ فقد كان ابن راهويه تلميذ عبد الله بن المبارك الذي كان من أنصار أبي حنيفة المخلصين بمرء ، ثم انحرف عن مذهبه فانحرف معه تلميذه تبعاً له . وكان ابن راهويه لا يظن قبلاً أن يجترأ أحد على رد قول أبي حنيفة ؛ وكان يجمع عن ابن المبارك بعض الأحاديث ، وقد رحل الى بلاد العراق والحجاز ليسأل عن هذه الأحاديث شيوخ ابن المبارك من الأحياء المعمرين ، ولما حلّ بالبصرة في رحلته جلس الى عبد الرحمن بن مهدي ولازمه ، وكان ابن مهدي قد تأثر بشيخه سفيان الثوري الذي اختفى عنده عدة سنوات هرباً من المنصور حين طلبه للقضاء ومات بداره ، فورث ابن مهدي عن أستاذه الانحراف عن أبي حنيفة ، وزاد ذلك ابن راهويه انحرافاً أثناء ملازمته ابن مهدي . ومن المحقق أن ابن قتيبة قد تأثر بأستاذه في هذا الانحراف . أضف الى ذلك أن ابن قتيبة قد نهل من مدرسة الأصمعي ، والأصمعي معروف بمعارضته الشديدة لأهل الرأي .

٤ — وليس ببعيد أن يكون ابن قتيبة قد تأثر بأبيه المروزي ، اذ يقال ان أهل مرو كانوا يكرهون أبا حنيفة ؛ فقد روى ابن قتيبة أن رجلاً اسمه « شقيق البلخي » أطرى أبا حنيفة بمرء ، فقال له

على ابن اسحاق : لا تطره بمرور فانهم لا يحملون ذلك ، فقال
شقيق : قد ملحه مساور الشاعر فقال :

إذا ما الناس يوما قايسوننا بأبدة من الفتيا طريفه
أتيناهم بمقياس صحيح تلاد من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها دعاها وأثبتها بجبر في صـحيفه
فقال له : قد أجابه بعض أصحابنا فقال :

إذا ذو الرأي خاصم في قياس وجاء بيدعة هنة سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها وآثار مبرزة شـرفـية
فكم من فرج محصنة عفيف أبـجل حرامه بأبي حنيفة (١)
وهذا يفهمنا أن الشعراء قد اندسوا في النزاع الذي كان
قائما بين المحدثين وأهل الرأي .

تلك هي الأمور التي كانت سببا في أن يناصب ابن قتيبة أهل
الرأي العداء وأن يحمل عليهم هذه الحملات الشعواء . وعلى أية
حال فقد أوجد هذا الجدل حركة ناهضة بلغت بالفقه الاسلامي
ذروة الرقي .

وابن قتيبة كان على حق في أن يقف من أهل الرأي هذا الموقف ،
لأنهم كانوا في زمنه يفهمون آيات الله على غير وجهها الصحيح ،
ويؤولون الأحاديث تأويلا لا يقره عقل ولا دين كما سنعرف .
ولا شك أن الامام أبا حنيفة بريء من ذلك كله ، ولكن من جاء
بعده من أهل النظر والقياس هم الذين يحملون أوزار ما أوجدوه

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٤٠ ، والمعارف ٢١٦ .

في مذهبه . وكان ابن قتيبة يطلق عليهم اسم : « العصابة التي لا تؤمن الا بما أوجبه النظر ودل عليه القياس فيما شاهدوا ورأوا » (١) .

وكان يناقشهم مناقشة منطقية سليمة ، ويوضح لهم تناقضهم وفساد آرائهم وعدم الدقة في أحكامهم . وماذا تقول في رجل منهم اسمه « عبيد الله بن الحسن » يرى أن « من سمى الزاني مؤمنا قد أصاب ، ومن سماه كافرا قد أصاب ، ومن قال هو فاسق وليس بمؤمن ولا كافر قد أصاب ، ومن قال هو منافق ليس بمؤمن ولا كافر قد أصاب ، ومن قال هو كافر وليس بمشرك قد أصاب ، ومن قال هو كافر مشرك قد أصاب لأن القرآن قد دل على هذه المعاني » (٢) ؟ . انتى في حيرة من أمر هذه الأقوال ، ولا أدري كيف استخلصها صاحبها من القرآن الكريم ، وحسبها أنها جمعت الأحكام المتناقضة في أمر واحد لتدل على اختلالها . ولهذا الرجل « عبيد الله بن الحسن » أحكام فقهية من هذا النحو تدعو الى العجب والتساؤل .

وذكر ابن قتيبة أن رجلا آخر منهم اسمه « بكر صاحب البكرية » — وهو من أحسنهم حالا في التوقي — كان يقول : « من سرق حبة من خردل ثم مات غير تائب من ذلك فهو خالد في النار مخلد أبدا مع اليهود والنصارى » . ثم يقول بكر عقب هذا : « وقد وسع الله للمسلم أن يأكل من مال صديقه وهو لا يعلم ،

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦ .

ووسع لداخل الحائط (أي البستان) أن يأكل من ثمره ولا يحصل ،
 ووسع لابن السبيل اذا مر في سفره بغنم وهو عطشان أن يصيب
 من رسلها . . ويعلق ابن قتيبة على ذلك فيقول : « فكيف يعذب
 الله من أخذ حبة من خردل لا قدر لها ويخلده في النار أبدا . وأى
 ذنب هو أخذ حبة من خردل حتى يكون منه توبة أو اضرار » .
 وابن قتيبة مصيب فيما يقول لأن الدين الاسلامي أسمى من أن
 يكون متزمتا ، فيه مثل هذه الأحكام الغريبة ، وكان الأولى ببكر
 هذا أن يعي قول النبي الكريم : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين
 أحد الا غلبه » ، وأن يتدبر موقف عمر بن الخطاب من رجل وجد
 لوزة في السوق فانطلق صائحا : « من ضاعت له لوزة ، من ضاعت
 له لوزة ؟ فقال له عمر في حدة : كئله يا صاحب الورع الكاذب » .
 وكان ابن قتيبة يجهد نفسه في العثور على زلاتهم ليشهر بهم ،
 فأينما وجد ثغرة في منطق تفكيرهم أو اعوجاجا في أفهامهم سدّد
 سهمه رائشا اليهم . ذكر أن صاحب البكرية هذا كان يقول :
 ان الأطفال لا تألم ، فاذا سئل ف قيل له : « فما باله يبكي اذا
 قرص أو وقعت عليه شرارة ؟ قال : انما ذلك عقوبة لأبويه ، والله
 تعالى أعدل من أن يؤلم طفلا لا ذنب له » . وقد سخر ابن قتيبة
 منه سخرية شديدة ورد عليه بأن كل امرئ معرض للألم
 والمصائب ، ولا دخل لعدل الله في ذلك . ويقول صاحب البكرية
 أيضا : « شرب نبيذ السقاء الشديد من السنة ، وكذلك أكل
 الجدى والمسح على الكفين » . ويرد ابن قتيبة عليه فيقول :
 « والسنة انما تكون في الدين لا في المأكول والمشروب . ولو أن

رجلا لم يأكل البطيخ بالرطب دهره وقد آكله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لم يأكل القرع وقد كان يعجب به النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل انه ترك السنة » (١) .

وابن قتيبة في رده عليهم يدل على أنه يفهم روح الدين وينزه عن تفاهات الأمور . واني لأعجب لأصحاب الرأي كيف يصل بهم القصور العقلية الى العجز عن ادراك المراد من أحاديث الرسول ، والى فهم الكلام على ظاهره ومنطوقه دون النفاذ الى لبه ، فهم لا يعترفون بالصورة البيانية ويفهمون اللفظ على ما وضع له فحسب من غير أن يستعار لمعنى آخر . ومن ذلك أنهم يعتبرون هذا الحديث من التشبيه : روى عن ابن عباس أنه قال : « الحجر الأسود يمين الله تعالى في الأرض يصافح بها من شاء من خلقه » (٢) . وقد قالوا ان هذا الحديث يجعل لله يمينا كسائر خلقه ، وليسوا أن هذا تشبيه بياني قصد به الايضاح كما جاء في قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وقد رد عليهم ابن قتيبة فقال : « ان هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله أن الملك كان اذا صافح رجلا قبل الرجل يده ، فكان الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك تستلم وتلتئم » .

وكان لأهل الرأي آراء في غاية الغرابة لا يقرها « رأى » ولا نظر ، ومن عجب أن يتدع هذه الآراء أهل الرأي والنظر . وابن قتيبة يدهش من آرائهم ويناقشها فيقول : « اذ كيف يقع

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٥٨ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٧١ .

في القياس أن يقطع سارق عشرة دراهم ، ويُمسك عن غاصب
مائة ألف ، ويُجلد قاذف الحر الفاجر ويُعفى عن قاذف العبد
العفيف ، وتُستبرأ أرحام الاماء بحيضة ورحم الحرة بثلاث
حيضات .. ويوجب على الحائض قضاء الصوم ولا يوجب عليها
قضاء الصلاة ، ويُجلد في القذف بالزنا أكثر من الجلد في القذف
بالكفر ، ويُقطع في القتل بشاهدين ولا يُقطع في الزنا بأقل من
أربعة » . وهذا التساؤل من ابن قتيبة فيه افكار لما كان يحدثه
أصحاب الرأي في التشريع من أحداث لا يرضاها الدين .

والحق أن أهل الرأي ممن جاءوا بعد أبي حنيفة كانوا متخاملين
على الحديث تحاملا ظاهرا ، وقد دفعهم هذا التحامل الى أن
يوجهوا بعض الأحاديث توجيهها خطرا سيئا يمس صاحب الرسالة
صلوات الله وسلامه عليه . وما كان يجمل بهؤلاء القوم — وهم
من العلماء المتفقيين في الدين — أن ينزلقوا الى هذه الهاوية ، وأن
تدفع بهم الخصومة المذهبية والشخصية الى أن يثلموا الدين في
قصد ظاهر ، وهم يؤمنون في قرارة نفوسهم بأنهم يركبون متن
المغالطة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه . فلا تثريب على ابن قتيبة
إذا هاجمهم في عنف وشدة ، حفاظا على الدين ، وحرصا على
الشرعية أن تدينسها الأهواء . وزلاتهم كثيرة قد سقت لك أمثلة
منها لتقف على مبلغ تفكيرهم ، ولتلتبس المذرة لأهل السنة إذا
ما سلقوهم بالسنة حداد ، وأنا أحيلك على كتاب « تأويل مختلف
الحديث » لتقرأ ثبنا حافلا من هذه الزلات الشنيعة .

وكان ابن قتيبة رأسا من روعس أهل الحديث ، ولكن ذلك

لم يمنعه من أن يروى — في صدق وأمانة — ما ينسب إليهم
 (أي أهل الحديث) من عيوب تجرحهم وتبدد الثقة بهم . وهذا
 يدل على أنه كان يؤثر الحق دائماً ؛ فقد ذكر أن « شعبة بن
 الحجاج » — وهو من كبار رجال الحديث — كان يقول : « والله
 لأننا في الشعر أسلم مني في الحديث ، ولو أردت الله ما خرجت
 إليكم ، ولو أردتم الله ما جئتموني ، ولكننا نحب المدح ونكره
 الذم » (١) . ولا شك أن هذا القول من محدث مشهور مثل شعبة
 يستل من الناس ثقتهم به خاصة وبأهل الحديث عامة . ويقول
 شعبة بعد ذلك بقليل عن رجل آخر من رجال الحديث هو « يزيد
 ابن سفيان » وكنيته « أبو المهزم » : « رأيت أبا المهزم في مسجد
 « ثابت البناني » مطروحا لو أعطاه رجل فلسين حديثه سبعين
 حديثا » ، وكان شعبة يضعفه ولا يثق في روايته .. وهكذا تناول
 ابن قتيبة كثيرا من رجال الحديث في كتاب « المعارف » في غير
 تحرز ، مدفوعا بدافع الصدق والنزاهة . وقد روى عن « معاوية
 الضير » المحدث المشهور أنه كان يحب شرب النبيذ المعتق ، وقد
 خرج على أصحابه يوما وهو يقول :

وإذا المعدة جاشت فارمها بالمنجنيق
 بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق (٢)
 وهذه الأخبار وأشباهاها تزدري بأهل الحديث ، وتوجد لأصحاب
 الرأي ثغرة ينفذون منها إلى خصومهم ، ولكن ابن قتيبة كان
 لا يحرض إلا على الحق ليس غير .

(١) كتاب المعارف ص ٢٤٩ . (٢) كتاب المعارف ص ٢٢٣ .

الفصل الثالث

ابن قتيبة وأهل الكلام

كان العداء مستحكما بين أهل الحديث وأهل الكلام كذلك ، وبخاصة فريق المعتزلة منهم . وربما كانت الخصومة بين الطائفتين أشد وأعنف مما عرفتها بين أهل الحديث وأهل الرأي . وسبب هذه الخصومة ترجع — فيما أرى — الى أمور أربعة :

١ — كان موقف المتكلمين من الحديث موقف الشك والحرية ، فكانوا يحكمون العقل في كل شيء ، ويشكون في كل حديث لا يتفق مع العقل حسب تقديرهم . فهم يحكمون العقل في الحديث لا الحديث في العقل ، ولهم في ذلك حكايات كثيرة سنذكر لك طرفا منها في مكان مناسب .

٢ — كان فقه أبي حنيفة أقرب الى عقلية المعتزلة من غيره . وهذا أمر طبيعي ، لأنهم يعتمدون على العقل ، كما يعتمد أهل الرأي على العقل في استنباط الأحكام . ولذلك نرى بعض المعتزلة قد تعصبوا لفقه أبي حنيفة وآزروه وقوى على أيديهم ، ومن أشهر هؤلاء المعتزلة « محمد بن شجاع الثلجي » المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وفيه يقول ابن النديم : « انه فتح فقه أبي حنيفة ،

واحتج له ، وأظهر علله ، وقواه بالحديث ، وحلاه في الصدر « (١) .
٣ — مشكلة خلق القرآن ، وهى وليدة العقل الكلامى . وقد
قاسى أجلة أهل الحديث بسبب هذه المشكلة ألوانا مختلفة من
العذاب والاضطهاد ، وسنفرد لهذه المشكلة حديثا مسهبا في الفصل
التالى لأهميتها .

٤ — تعاليم المعتزلة تخالف كل المخالفة آراء أهل السنة
وبخاصة في مرتكب الكبيرة ، ومسألة الجبر والاختيار ، وصفات
الله تعالى . وسأوقفك على تعاليمهم لتعرف مبلغ معارضتها لمعتقدات
أهل السنة . وانى لأرى من الخير أن أذكر نبذة عاجلة عن مذهب
الاعتزال وظهور المعتزلة لندرك مبلغ الخلف بينهم وبين أهل
الحديث ، ثم بعد ذلك نوضح بلاء ابن قتيبة في هذا الصراع
العنيف :

يذهب بعضهم الى أن اسم « المعتزلة » — كما ذكر
الشهرستانى — أتى من أن واصل بن عطاء كان يجلس مع الحسن
البصرى ، فجاء رجل وسأل الحسن عن حكم مرتكب الكبيرة ،
لأن الخوارج تكفّره ، والجماعة تقول انه مؤمن وفسق بالكبيرة .
ففكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب خرج واصل بن عطاء على
الفریقین وقال ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن مطلق ، ولا بكافر
مطلق ، وانما هو بين المنزلتين . ثم قام واعتزل ، فقال الحسن :
« اعتزل عنا واصل » ، فسُمى هو وأصحابه « معتزلة » ، وتابعه

في ذلك عمرو بن عبيد (١) . والمسدودي يقول انهم سُمّوا « المعتزلة » لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين (٢) . ويقول المرتضى انهم سموا « بالمعتزلة » لقول قتادة — وكان من أصحاب الحسن — : ما تصنع المعتزلة (٣) ؟ وصار يطلق عليهم هذا الاسم . وهم يسمون كذلك « العدلية » لقولهم بعدل الله وحكمته ، كما سنعرف في تعاليمهم ، ويسمون « الموحدة » لقولهم : لا قديم مع الله (٤) ، ويسمون كذلك « أصحاب العدل والتوحيد » ، ويلقبون « بالقدرية » (٥) .

وكان المعتزلة يحتجون لفضيل الاعتزال بقوله تعالى « وأعتزلكم » ، وما في معناها مثل قوله تعالى « واهجرهم هجرا جميلا » ، وليس ذلك الا بالاعتزال عنهم . واحتجوا من السنة بقوله صلى الله عليه وسلم « من اعتزل من الشر سقط في الخير » . واحتجوا أيضا بالخبر الذي رواه سفيان الثوري عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة » . ثم قال سفيان لأصحابه : « تسموا بهذا الاسم لأنكم

(١) اقرأ هذا بالتفصيل في الملل والنحل على هامش الفصل في

الملل والأهواء ٦٠/١ .

(٢) مروج الذهب ٩٨/٢ .

(٣) ذكر المعتزلة ص ٤ .

(٤) ذكر المعتزلة ص ٢ .

(٥) الملل والنحل على هامش ابن حزم ٥٤/١ .

اعتزلتهم الظلمة». فقالوا: «سبقك بها عمرو بن عبيد وأصحابه»^(١).
 والمعتزلة طوائف شتى كالواصلية أصحاب واصل بن عطاء ،
 والهذيلية أصحاب أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة ، والنظامية
 أصحاب ابراهيم بن سياره بن هانيء النظام أستاذ الجاحظ ،
 والشمامية أصحاب ثمامة بن أشرس النيمري ، والجاحظية أصحاب
 الجاحظ ، وغيرها . ولكل طائفة من هذه الطوائف اعتزال يدور
 على قواعد معينة فصلتها الشهرستاني في كتابه .

وللمعتزلة في نظر الجاحظ مقام رفيع يدل عليه قوله : « لولا
 مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة
 لهلكت العوام من جميع النحل »^(٢) .

وتتلخص تعاليم المعتزلة التي تجمع عليها طوائفهم في الأصول

الآتية :

١ — القول بالمنزلة بين المنزلتين ، أى ان مرتكب الكبيرة
 ليس بكافر ولا مؤمن ، ولكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار
 لفسقه . وكانت الخوارج تقول بكفره ، والمرجئة تقول انه مؤمن ،
 والحسن البصرى يرى أنه منافق ، فقال واصل انه فاسق وله
 منزلة بين الكفر والايمان ، وقال انه يخلد في النار .

٢ — القول بالتقدير وأن الله لا يخلق أفعال الناس ، وانما هم
 الذين يخلقون أعمالهم . فهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ،
 ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل . فالعبد اذن في نظرهم
 قادر خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثوابا

(١) انظر ذكر المعتزلة . (٢) كتاب الحيوان ٦٩/٤ .

وعقابا في الدار الآخرة ، والله تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم ، لأنه لو خلق الظلم كان ظلما ، كما لو خلق العدل كان عادلا . ويقال ان أول من بحث في القدر وصفات الله وتعمق واحرف رجل يقال له « بيسريس » ، كان نصرانيا وأسلم ثم تنصر ، وعنه أخذ « غيلان الدمشقي » و « معبد الجهني » ، وهما أول من جعل الكلام في القدر نحلة يناظر فيها ، وقد وضعنا شيئا من الأحاديث (١) . وكان غيلان يقول بحرية الارادة وأن القدر لا يلجئ الانسان . وقد أوجد بقوله هذا حركة في الشام في هذا الموضوع جعلت عمر بن عبد العزيز يدعوه ويناقشه . وقد أسلمت هذه الحركة الى الاعتزال ، واعتنقه بعض الخلفاء الأمويين بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه .

٣ — القول بالتوحيد ، فنقوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته . والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله تعالى واحد لا شريك له . واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق وهو حرف وصوت . ولا شك أن فكرة خلق القرآن نشأت من هذا الاعتقاد . واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه . وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة وسموها هذا النمط توحيدا .

٤ — قولهم بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقيح

(١) المعارف ص ٢١٢ وشرح الميرون ص ١٨٣ .

ولو لم يرد بذلك شرع . وللشيء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا ، فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسنا ، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحا . والشرع لم يجعل الشيء الحسن حسنا لأنه أمر به ، ولا القبيح قبيحا بنهي عنه ، بل إن الشرع إنما أمر بالشيء لحسنه ونهى عن الآخر لقبه ، ولا يستطيع الشرع أن يعكس ، لأن أمره ونهيه تابعان لما في الشيء ذاته من حسن وقبيح .

تلك هي مجمل تعاليم المعتزلة ، وإن شئت لاحظت بها في شيء من التفصيل فارجع الى كتابي الشهرستاني والمرضى . ونظرة الى تلك التعاليم تدلنا على أنها تتعلق بعلم ما وراء الطبيعة « المتافيزيقا » وبالفلسفة . فإن البحث عن قدرة العبد وعن خلقه لأفعاله خيرها وشرها من خصائص علم الفلسفة وعلم ما وراء الطبيعة .

والحق أن المتكلمين عامة قد أدّوا للإسلام أجل الخدمات ، فقد كانوا أسرع الفرق الإسلامية للاستفادة من الفلسفة اليونانية ، والاستعانة بها في جدلهم وقاشهم . وهم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام ، وأول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين وجاذلوهم جدالا علميا ، وردوا على القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثاره اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من شكوك . وقد نشطوا لهذا العمل نشاطا عجيبا ، ويقول المرضى عن واصل بن عطاء : « كان أعلم الناس بكلام غالبية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » (١) .

(١) ذكر المعتزلة ص ٢٦ .

ذلك كان صنيع المعتزلة في خدمة الاسلام وأهله ، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا ممقوتين من السواد الأعظم من المسلمين ، لأنهم خالفوا أهل الحديث ، وردوا كثيرا منه . ثم انهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة . هذا الى أنهم في أيام سلطانهم زمن المأمون والمعتصم والواثق نكلوا بمن خالفهم في القول بخلق القرآن . ولم يكتفوا بمحاولة اقناع الناس على طريقتهم الفلسفية ، بل حملوا الناس على اعتناق رأيهم بحد السيف . فلاقى بسبب ذلك كثير من أئمة المسلمين والفقهاء ألوانا من العسف والتكيل ، هما سنيينه في الفصل التالي .

وتعاليمهم — كما رأينا — تبيح للعقل سلطانا لا يحدد مهما كان فيه من جموح وضلال ، ففتحوا بذلك للحرية الفكرية الباب على مصراعيه ، وفي ذلك خطر شديد ، لأن العقول تتفاوت ، فبعضها يصيب وبعضها يضل . وبسبب ذلك ظهر كثير من البدع الجريئة في الدين .

كان مما وسع مسافة الخلف اذن بين أهل الحديث والمعتزلة أن الأولين كانوا يعتمدون على المنقول من الكتاب والسنة ، والآخرين كانوا يعتمدون على المعقول ، واذا تعارض المعقول والمنقول عمدوا الى تأويل المنقول أحيانا ، وكانوا يردون الشبهة الى الأقيسة العقلية والأشكال المنطقية ، ويستخدمون ما وصل اليه العلم والفلسفة في بحوثهم الدينية ، ولا يعتمدون على الحديث الا قليلا . وساعدتهم على ذلك شيوع مسألة الوضع ، وبخاصة في العراق موطن المعتزلة ، حتى لقد أشفق من ذلك بعض كبار رجال الحديث .

فقد روى أن ابن شهاب الزهري كان يقول : « يخرج الحديث من عندنا شبرا ويعود في العراق ذراعاً » (١) . وكان مالك بن أنس يقول : « اذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته » (٢) . وكان يسمى الكوفة « دار الضرب » ، لأنها تضع الأحاديث كما تضرب النقود .

فلا عجب اذا وقف المعتزلة من الحديث موقف الشك والارتياب ، ولا غرابة اذا جعلوا العقل سراجهم الذي به يهتدون ، وعليه يعولون ، حتى لقد أطلق عليهم المستشرق « البارون كارديشو Le Baron Carra de Vaux » في كتابه « مفكرو الاسلام » اسم « العقلين » (٣) . ولكنهم غلوا في ذلك غلوا شديدا حتى لنراهم ينقدون الصحابة والتابعين في ألفاظ جريئة غير مقبولة ، ويرمونهم أحيانا بالتناقض والخلط . وقد ثقل ابن قتيبة كثيرا من ذلك في كتابه « تأويل مختلف الحديث » ، وسنوقفك على نماذج منها بعد قليل . وقد أدرك الناس هذا الفارق بين المذهبين فقالوا : النرد أشعرى والشطرنج معتزلى « لأن لاعب النرد يعتمد على القضاء والقدر ، ولاعب الشطرنج يعتمد على الجد واعمال الفكر .

والواقع أن مبدأ الاعتماد على العقل الذى ساروا على هديه كان له من ناحية أخرى فضل عظيم فى تقويم الرجولة وعدم الاكتراث بالثرهات ، فالتنوخى يحكى أن نساء المعتزلة لم يكن

(١) أمراء البيان ٢/ ٣٥٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر كتاب : Les Penseurs de l'Islame V. I. p. 295

يخشين الجن والأرواح ، وكذلك صبياتهم ، لأنهم لم يكونوا يسمعون أحاديث الجن من آبائهم ، بل كانوا يسمعون منهم انكار رؤيتهم ، ويقول التنوخي : « سمعت جماعة من أصحابنا يقولون : « من بركة المعتزلة أن صبيانهم لا يخافون الجن » (١) ، ويروى لذلك حكايات طريفة تدعو الى الضحك .

وربما كان الحق بجانب المعتزلة في ردهم بعض الأحاديث « التي يحتج بها أهل الجهالات » (٢) كما يقول الجاحظ ، وهي كثيرة منها أنه روى « أن الحجر الأسود كان أبيض فسودّه المشركون » . وقد سخر الجاحظ من ذلك فقال : « كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا » (٣) . ولكنهم كانوا ينقدون الصحابة في قحة ويرمونهم بالكذب أحيانا كما فعل النظام ، فقد قال : « زعم ابن مسعود أن القمر انشق وأنه رآه ، وهذا من الكذب الذي لا خفاء به ، لأن الله تعالى لا يشق القمر له وحده ولا لآخر معه ، وإنما يشقه ليكون آية للعالمين وحجة للمرسلين ومزجرة للعباد وبرهانا في جميع البلاد ، فكيف لم تعرف بذلك العامة ؟ ولم يؤرخ الناس بذلك العام ؟ ولم يذكره شاعر ؟ ولم يسلم عنده كافر ؟ ولم يحتج به مسلم على ملحد ؟ » (٤) . وكان النظام يرى أن انشقاق القمر الوارد في الآية الكريمة إنما يكون يوم القيامة . ولا شك أن النظام مضيب فيما يرى ، ولكن

(١) نشوار المحاضرات ص ٢٧٤ . (٢) الحيوان ٩٦/٤ .

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٧٢ .

(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٢٥ .

الذى يلام عليه أن يرمى الصحابي الجليل بالكذب ، وكان له من ذلك مخرج رفيع بالقول بأن الحديث موضوع وكفى .
ولو وقف أهل الكلام عند هذا الحد لكان الأمر بعض الشيء ، ولكنهم ضلوا وسلكوا سبيل الغي ، مما حفز ابن قتيبة وأمثاله الغيورين على الدين الى أن يتصدوا لهم ، وأن يناهضوهم في غير هواة أو توان ، لأنهم يتجنّون على الدين ويضيفون اليه من الأباطيل ما يسمهم بميسم الكفرة المارقين . ويجب أن نعرف أن ابن قتيبة لم يشن هذه الحملات العنيفة على المتكلمين الا بعد أن أفل نجمهم في خلافة المتوكل .

وحينما تقف على بعض آرائهم تدرك أنهم يتلاعبون بالشريعة الغراء ويوجهونها حسب أهوائهم ونزواتهم ، فيذكر ابن قتيبة أن من أصحاب الكلام من يرى الخمر غير محرمة ، وأن الله تعالى إنما نهى عنها على جهة التأديب كما قال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (١) . وللنظام في الخمر أبيات تأسر الألباب منها :

ما زلت آخذ روح الزق في لطف

وأسستيج دما من غير مجروح

حتى انشيت ولي روحان في جسد

والزق مطرح جسم بلا روح (٢)

ومنهم من يرى جواز نكاح تسع من الحرائر ، لقول الله تعالى :

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣ .

(٢) كتاب الأشربة ص ٦٧ .

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ويستدل على ذلك « بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مات عن تسع ، ولم يطلق الله لرسوله في القرآن الا ما أطلق لنا » (١) . وأنت ترى أنهم يحملون الآيات فوق ما تطيق ، فهي صريحة في أن جواز الجمع لا يصح أن يكون بين أكثر من أربع . أما الرسول فكان له من التشريع ما اقتضته ظروفه الخاصة .

وكان النظام يرى أن الطلاق لا يقع في الكنايات عنه ، كالخلية ، والبرية ، وحبلك على غاربك ، والبتة ، مخالفا بذلك جمهور الفقهاء . وأنت ترى أنهم يفسرون آيات القرآن تفسيراً احتيالياً ان صح هذا التعبير . وان تعجب فعجب قولهم : « ان شحم الخنزير وجلده حلال لأن الله تعالى ائما حرم لحمه في القرآن فقال : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » فلم يحرم شيئاً غير لحمه (٢) . ولا ريب أنهم يخالفون الله ويغالطون أنفسهم ، لأن أدنى عقل لا يقصر عن فهم الآية . ويفسر بعضهم قوله تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » أي « علمه » ، وجاء على ذلك بشاهد غير معروف من الشعر وهو :

« ولا يكرسىء علم الله مخلوق »

كأنه عندهم « ولا يعلم علم الله مخلوق » كما يقول

ابن قتيبة (٣) .

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣ .

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ .

وانى لأعجب كيف غاب عن ذهنهم أن للعرش معانى أخرى
 فى كلام العرب . ويرد عليهم « أبو على المرزوقى » الأصفهاني
 فيقول « ان من معانى العرش الملك والعز وقوام أمر الرجل
 وملاكه ، ويشهد له قولهم : ثلّ عرش فلان ، اذا أزيل وأخطت
 رتبته . ومنها سرير الملك ، ويشهد له قوله تعالى : ولها عرش
 عظيم » . ويرى المرزوقى — وهو على حق — أن من الواجب
 « حمل الألفاظ حيث جاءت على الأليق بالمعنى مع قرائنه والأقرب
 فى الاستعمال والأشبه فى قضية السمع والعقل » (١) . ويفسر
 بعضهم قوله تعالى « ولقد همت به وهمّ بها » بأنها همت
 بالفاحشة وهمّ هو بالفرار منها ، وهذا تفسير خاطئ كما ترى ،
 ويقول ابن قتيبة : « ولكن الله تعالى يقول : « لولا أن رأى برهان
 ربه » أفترأه أراد الفرار منها فلما رأى البرهان أقام عندها . وليس
 يجوز فى اللغة أن تقول : همت بفلان وهمّ بى وأنت تريد اختلاف
 الهمتين » (٢) . فخيرنى بالله عليك : أى العقلين يحرص على حدود
 المنطق ، أهؤلاء المتكلمون الذين يفرض فيهم الاحتذاء على المنطق
 أم ابن قتيبة ؟ . ان هذا الأمر عجيب يدفعنى الى القول بأنهم كانوا
 يضلّون وهم يعرفون حقيقة ضلالهم . وما أشبههم بمن يأثم
 ويترف الفاحشة وهو عالم بما يرتكبه ، واننى لأعتقد أنه لا يعزب
 عن عقولهم هذا الضلال المبين .

ولقد اتبعوا هذا المنهج فى سلوكهم العملى ، منهج التناقض

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ١٠٠/١ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٨١ .

الذى يجافى روح المناطقة والمنطق . ويقول عنهم ابن قتيبة في « كتاب الأشربة » : « وأما ذمهم شربة المسكر بقلة الوفاء وسوء العهد فأسوأ من ذلك اقدامهم على السكر ، وترك الصلاة ، وركوب الفواحش . وأعجب منه عقدهم على أن كل مسكر خمر محض لعله الاسكار وهم يشربونه ، وعلمهم بأن الله حرم المسكر وهم لا يبيتون الا عليه ، فاذا عوتبوا على شربه مع الاعتقاد أنه خمر قالوا : لأن نشربه ونحن نعلم أنه ذنب نستغفر الله منه أحب إلينا من أن نشربه مستحلين له غير مستغفرين منه » (١) . وابن قتيبة يرد عليهم مبينا خطأ رأيهم ، لائما هؤلاء القوم الذين يستحلون ما يعلمون أن الله حرمه ، ثم ينيون الى الله مستغفرين فيقول : « وانما يغفر الله بالاستغفار للمتقين ويتقبل من المتقين » . ويمضى ابن قتيبة في اظهار فساد رأيهم موضحا أن الذى يرتكب الكبيرة وهو لا يعلم تحريمها « أقرب الى السلامة وأولى من الله بالعفو .. ولا حد عليه من جلد وتعزير (أى تأديب) ورجم » ، بخلاف من يرتكبها وهو يعلم أنها محرمة . وقد روى أن رجلا أقر بالزنا ، فلما هموا باقامة الحد عليه قال : ما علمت أن الله حرم ذلك ، فاستحلف ثم درى عنه الحد . وقد قيل في الحديث : « ادروا الحدود بالشبهات » .

وكان ابن قتيبة فى حيرة من أمر هؤلاء المتكلمين لأنهم يختلفون فيما بينهم ، وقد كان الأولى ألا يختلفوا ، فمحولهم القياس والعقل لا النقل ، وقوانين المنطق واحدة ، فما بالهم أكثر الناس اختلافا ،

(١) كتاب الأشربة ص ٧٣ .

لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين ؟ فأبو الهزبل العلاف يخالف النظام ، والنجار يخالفهما ، وهشام بن الحكم يخالفهم . ولو اختلفوا في الفروع لهان الأمر ، ولكنهم يختلفون في الأصول التي تتصل بالتوحيد وصفات الله وقدرته .

وامض معي في قراءة تفسيرهم العجيب لآي القرآن كما يرويه ابن قتيبة ، قالوا في قوله الله تعالى « واتخذ الله ابراهيم خليلا » أي فقيرا الى رحمته ، وجعلوه من الخلقة (بفتح الخاء) استباحشا من أن يكون الله تعالى خليلا لأحد من خلقه ، واحتجوا بقول زهير :

وان أتاها خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم
أي : ان أتاها فقير . ويرد ابن قتيبة عليهم ردا منطقيا فيقول : « فأية فضيلة في هذا القول لابراهيم صلى الله عليه وسلم ، أما تعلمون أن الناس جميعا فقراء الى الله تعالى ؟ وهل ابراهيم في « خليل الله » الا كما قيل : موسى كليم الله وعيسى روح الله » (١) . وقالوا في قوله تعالى « وقالت اليهود يد الله مغلولة » : ان اليد هنا النعمة لقول العرب : « لى عند فلان يد أى نعمة ومعروف » . ويناقضهم ابن قتيبة فيقول : « وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة لأنه قال : « غلّت أيديهم » معارضة عما قالوه فيها ، ثم قال : « بل يدها مبسوطتان » لأن النعم لا تغل ، ولأن المعروف لا يكنى عنه باليدين كما يكنى عنه باليد ، الا أن يريد

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ .

جنسين من المعروف فيقول : « لى عنده يدان » ونعم الله أكثر من أن يحاط بها » (١) .

وهكذا نراهم يفسرون آيات الله تفسيراً خاطئاً ويؤولونها تأويلاً سيئاً كان له أثر خطير في المعتقدات الإسلامية . وقد أسرفوا في هذا التأويل اسرافاً موقوتاً انحدر بهم الى هاوية الكفر والالحاد ، وكثرت بسبب ذلك الملل والنحل ، وكثر العبث بكتاب الله في غير تورع أو تحرج . ومن هذه الفرق الروافض ، ومنهم جماعة يقال لهم « البيانية » ، وهم ينسبون الى رجل يقال له « بيان » . وقد بلغ من قحة « بيان » هذا أنه قال لأنصاره : « الى أشار الله تعالى اذ قال : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » : ومنهم « المنصورية » أصحاب « أبى منصور الكسف » ، وكان يقول لأصحابه : « فى نزل قوله تعالى : وان يروا كسفا من السماء ساقطاً » . ومنهم « الغراية » وهم الذين ذكروا أن علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب ، فغلط جبريل عليه السلام حيث بعث الى على لشبهه به . وبعض هؤلاء الطوائف يقولون فى قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » انها عائشة رضي الله عنها . وفى قوله : « فقلنا اضربوه ببعضها » انه طلحة والزبير . ويقولون ان الخمر والميسر هما أبو بكر وعمر ، والجبت والطاغوت هما معاوية وعمر بن العاص الى غير ذلك من فاسد المعتقدات وباطل التأويلات (٢) .

(١) المصدر نفسه .

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٨٦ وما بعدها .

ولا شك أن زعماء المتكلمين ما كانوا يرغبون في أن يصل الفساد الى هذا الحد البغيض ، ولكن تقع عليهم تبعة ذلك ، لأنهم فتحوا باب التأويل للقرآن والسنة على مصراعيه . وما أشبههم بأصحاب الرأي الأولين الذين جعلوا للعقل المقام الأول في التشريع ، فجاء من بعدهم وضلّوا سواء السبيل .
ويلاحظ أن ابن قتيبة كان يستعين في رده عليهم بتضلعه في الأدب واستبطانه لأسرار اللغة .

وللمتكلمين رأى غريب فيما يستحقه فاعل الخير من الشكر لا أرى بأسا من أن أثبته هنا : « يقول أحدهم : لا يستحق أحد من أحد شكرا على شيء فعله به أو خير أسداه إليه ؛ لأنه لا يخلو أن يكون فعل ذلك طلبا للثواب من الله تعالى فانما الى نفسه قصد ، أو يكون فعله للمكافأة فانه الى الربح ذهب ، أو يكون فعله للذكر والثناء ففي حظه سعى .. أو فعله رحمة له ورقة وقعت في قلبه فانما سكن بتلك العظيمة وداوى بها من دائه » (١) . وقد قال بهذه النظرية أحد الفلاسفة المعاصرين وهو الفيلسوف الفرنسي « برجسون Bergson » ، وظن بعض الباحثين أن هذه النظرية جديدة طلع بها على الناس « برجسون » وسماها « الغيرية » .
وفحواها أن الانسان لا يعمل الخير حبا في الخير لذاته ، وانما هو يعمل حبا لنفسه ، لأنه — أيّما كانت الثمرة التي يجنيها من فعل الخير — يرغب لنفسه الخير كما ذكر بعض المتكلمين .

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٦١ .

وانى لا أوافقهم على ذلك لأن فاعل الخير يجب أن ينال حقه من الشكر ، لأنه قدم الخير لغيره ، فجلب له النفع والرضا بصرف النظر عما يستغيه من ورائه . ويرد ابن قتيبة عليهم فيقول : « وهذا خلاف قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . ولا شك أن ذلك هو خير ما يمكن أن يكون من قواعد المعاشرة والاجتماع ، وما أجمل قول الرسول الكريم مستعيذا بالله ممن لا يقابل المعروف بالشكر : « أعوذ بالله من معروف لا يشكر » .

مهما يكن من شيء فقد انبرى ابن قتيبة على رأس زعماء أهل السنة يردون على هؤلاء الضالين من المتكلمين ، ويدودون عن حرمة الدين في حرارة وإخلاص . وقد كان يحزنه أن يرى بعض زعماء المعتزلة لا يكثرثون بالدين ، ويسخرون من بعض فرائضه . وكان الجاحظ لا يهتم بتأدية الصلاة مما سنشير إليه في حينه . وكان النظام وأبو الهذيل العلاف لا يرضيان الله في سلوكهما الشخصي . ويروى عن ثمامة بن أشرس أنه رأى قوما يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فوت الصلاة فقال : « انظروا إلى البقر ، انظروا إلى الحمير » ثم قال لرجل من أصحابه : « ما صنع هذا العربي بالناس ؟ » (١) .

من أجل ذلك كله كان ابن قتيبة يرى أهل الكلام في قولهم وعملهم حربا على الدين ، وأنهم كانوا سببا في فشو الجدل ،

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٦٠ .

مما قسم الناس شيئا وفحلا ، وصبح العقيدة الاسلامية بصيغة
 التعقيد ، مع أنها عقيدة سمحة واضحة لا غموض فيها ولا التواء .
 وقد صور ابن قتيبة حال المسلمين آنذاك في مقدمة كتاب
 « الاختلاف في اللفظ والرد على المشبهة والجهمية » فقال :
 « أصبح الناس الا قليلا ممن عصم الله مفتونين ، وفيما يوثقهم
 خاضعين .. وعما كلفهم معرضين ، وان دُعوا ألقوا ، وان وعظوا
 هزأوا ، وان سئلوا تعسفوا .. وصاروا شيئا ، فهم يتنازرون
 بالألقاب ويتسابقون بالكفر ، ويتعاضدون بالبخل ، ويتناصرون
 على الهوى ، وعاد الاسلام غريبا كما بدأ .. الخ » . ثم أخذ
 يقارن بين حال هؤلاء المسلمين وحال السلف الصالح ، وقلبه يتقطر
 أسى وحسرة فيقول : « وكان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم ،
 ويعلم ليعمل ، ويتفقه في دين الله لينتفع » الى أن يقول : « فقد
 صار طالب العلم الآن يسمع ليجمع ، ويجمع ليذكر ، ويحفظ
 ليغالب ويفخر . وكان المتناظرون في الفقه يتناظرون في الجليل من
 الواقع .. فينتفع الله به القائل والسامع ، فقد صار أكثر التناظر
 فيما دق وخفى وفيما لا يقع ، وصار الغرض فيه اخراج لطيفة
 وغوصا على غريبة وردا على مقدم .. الخ » .

وخاتمة القول أن المتكلمين — وبخاصة المعتزلة — كانوا
 سببا في الانقسام بين المسلمين وفي تشعب الآراء . ولكن ذلك
 لا يمنعنا من أن نقرر في صراحة أنهم — كمسلمين — وقفوا موقفا
 محمودا موقفا في الرد على الملحدين والهرين ومن على شاكلتهم
 من أرباب الديانات والعقائد الذين هاجموا الاسلام وأتمروا به .

الفصل الرابع

ابن قتيبة ومشكلة خلق القرآن

وقفنا في الفصل السابق على الخلاف المستحكم الذي كان بين أهل الحديث وبين أهل الكلام ، وعلى الأخص المعتزلة . وبيننا أسباب هذا الخلاف ، وعرفنا بلاء ابن قتيبة زعيم أهل السنة في هذا النزاع . وقد رأينا أن نخص سببا من تلك الأسباب بحديث مستفيض ، وهو « مشكلة خلق القرآن » ، لأنها شغلت أذهان المسلمين زمنا طويلا حتى لقد سموها « محنة » . وقد أودى بسببها كثير من أئمة المسلمين إيذاء شديدا ، مما وضع في صحيفة الخليفة المأمون نقطة حالكة السواد ، لأنه هو الذي حمل العبء الأكبر من هذه المشكلة ورعاها بالقول والعمل ، مستعينا بجأه وسلطانه . ويقول السيوطي عن المأمون : « وله محاسن وسيرة طويلة ، لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن » (١) . ومشكلة خلق القرآن ليست وليدة العصر العباسي ، فقد وجدت بذورها في العهد الأموي ، يقول ابن نباتة : « ان الجعد

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣١١ .

ابن درهم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام ، فأخذه وأرسله
الى خالد القسري أمير العراق وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ،
فبلغ الخبر هشاماً ، فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ،
فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه ، فلما صلى العيد يوم الأضحى
قال في آخر خطبته : « انصرفوا وضجوا يقبل الله منكم ، فاني
أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول : ما كلم الله
موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً
كبيراً . ثم نزل وذبحه » (١) . ويقول ابن نباتة ان الجعد كان
يسكن دمشق ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية
فنسب اليه وقيل له « مروان الجعدي » . ثم يذكر ابن نباتة كذلك
أن الجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق ،
ثم نزل بالكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان .
وهذا يدل على أن القول بخلق القرآن بدعة نبئت في العصر
الأموي ، ولكنها لم تجد التربة التي تنمو فيها وتترعرع . والظاهر
أنها غزت الفكر الإسلامي من أهل الديانات الأخرى ؛ فابن الأثير
يذكر أن أحمد بن أبي دؤاد الذي كان يقول بخلق القرآن قد أخذ
ذلك عن اليهود ، ويروي هذا الخبر في سلسلة يصل سندها الى
ليبد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ،
وكان يقول بخلق التوراة (٢)

وقد قويت هذه البدعة في العصر العباسي على أيدي المتكلمين

(١) سرح العميون ص ١٨٥

(٢) تاريخ ابن الأثير ٢٦٧

وجهروا بها في زمن المأمون ، ووجدوا منه عضدا قويا حتى انه
 كان يحمل الناس حملا على اعتناقها بحد السيف . ولم يعتنقها
 المعتزلة وحدهم كما يعتقد البعض ، بل قالت بها طوائف كثيرة من
 المتكلمين ، ويقول الامام ابن تيمية : « وهذا القول « آى خلق
 القرآن » لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس ، فان كثيرا
 من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة ، وبشر المرسى
 لم يكن من المعتزلة ، بل فيهم نجارية « أتباع حسين النجار » ،
 وفيهم ضاررية « أتباع ضرار بن عمرو » ، وفيهم مرجئة ومنهم
 بشر المرسى ، ومنهم جهمية محضة كابن أبي دؤاد ^(١) . ويمضى
 ابن تيمية قائلا : « وأما اثبات الصفات له وأنه يرى في الآخرة
 وأنه يتكلم بالقرآن وغيره ، وكلامه غير مخلوق ، فهذا مذهب
 الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين وأهل السنة
 والجماعة من جميع الطوائف » . وقد رد ابن تيمية على القائلين
 بخلق القرآن في كتابه هذا بإفازة ، ولا يتسع المقام لذكر هذا
 الرد ، وهو سننى من أصحاب مذهب الامام أحمد بن حنبل .
 ويظهر من كلام ابن قتيبة أن جماعة من أهل الحديث قد
 وقعوا في هذه الهوة وتصدى لهم سواهم ، وقام بين الفريقين
 خلاف شديد أزعج ابن قتيبة ، وسنعرض لذلك عند بسط رأيه .
 ولقد شتم المأمون عن ساعديه ، وقام ينشر القول بخلق
 القرآن في جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية ، ويبتس بخلق

في غير رحمة . وهذا أمر لا بدع فيه ، فقد كان متعصبا لفارس
مسقط رأس أمه وزوجه ، هديد الميل الى العلوين . وكان تلميذا
ليحيى بن المبارك الزيدى الذي كان يتهم بالاعتزال . ولا شك
أن المأمون قد تأثر بأستاذه الذي وكل اليه أمر تأديبه منذ صباه
في أيام الرشيد .

وكان المأمون شديد الولع بعقد مجالس للكلام في مختلف
البحوث . وقد دعاه ذلك الى أن يضم الى مجلسه كل متكلم
حاذق بصير بمدخل القول ومخارجه ، مثل أبي الهذيل العلاف
وابراهيم بن سيار وثمامة بن أشرس . وكان معجبا بالأخير أشد
اعجاب ، حتى لقد عرض عليه الوزارة مرتين فرفضها ، وهؤلاء
جميعا من كبار مشيخة الاعتزال . وكان من خاصة جلات المأمون
أحمد بن أبي دؤاد الذي كان يعد من دعوى أهل الكلام ، وكان
خطيبا بليغا وشاعرا فصيحاً ، وقد قربه المأمون اليه ، ثم جعله
المعتصم قاضى قضاياه خلفا ليحيى بن أكثم . وكان ابن أبي دؤاد
يقول بخلق القرآن .

وكان المأمون — الى جانب ذلك — متأثرا بما تترجم من
فلسفة اليونان ومنطقهم ، ويقول عنه السيوطى : « وبرع في الفقه
والعربية وأيام الناس ، ولما كبر عتى بالفلسفة وعلوم الأوائل
ومهر فيها ، فجره ذلك الى القول بخلق القرآن » (١) .
كل هذه الأمور مجتمعة خلقت من المأمون شخصا يحب الحرية

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣١٠ .

ويكلف بها كلنا لا حد له . وقد بلغ من حبه للحرية الفكرية أن أباح للمسيحيين حرية المناقشة في أي الدين أفضل : الإسلام أم المسيحية ؟ . وفسح في المجال أمام العلماء في مجلسه ، ليتناقشوا في نظريات كان البحث ممنوعا فيها ، كعلاقة الإنسان بخالقه ، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وكان يعتقد بالقول بخلق القرآن ، وأخيرا أعلن تأييده لهذا المذهب مخالفا بذلك العقيدة السائدة التي تقول أن القرآن أزلي غير مخلوق .

ومن ذلك نستخلص أن المأمون قد نهج في حياته العقلية نهجا فيه شيء من الشذوذ بالقياس إلى أسلافه الخلفاء .

ويحدثنا المؤرخون عما سمي في مصر « بالبدع المأمونية الأربع » (١) : فالبدعة الأولى هي لبس الخضرة وتقريب العلوية وإبعاد بني العباس . ويذكر أبو الفدا أن المأمون في سنة ٢١٢ : « أظهر القول بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على جميع الصحابة ، وقال هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) . ويقول صاحب تاريخ الخلفاء أن المأمون « في سنة ٢١٢ أظهر القول بخلق القرآن مضافا إلى تفضيل علي بن أبي بكر وعمر ، فاشمأزت النفوس منه ، وكاد البلد يفتن ، ولم يلتئم له من ذلك ما أراد فكف عنه سنة ٢١٨ » (٣) . ويقول قبيل ذلك أنه « أي المأمون » أمر بأن ينادى : « برئت الذمة ممن

(١) عصر المأمون ٢٩٢/١ .

(٢) تاريخ أبي الفدا ٢١/٢ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢١٣ .

ذكر معاوية بخير ، وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب . وقد ثار عليه بنو رجمه ، وتزلزل تحتة كرسي الخلافة لولا ارتجاعه .

والبدعة الثانية القول بخلق القرآن . والبدعة الثالثة ما كتبه إلى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالتكبير إذا صلوا الجمعة وبعد الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون سنة ٢١٥ زواج المتعة فقال الناس : هذه بدعة رابعة . ولم يعدل عن اباحة المتعة إلا بعد أن أقام عليه الحجة القاضى يحيى بن أكثم ^(١) . فقد بين له أن زوجة المتعة ليست زوجة وليست ملك يمين ، ولذلك لا ترث ولا تحب نفقتها ولا يتنسب الولد منها كما هو الشأن في الزوجة الشرعية ، والله تعالى يقول : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . وعلى ذلك يكون زواج المتعة زنا ، وعامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة والرافضة .

وهكذا كان المأمون منقليا في آرائه وشعوره ، سواء في ذلك المسائل السياسية والمسائل الدينية . ويرجع هذا التقلب — فيما يرى الأستاذ « وليم موير Sie William Muir » — في كتابه « الخلافة » — إلى تفرغه القارسية التي ورثها عن أبيه وأمه ، والبيئة التي ربي فيها من جهة ، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من جوله ، كما كان حاله مع الفضل بن سهل من جهة

(١) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية من ٢١٠ للمرحوم الشيخ

أخرى» (١) . فلا عجب اذا نشأ عن ذلك كله في السنوات الأخيرة من حكم المأمون مزيج من حرية الأفكار والتعصب كان من أقوى العوامل فيما لحق الدولة بعده من ضعف وانحلال .

ولقد أثار المأمون بمسألة خلق القرآن فتنة كبيرة ، جعلت المسلمين يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا . وقد أراد أن يحمل الناس على القول بذلك بحد السيف ، فكتب وهو في مصيفه بالركة الى نائبه على بغداد اسحاق بن ابراهيم الخراعى (ابن عم طاهر بن الحسين) كتابا يأمره بامتحان العلماء يقول فيه : « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من خشوة الرعية وسفلة العامة .. أهل جهالة بالله وعنى عنه وضلالة عن حقيقة دينه .. الخ » (٢) . وفي هذا الكتاب يحمل المأمون حملة شعواء على أهل السنة والجماعة ، لأنهم لا يؤمنون بمقالته ، ويأمر نائبه بأن يجمع من حضرته من القضاة ، وقرأ عليهم كتابه ، ويرى رأيهم فيه ، وأن يكتب اليه بعد ذلك عن امتنع ، ويقول المأمون مهددا : « وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبقينه .. وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » . وهناك رسالة معروفة باسم « رسالة الحيدة » تشير الى المناظرة التي جرت بين عبد العزيز بن يحيى المكي وبين بشر ابن غياث المريسي بحضرة المأمون في مسألة خلق القرآن ، وفيها

(١) The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, P. 509 .

(٢) اقرأ هذا الكتاب في تاريخ الخلفاء ص ٣١٣ .

يقول عمرو بن مسعدة كاتب المأمون لعبد العزيز بن يحيى قبيل المناظرة : « أيها الرجل قد حملت نفسك على أمر عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهاها ، وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ولا لأحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف . فانظر لنفسك وبادر أمرك قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة فلا تنفع الندامة ، ولا يتقبل منك معذرة ولا تقام لك عثرة » (١) . وقد أمر المأمون بأن يكتب الى الآفاق بذلك مع التهديد والايعاد ، وقد أجاب بعض العلماء تقية لا ايمانا بالرأى ، فكان يحيى بن معين وغيره يقولون : « أجبننا خوفا من السيف » (٢) . وامتنع كثير من الأئمة فأشخصوا الى المأمون ، وعلى رأسهم أحمد ابن حنبل وبشر بن الوليد الكندي وأبو حسان الزياتي وغيرهم (٣) ، فأهذوا في سبيل ذلك ايداء شديدا ، وأمر الامام ابن حنبل معروف ، فقد أبى عليه ايمانه وشمسه أن يتبع التقية ، فجهر بمخالفة هذا الرأي « واحتج على أن الله يرى ، وأن القرآن غير مخلوق بالحجج العقلية والسمعية » (٤) ، فلاقى من صروب التعذيب ما تقشعر منه الأيدان (٥) . وقد أمر الخليفة المعتصم بضربه سنة ٢٢٠ حتى تقرحت رجلاه ، ثم حبسه ، ويقال انه مات في الحبس ، ولم يسمع

-
- (١) امراء البيان ٢٠٦/١ .
 - (٢) تاريخ الخلفاء ص ٣١٥ .
 - (٣) المصدر نفسه .
 - (٤) تفسير سورة الاخلاص ص ٩٧ .
 - (٥) انظر وفيات الاعيان ١٧/١ .

أشهر من جنازته ؛ فقد حضرها ستمائة ألف رجل وستون ألف سيدة (١) . وقد وضع الأستاذ « و . م . باتون W. M. Patton » رسالة قيمة عنوانها « أحمد بن حنبل والمحنة » (٢) Ahmed B. Hanbal and The Mihna يتن فيها بأسهاب موقف الإمام ابن حنبل من هذه المحنة وما لاقاه في سبيل عقيدته من قسوة واضطهاد . أفرايت كيف أودى هذا العالم الحليل بسبب تلك المشكلة التي سماها الناس « محنة » ، وهو الذي يقول الامام الشافعي في حقه : « خرجت من بغداد وما خلفت أهلي ولا أقمه من ابن حنبل » (٣) . ويقول فيه أبو ثور : « لو أن رجلا قال ان أحمد ابن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك ؛ وذلك أنه لو قصد رجل خراسان ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح . وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح . وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح . ولو عنف هذا على قوله بطل الاجماع » (٤) .

وقد أرسل ابن حنبل رسالة الى المتوكل يقول فيها : « لا أحب الكلام في شيء من ذلك الا ما كان في كتاب الله أو في حديث عن

(١) الفهرست ص ٢٢٩ ، وأقرأ تاريخ ابن حنبل مفصلا في

كتاب « أحمد بن حنبل » للشيخ محمد ابى زهرة .

(٢) ترجم هذا الكتاب اخيرا الى اللغة العربية .

(٣) وفیات الاعيان ١٧/١ .

(٤) مناقب الامام احمد لابن الجوزى ص ١٢٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة والتابعين وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود» (١) !

وقد تقوى مركز المعتزلة خاصة والمتكلمين عامة حين اعتنق الخلفاء مذهب الاعتزال وآزروا فكرة خلق القرآن بأيديهم وسلطانهم كما عرفنا في زمن المأمون والمعتصم . وقد حذا الوثائق حذو أبيه وعمه ، ويقول المسمودي : « وسلك الوثائق في المذهب » يعني الاعتزال « مذهب أبيه وعمه من القول بالعمل أي الاعتزال » (٢) . فلما جاء المتوكل انصرف عن المعتزلة فانصرفوا عنه ، وكاد لهم وكادوا له .

وكان المعتزلة ينتهزون فرصة قوتهم ليقوموا بأغداثهم من أهل السنة . وبلغ من غلوهم في نشر رأيهم وتعصبهم لبديعتهم أنه لما حدثت مقاداة بين الأسرى المسلمين والأسرى الروم في زمن الوثائق سنة ٢٣١ أرسل أحمد بن أبي دؤاد رسولا من قبله يمتحن الأسرى في ميولهم الدينية ، حتى لا يتطدى منهم من لا يقول بخلق القرآن (٣) .

وقد أفكر هذه البدعة سائر المسلمين ، وأيدهم في انكارها فريق منهم مكّن الله لهم في الجنوب الغربي من أوربا ، وهم مسلمو الأندلس . وكان يعاصر المأمون منهم « الحكم بن هشام » ثالث

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ٤٩ .

(٢) مروج الذهب ٢/٢٧٨ .

(٣) الدولة العباسية ص ١٤٥ .

أمراء بنى أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وقد قال شاعرهم أبو خلف
المعافري :

لا والذي رفع السما ٤ بغير عند للنظر
ما قال خلق في القفرا ٥ ن بخلقه الا كفر
لكن كلام من نزل ٦ من عند خلاق البشر (١)

ولقد جرت مشكلة خلق القرآن في أعقابها أمورا بغيضة ما كان
أغني المسلمين عنها . وابن قتيبة يصور ذلك فيقول : « ولقد ألف
الناس قول « غير مخلوق » وأنسوا به ، حتى انه ليخيل الى أن
رجلا لو ادعى أن العرش غير مخلوق وأن الكرسي غير مخلوق .
لوجد لذلك أشياءا ينتحلون السنة » (٢) . وغلوا في ذلك غلوا
أوقعهم في هاوية الزيف والمروق ؛ فقد « ذهب قوم من منتحلي
السنة الى أن الايمان غير مخلوق خوفا من أن يلزمهم أن يقولوا
« لا اله الا الله » مخلوق اذ كانت رأس الايمان » (٣) . وقد شغل
هذا الأمر طائفة من أهل العلم في زمن ابن قتيبة ، فقال بعضهم :
« ان كان المراد بالايمان المدلول عليه باسم « المؤمن » من أسماء
الله الحسنى فهو كباقي صفاته سبحانه قديم غير مخلوق . وان
كان المراد الايمان المقابل للكفر من فعل العبد فمخلوق كبقية أفعال
العباد » . وقال آخرون : « ان في الايمان جهتين : جهة كونه هداية
من الله والهادى كباقي أسماء الله الحسنى ، وجهة كونه كسبا للعبد

(١) نفع الطيب ١/١١٧ .

(٢) الاختلاف في اللفظ ص ٦٨ .

(٣) الاختلاف في اللفظ ص ٦٧ .

فيكون كبقية أكساب العباد . أما رأى ابن قتيبة فهو أن
« الايمان مخلوق لأنه لفظ باللسان وعقد بالقلب واستعمال
للجوارح ، وكل هذه أفعال للعباد ، ثم كل هذه غرائز ركبها الله
في العباد وسماها الرسول صلى الله عليه وسلم ايمانا » (١) . وهو
قريب من الشق الأول من الرأيين السابقين .

وقد ذهب قوم — جريا على هذا النمط — الى أن روح
الانسان غير مخلوقة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في آدم
« فنفخت فيه من روحي » ، ونسوا أن ذلك هو النصرانية بعينها
كما يقول ابن قتيبة ، وهو يستطرد فيقول انه قد أجمع على أن
الله فالق الحب وبارئ النسمة ، أى خالق الروح ، ويستشهد
بقول النابغة الجعدي :

من نطفة قدرها مقدرها يخلق منها الانسان والنسما
والحق أن رد ابن قتيبة ضعيف ، لأن من الجائز أن يكون
المراد « ببارئ النسمة » جاعل الروح في الجسد . ويقول بعضهم
ان الروح مخلوقة منذ أن فطر الله السموات والأرض ، فإذا اكتمل
الجنين بث الخالق القادر فيه الروح . ثم ان بيت النابغة الجعدي
لا ينهض دليلا .

وقد كان ابن قتيبة ممن خالفوا القول بخلق القرآن بطبيعة
الحال . ويذكر بعضهم أن لابن قتيبة كتابا يسمى « الرد على
القائل بخلق القرآن » ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا . بيد

(١) الاختلاف في اللفظ ص ٧٠ .

أنه بسط رأيه في هذه المشكلة في أحد كتبه التي بين أيدينا ، وهو كتاب « الاختلاف في اللفظ والرد على المشبهة والجهمية » .
ويبدو لي أن ابن قتيبة لم يشترك في هذه المحنة اشتراكاً عملياً ، لأنه كان — في العهد الذي نادى فيه المأمون — يخلق القرآن — لا يزال في المهد صبياً . فقد ولد ابن قتيبة ٢١٣ وتوفي المأمون سنة ٢١٨ . وفي زمن المعتصم كان غلاماً رطب العود لا يقوى عقله على أن يشارك في هذه المحنة ، وقد توفي المعتصم سنة ٢٢٧ .
ويمكن أن يقال إن ابن قتيبة ربما شارك فيها في أواخر عهد الواثق الذي توفي سنة ٢٣٢ ، وقد أصبح فتى يافعاً يقدر على أن يأخذ بنصيبه من هذه الأحداث ، ولكن لم يرد له ذكر بين هؤلاء الذين امتحنوا في عقيدتهم فأثر بعضهم التقيّة ، وأصرّ البعض الآخر على القول بأن القرآن غير مخلوق ، مع أن ابن قتيبة أبعد ذكراً وأسسى منزلة بين العلماء من بشر بن الوليد الكندي وأبي حسان الزبائدي وغيرهما من أهل السنة الذين ورد ذكرهم في هذه المحنة .

ويغلب على ظني أنه ألف كتابه في الرد على القائلين بخلق القرآن في زمن المتوكل ، لأن هذا الخليفة خالف سالفه وانصرف عن المعتزلة إلى أهل السنة . أضف إلى ذلك أنه كان على صلة بنوزيره أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان .
وكان ابن قتيبة جزءاً متألماً لما آلت إليه حال المسلمين بسبب هذه المشكلة ، فقد أجزت عليهم الأحقاد ، وبشت بينهم الفرقة ، ففجّر بعضهم البعض ، وأكفر بعض الآخر . وقد عز عليه أن يدب

الخلاف بين أهل السنة أنفسهم بسبب هذه المسألة التي أوجدها في الأصل أهل الكلام . وهو يرى أن الأمر هين لا يدعو إلى هذا الخلاف لأن لكل وجهة هو موليها . ولعل من أهم الأسباب التي حدثت به إلى تأليف كتابه « الاختلاف في اللفظ » محاولة التوفيق بين الفريقين المختلفين من أهل السنة . ومنه نستطيع أن نقف على رأيه في مسألة خلق القرآن :

يقول ابن قتيبة : « ثم انتهى بنا القول إلى ذكر غرضنا من هذا الكتاب من اختلاف أهل الحديث في اللفظ بالقرآن وتشانئهم واكفار بعضهم بعضا . وليس ما اختلفوا فيه مما يقطع الألفة ، ولا مما يوجب الوحشة » (١) . وهو يرى أن سر اختلافهم ناجم من أنهم « لم يكن معهم آلة التمييز ولا فحص النظارين ولا علم أهل اللغة » (٢) . ومضى ابن قتيبة فقال بعد ذلك : « إن القراءة قد تكون قرآنا لأن السامع يسمع القراءة ، وسامع القراءة سامع القرآن ، وقال الله عز وجل : « فاستمعوا له » ، وقال : « حتى يسمع كلام الله » . والعرب تسمى القراءة قرآنا ، قال الشاعر في عثمان بن عفان رضى الله عنه :

ضحوا بأشمت عنوان السجود به

يقطع الليسل تسيحا وقرآنا

أي « تسيحا وقراءة » . وقال أبو عبيد : « يقال قرأت قراءة وقرآنا بمعنى واحد » ، فجعلها مصدرين لقرأت ، وقال الله تعالى

(١) الاختلاف في اللفظ ص ٥٠ .

(٢) الاختلاف في اللفظ ص ٥١ .

« وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا » أى قراءة الفجر .
 فيعتقد واحد من هذه الجهات أن القراءة هى القرآن غير مخلوق ،
 ويفكر آخر فى القراءة فيجدها عملا » . ويبحث ابن قتيبة عن وجه
 للتوفيق بين الفريقين يوحى به التخريج اللغوى السابق فيقول :
 « وعدل القول فيما اختلفوا من القراءة واللفظ بالقرآن أن القراءة
 لفظ واحد يشتمل على معنيين : أحدهما عمل والآخر قرآن ،
 إلا أن العمل لا يتميز من القرآن كما يتميز الأكل من المأكول ،
 فيكون المأكول المنضوغ والمبلوع ، ويكون الأكل المضغ
 والبلع . والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه
 وحده ، وإنما يقوم بواحدة من أربع « كتابة أو قراءة أو حفظ
 أو استماع » . ثم أراد أن يوضح ذلك فقال : « فهو (أى القرآن)
 بالعمل فى الكتابة قائم ، والعمل خط وهو مخلوق ، والمكتوب
 قرآن وهو غير مخلوق . وهو بالعمل فى القراءة قائم ، والعمل
 تحريك اللسان واللهوات بالقرآن وهو مخلوق ، والمقروء قرآن
 وهو غير مخلوق . وهو يحفظ القلب قائم فى القلب ، والحفظ
 عمل وهو مخلوق ، والمحفوظ قرآن وهو غير مخلوق . وهو
 بالاستماع قائم فى السمع ، والاستماع عمل وهو مخلوق ،
 والمسموع قرآن غير مخلوق » (١) . وأراد أن يقرب ذلك الى
 الأفهام فقال : « مثل لون الانسان لا يقوم الا بجسمه ، ولا تقدر
 أن تنقر اللون فى وهمك حتى يكون متميزا من الجسم . وكذلك

(١) انظر الاختلاف فى اللفظ ص ٦٣ وما بعدها .

القدرة لا تقدر أن تفردا عن الجسم . وكذلك الاستطاعة والحركة ؛ كل واحدة منهما لا تفرد ، وإنما تقوم بالجسم والجارية ولا تنفرد عنهما . كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع التي ذكرناها ، ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفردا عنها ، فإذا قلت : قرأت أو تلوت أو لفظت ، دل قولك على فعل وقرآن ؛ كل واحد منهما قائم بالآخر غير متميز منه .. فإن قال قائل : ما تقول في القراءة ؟ قلت : قرآن متصل بعمل ، فإن قال : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ قلت : سألت عن كلمة واحدة تحتها معنيان : أحدهما مخلوق وهو العمل ، والآخر غير مخلوق وهو القرآن . وشبه ذلك « برجلين نظرا الى جمة فقال أحدهما : هي جسم ، وقال الآخر : هي نار ، فهما صادقان ، لأن كلا منهما ذكر شيئا ذا معنيين بأحد معنيه » .

وبذلك استطاع ابن قتيبة أن يقف من هذه المشكلة موقفا وسطا بين فيه أنه لا خلاف بين أهل السنة في هذه المشكلة التي شغلت المسلمين حقبة طويلة امتلأت بالاضطهاد والتصدي . وأنا أرى أن ابن قتيبة قد وفق في ذلك أيما توفيق ، وساعده على ذلك المامه الواسع بالفاظ اللغة ووقوفه على أسرارها . وهنا أرى لزاما على أن أذكر أن الرواة ذكروا أن الامام « البخاري » قد ابتلى كذلك بهذه الفتنة ، وكان ممن يتوسط فيها (١) . وأنا لا أستطيع أن أقرر بطريق الجزم أي الرجلين أخذ

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٤٧/٩
وشذرات الذهب ١٣٤/٢ .

من الآخر ، لأن الاثنين كانا متعاصرين ، فقد مات البخاري
سنة ٢٥٦ ، ومات ابن قتيبة بعده بعشرين عاما ، وكانا تلميذين
لإسحاق بن راهويه في وقت واحد .
وعلى أية حال فقد فصل ابن قتيبة الرأي ووضّحه بالأمثلة
الكثيرة التي تعتمد على الثقافة اللغوية .

الفصل الخامس

مذهب ابن قتيبة

في الواقع لا نستطيع أن نجزم برأى في مذهبه الفقهي .
ويبدو لي أنه لم يكن مجتهدا ، له مذهب خاص في الفقه كأغلب
علماء عصره . ومن المحقق أنه لم يكن شافعيًا ولا مالكيًا ولا حنفيًا ؛
إذ لم يذكره السبكي في طبقات الشافعية ، ولم يرد له ذكر في
« الديباج المذهب » لابن فرحون بين المالكية كما ذكر ابنه القاضي
أبا جعفر أحمد ، مع أن ابن حجر العسقلاني يذكر أن بعضهم
يقول : « انه يذهب الى مذهب مالك » (١) . وخلا كذلك كتاب
« طبقات الحنفية » للكنوي من اسمه ، ولم يذكره صاحب
« الجواهر المضية في طبقات الحنفية » .

ولكن الذي لا شك فيه أنه كان يميل الى أحمد بن حنبل ،
ويذهب مذهبه في الأخذ بالحديث ، وبذلك تكون نسبته الى أحمد
كنسبة البخاري الى الشافعي . ويقول الامام ابن تيمية : « وابن قتيبة
من المنتسبين الى أحمد واسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة

(١) لسان الميزان ٣/٣٥٧ .

المشهورة » (١) . وبمثل ذلك يقول صاحب كتاب « التحديث بمناب أهل الحديث » كما يقول العلماء . وينكر الدكتور اسحاق موسى الحسيني في رسالته أثر ابن حنبل في ابن قتيبة ، ويرى أن ذلك الأثر يرجع الى ابن راهويه وحده ، ويعمل ذلك بأنه لم يجهر بمخالفة القائلين يخلق القرآن كما فعل ابن حنبل ، وانما اتبع مذهب التقية الذي اعتنقه ابن راهويه عملا بتعاليم الدين التي توجب طاعة الامام على أية حال (٢) . وهذا التعليل لا يلقي مني قبولا ، لأن ابن قتيبة لم يرد له ذكر ابان اشتداد هذه المحنة في زمن مؤيديها من الخلفاء ، لأنه كان غلاما حدثا وقتذاك . هذا الى أن الذين اتبعوا التقية لم يلجئوا اليها الا نجاة بأنفسهم ، لا عملا بتعاليم الدين . لأن ابن راهويه وابن قتيبة يعلمان حق العلم أن الرسول يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، ويعرفان كذلك قول أبي بكر : أطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » . فالدين اذن لا يوجب طاعة ولي الأمر الضال . ثم انه ليس من الحتم أن يتبع التلميذ أستاذه في كل ميوله وصفاته ؛ فقد يكون الأستاذ شجاعا جريء القلب ويكون التلميذ على تقيضه ، ويمكن أن يقال عكس ذلك . على أن ابن راهويه نفسه كان من جلة أصحاب ابن حنبل كما يقول ابن النديم (٣) . وكل ما نقوله هو أن ابن قتيبة تأثر بابن حنبل كرجل حديث .

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

(٢) انظر رسالة الدكتور الحسيني ص ٨٦ .

(٣) الفهرست ص ٢٣٠ .

ونحن اذا نظرنا الى الامام ابن حنبل وجدنا أنه رجل حديث لا رجل فقه ، فالطبرى لم يعتبر مذهبه بين مذاهب الفقهاء . وذكره المقدسى فى المحدثين لا فى الفقهاء . واقتصر ابن عبد البر فى كتابه « الاقتضاء » على الأئمة الثلاثة : أبى حنيفة ومالك والشافعى ، ويفهم ذلك من عنوان الكتاب نفسه . وابن قتيبة نفسه لم يذكره فى كتاب « المعارف » بين الفقهاء . وعده بعضهم من أرباب المذاهب ، وبخاصة المتأخرين . والحق أن فقه ابن حنبل يخرج الى الحديث ، فاذا وجد حديثا صحيحا اعتد به ولم يلتفت الى غيره ، واذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها ، ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوى ، ويكره التقوى فى مسألة ليس فيها أثر . ولم يترك ابن حنبل كتابا فى الفقه على نمط خاص . وكل ما روى له فى الفقه مسائل سئل عنها فأفتى فيها . فهو فى الواقع ذو أثر فى الحديث أبقى منه فى الفقه . وكان ابن قتيبة أشد اتصالا وأكثر تأثرا بابن راهويه من ابن حنبل . وعلى ذلك نستطيع أن نقول ان ابن قتيبة كان من أهل السنة الذين يعتدون كثيرا بالحديث ، كما كان يفعل أستاذه أحمد بن حنبل . وكان ابن قتيبة من أعلم الناس بالفقه والحديث . وابن تيمية يقول فى معرض الرد على ابن الأنبارى : « وليس ابن الأنبارى بأعلم بمعانى القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه فى ذلك ، وان كان ابن الأنبارى من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة » (١) .

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٩٥ .

والظاهر أن ابن قتيبة كان يعتقد « بالاجماع » ، وربما كان يؤثره أحيانا على الحديث لأن الأخير — كما يرى — معرض للتحريف والتصحيح حين ينقله الناقلون (١) . ويذكر ابن قتيبة أن مالك بن أنس كان يروى الحديث ويتبعه بقوله : « والعمل ببلدنا على كذا وكذا » (٢) مما يخالف نص الحديث .

والأمر الذي يدعو الى الغرابة أن الدكتور اسحاق الحسيني يعتبر ابن قتيبة صاحب مدرسة خاصة في الفقه (٣) . وأنا لا أدري من أى شيء تيسر له استنباط ذلك . وكل ما عرف له من آراء فقهية لا يعدو رأيه في أنواع الخمر التي لا تفقد الوعي والتي أحلتها بعض المذاهب ، وكذلك لعب الشطرنج الذي يجمع الفقهاء على إباحته . والرأى عند ابن قتيبة أن كليهما مكروه ، ولذلك ينصح المسلمين الصالحين باتباع قوله عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه : « ان استطعت أن تدع شيئا مما أحل الله لك يكون حاجزا بينك وبين ما حرم عليك فافعل » (٤) . وفي الشطرنج يقول ابن قتيبة : « والذي عندى أنها لعب وفيها ما شغل عن ذكر الله وعن الصلاة فأكرهها من غير أن أبلغ بها حد الميسر في التحريم وحده النرد في التشبيه به » (٥) . وأنا أغزو هذا الى شدة احترازه في الدين بسبب تقواه العميقة .

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٣٣١ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٣٢ .

(٣) انظر رسالة الحسيني ص ٩٥ .

(٤) كتاب الأشربة ص ٦٤ .

(٥) الميسر والقдах ص ٣٧ .

وقد اختلفوا في مذهبه الاعتقادي ، فقال بعضهم انه من المشبهة ، فقد روى الحافظ الذهبي أن الدارقطني قال : « كان ابن قتيبة يميل الى التشبيه ، منحرفا عن العترة ، وكلامه يدل عليه » (١) . ولكن هذا الكلام مردود في ذاته لأن لابن قتيبة مؤلفا في الرد على المشبهة والجهمية ، وربما حدا في ذلك حدو أستاذه ابن حبل الذي يقول عنه ابن النديم انه وضع كتابا في الرد على المشبهة الجهمية (٢) . والقارىء لكتاب ابن قتيبة يدرك في غير خفاء أنه قد شن حملة شعواء على المشبهة ونسبهم الى الافتراء على الله في أحاديث التشبيه (٣) ، ونعى عليهم تفسيرهم لبعض ألفاظ القرآن تفسيراً بغيضاً يوافق مذهبهم ، وفيه تحجريح لعقيدتهم . وقد أبلى بلاء حسنا في الرد عليهم يذكر له بالحمد . وأنت حين تتصفح كتابيه « تأويل مختلف الحديث » و « الاختلاف في اللفظ » تدرك صدق بلائه في هذا الميدان ، وتوقن ببراءته من تهمة التشبيه .

ويقول البيهقي انه كان كراميا (٤) أو يرى رأيهم ، وهم أصحاب « أبي عبد الله محمد بن كرام » الذي كان ممن يثبت الصفات الالهية ، الا أنه ينتهي فيها الى التحسيس والتشبيه على ما ذكره الشهرستاني (٥) . وليس لدينا ما يثبت ذلك .

(١) ميزان الاعتدال ٧٦/٢ . (٢) الفهرست ص ٢٢٩ .

(٣) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٧ وما بعدها .

(٤) انظر بقية الوعاة ص ٢٩١ ولسان الميزان ٣٥٧/٣ والنجوم

الزاهرة ٧٥١/٣ .

(٥) انظر الملل والنحل على هامش ابن حزم ١٤٤/١ .

والذي لا مرية فيه أن ابن قتيبة من أهل السنة ومن زعمائهم ،
وكان لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة . ونحن نستشف من
كتبه أن معتقداته هي معتقدات أهل السنة .

واختلفوا كذلك في توثيقه وتكذيبه أى في كونه صادق الرواية
أو كاذبها ؛ فقد نقل السيوطي والداودي وابن حجر عن الحاكم
« محمد بن عبد الله النيسابوري » قوله : « أجمعت الأمة على أنه
كذاب » . ولكن سائر العلماء أجمعوا على توثيقه كالخطيب
البغدادي وابن تيمية والحافظ الذهبي والسيوطي وابن اللديم
والقفطي والداودي وابن خلكان وابن قاضي شعبة وابن كثير
وابن الأثير وابن الجوزي والموسوي وابن العماد الحنبلي وغيرهم ،
ووضعوه في المكان الأسنى من الصدق والورع ، وردوا على من
جرّحه ، ولا يسع الواحد منهم الا أن يقول : « كان ثقة ديننا
فاضلا صادق الرواية » . ويعلق بعضهم على قول الحاكم الذي
سقتناه ، فيقول الذهبي مثلاً : « ان هذه مجازفة قبيحة وكلام من
لم يخف الله » ، ثم يقول : « وما علمت أحدا اتهم القتيبي في نقله
مع أن الخطيب قد وثقه » ، ويمضى قائلاً : « وما أعلم أن الأمة
أجمعت الا على كذب الدجال ومسيلمة » . ويقول السيوطي في
بغية الوعاة : « كان رأسا في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ،
ثقة ديننا فاضلا » .

وانى أستطيع أن أقول في اطمئنان ان ابن قتيبة كان رجلا
ورعا ، ديننا ، ثقة ، صادق الرواية .

وهناك شبهة ظالمة وجهت اليه كذلك ، وهي اتهامه بالانحراف

عن أهل البيت الكريم . ولكن النظرة الخاطفة لكتبه تدحض هذه التهمة في غير عسر وثبت عكسها ؛ فقد كان ابن قتيبة يميل إلى علي بن أبي طالب وآله — رضى الله عنهم أجمعين — ميلا شديدا . ونحن نستشف ذلك من ثانيا كتبه في كل فرصة مناسبة . فهو لا يذكر عليا الا مقرونا بآيات الاجلال والاكبار ، وأحيانا يقرن اسمه بهذه العبارة التي اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي « صلوات الله عليه » (١) . ولم يصف ابن قتيبة هذه العبارة إلى أحد بعد النبي — فيما أعلم — الا إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ويتضح ميله إلى علي وآله من عنايته الملحوظة بالحديث عن أولادهم وأحفادهم حتى زمنه في افاضة وتفصيل لم يتمتع بهما سائر الخلفاء والصحابة (٢) ، ولا يذكر واحدا منهم في الغالب الا قفاه بهذه العبارة « رحمة الله عليه وعلى آبائه الطاهرين » . ولا يذكر « الحسين » خاصة الا استمطر رضوان الله عليه وصب اللعنات على قاتليه (٣) . وابن قتيبة لا يقف عند هذا الحد ، بل يبحث على حب آل البيت الكريم ، ويرى أن مناصرتهم « خير ما ينفع المرء في يوم المعاد وأجل الآخرة » (٤) . ولعل سر هذا الحب هو بلاء علي كرم الله وجهه في الاسلام وقرابته الوثيقة من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له ، ثم ما لاقاه الطالبيون من ألوان الاضطهاد والظلم ، مما دعا

(١) انظر عيون الأخبار ٣٥/١ ، ٩٩/١ .

(٢) انظر كتاب المعارف ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) انظر المعارف ص ١٥٩ ، ٢٥١ .

(٤) انظر مقدمة الشعر والشعراء .

القلوب الى أن تعطف عليهم وتميل اليهم حتى أيماننا . وقد ألف
« أبو الفرج الأصبهاني » كتابا سماه « مقاتل الطالبين » وصف
فيه ما نزل بهم من ضروب الايذاء والتقتيل ، مما يخلع الأفئدة
ويفتت الأكباد . وابن قتيبة — كائنسان مسلم نبيل — يجزع
من الظلم والبغى ، وبخاصة اذا وقع ذلك على غرة الرسول
صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن ابن قتيبة يغلو في هذا الحب غلوا يفسد عليه دينه
كما يفعل أهل الشيعة . فلم يكن يضيف الى على ما لم يأت به
الدين ، ولم يكن يعطه حقه من شرف المكانة وصدق البلاء بين
الصحابة والمسلمين جميعا . ولذلك نراه يلوم المتطرفين من الجانبين
فيقول : « وقد رأيت هؤلاء أيضا حين رأوا غلوا الرافضة في حب
على وتقديسه على من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصحابته عليه ، وادعاهم له شركة النبي صلى الله عليه وسلم
في نبوته ، وعلم الغيب للأئمة من ولده ، وتلك الأقاويل والأمور
السرية التي جمعت الى الكذب والكفر افراط الجهل والغباوة ،
ورأوا شتمهم خيار السلف وبغضهم وتبرأهم منهم — قابلوا ذلك
أيضا بالغلو في تأخير على كرم الله وجهه وبخسه حقه .. وتسبوه
الى الممالة على قتل عثمان رضى الله عنه ، وأخرجوه يجهلهم من
أئمة الهدى الى جملة أئمة الفتن ، ولم يوجبوا له اسم الخلافة
لاختلاف الناس عليه ، وأوجبوا لميزيد بن معاوية لاجماع الناس
عليه ، واتهموا من ذكره بغير خير . وتجامى كثير من المحدثين أن
يحدثوا بنضائله كرم الله وجهه أو يظهروا ما يجب له ، وجعلوا

ابنه الحسين عليه السلام خارجيا ، شاقا لعصا المسلمين ، حلال
الدم لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من خرج على أمتي وهم
جميع فاقتلوه كائننا من كان » .. وإن ذكرنا قول النبي صلى الله
عليه وسلم : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » و « أنت مني بمنزلة
هارون من موسى » وأشبه هذا التمسوا لتلك الأحاديث المخارج
ليتنقصوه ويخسوه حقه بغضا منهم للرافضة والزاما لعليّ عليه
السلام بسبهم مالا يلزمه . وهذا هو الجهل بعينه ^(١) . ثم بين
ابن قتيبة إثارة للقصد والانصاف فيقول : « والسلامة لك ألا تهلك
بمحبته ولا تهلك ببغضه ، وألا تحتل ضغنا عليه بجنابة غيره .
فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه . واللازم أن تعرف له مكانه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية والأخوة والصبر
والصبر في مجاهدة أعدائه وبذل مهجته في الحروب بين يديه ،
مع مكانه في العلم والدين والبأس والفضل ، من غير أن تتجاوز
به الموضع الذي وضعه به خيار السلف لما تسمعه من كثير من
فضائله ، فهم كانوا أعلم به وبغيره ، ولأن ما أجمعوا عليه هو
البيان الذي لا يشك فيه » ^(٢) .

هذا هو رأي ابن قتيبة في عليّ وآل بيته الكرام . ومنه نعرف
أن ابن قتيبة كان يثبّن لهم أصدق الحب والاعظام من غير أن
ينزل عن عقيدته إلى مهاوى الزيغ والمروق . فمن الظلم الصارخ أن
يتهمه بعض خصومه بأنه كان منحرفا عن العترة الكريمة رضي الله
عنهم أجمعين .

(١) الاختلاف في اللفظ ط ٤٧ . (٢) المصدر نفسه .

الفصل السادس

ابن قتيبة المحدث

لم يكن ابن قتيبة محدثا تحديث البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب الجوامع الذين عثوا بجمع الحديث وسنده وتبويبه ، وانما كان معنيا بناحية أخرى فى الحديث ، تلك هى ناحية الدفاع عنه فى تخريج الأحكام ، وشرح غريبه ، وتأويل مختلفه ، واستبعاد الموضوع منه ، ورد الشبهة عن أهله والذود عنهم . وهذا أمر طبعى لأنه كان زعيم أهل السنة ومن المقدمين فيهم . ويلقبه ابن تيمية « بحجة الأدب المنتصب للدفاع عن أهل الحديث » . فهو فى الحقيقة قد أدى للحديث خدمة من نوع آخر قد لا تقل عن صنيع البخارى وأصحابه . ولا ريب فى أن ذلك كله كان يتطلب منه أحاطة واسعة بالحديث وروايته . وقد رواه عن شيخين مشهورين هما اسحاق بن راهويه وأبو حاتم ، فضلا عن الامام ابن حنبل . وقد حدث عنه ابنه القاضى « أحمد وابن درستويه الفارسى » (١) . وكان ابن قتيبة ورعا ، تقيا ، صادقا فيما يرويه

(١) بغية الوعاة ص ٢٩١ ومראה الخناس ٢/ ١٩١ .

كما بينا . وابن تيمية يضعه في أعلى درجات الصدق والورع ،
ويذكر أن أهل المغرب كانوا يعظمونه ويقولون : « من استجاز
لوقية في ابن قتيبة يسهم بالزندقة » ^(١) ، ويقولون : « كل بيت
ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه » . ويعتبر ابن قتيبة حقا
من كبار المشتغلين بالحديث وتفسيره ، وله كتب في غريب الحديث
ومشكله وتأويل مختلفة . وقد يكون الأدب هو الذي جرت
ابن قتيبة « الأديب » الى أن يشتغل بغريب الحديث ، وقد يكون
العكس هو الصحيح . والمشاهد أن رواة الأدب هم الذين جعلوا
غريب الحديث علما وخصوه بالتدوين . وأول من فعل ذلك منهم
أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ بعد أن ناهز المائة ، فانه
جمع من ألقاظ غريب الحديث كتيبا صغيرا ذا أوراق معدودة ^(٢) ،
ويقال انه عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال : « ان
عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لتحقيق ألا يخرج عنا
الى طلب المعاش » ، وأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر ،
فلزمه ذلك ، ثم جمع النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ كتابا أكبرا
من ذلك شرح فيه وبسط . ثم صنع مثل ذلك عبد الملك بن قريب
الأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ فأجاد ، وفعل ذلك محمد بن المستير
المعروف « بقطرب » المتوفى سنة ٢٠٦ وغيره من أئمة اللغة . وبعد
ذلك جاء أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ ووضع كتابه
الذي قرر به هذا الفن . ويقول ابن الأثير في مقدمة « النهاية »

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ٨٦ .

(٢) الفهرست ص ٢١١ .

بعد أن أشار إلى مؤلفات السابقين لأبي عبيد بن سلام الذين أشرنا إليهم : « واستمرت الحال إلى زمن أبي عبيد القاسم بن سلام وذلك بعد المائتين ، فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار الكثيرة والمعاني اللطيفة والفوائد الحجة ، فصار هو القدوة في هذا الشأن . وقال فيما يروي عنه : « اني جمعت كتابي هذا في أربعين سنة » . ثم جاء عصر أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري رحمه الله فصنف كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار جدا فيه جذو أبي عبيد ، ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد الا ما دعت اليه حاجة من زيادة وشرح بيان ، فجاء كتابه مثل كتاب أبي عبيد أو أكبر منه » . ويذكر ابن الأثير أن ابن قتيبة قال في مقدمة كتابه : « وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما ترك نحو ما ذكر ، فستبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر » (١) . وهذا الكتاب لم يصل إلينا . وقد أشار الأزهرى إلى أنه تصفح هذا الكتاب ضمن كتب ابن قتيبة (٢)

والرواة يذكرون أن كتاب ابن قتيبة كان ضخما عظيما ، وقد قرظه أكثر من واحد . ويذكرون له كتابا آخر اسمه « اصلاح عبط أبي عبيد في غريب الحديث » ، ويظهر أنه استدرك فيه على

(١) انظر مقدمة « النهاية » لابن الأثير ص ٤ .

(٢) تهذيب اللغة ١٥/١ .

أبي عبيد ، وقد يكون هذا الكتاب هو عين سابقه « غريب الحديث » .

والمرجح أن كتاب « غريب الحديث » من بواكير مؤلفاته ، فقد ألفه قبل « تأويل مختلف الحديث » ^(١) وقبل كتاب « الأشربة » ^(٢) وقبل « الشعر والشعراء » ^(٣) وقبل « أدب الكاتب » ^(٤) وقبل « عيون الأخبار » ^(٥) لأنه يشير إليه في تلك الكتب كلها ويحيل عليه .

ومهما يكن من شيء فلا جدال في أن ابن قتيبة يعتبر من كبار رجال الحديث والمشتغلين به . وإن كنهه التي صنفها فيه لتدل على أنه قد وعى منه قدرا ضخما . ومن المحقق أن ولايته لقضاء دينور قد حضرته كذلك إلى رواية الحديث ودراسته ليستعين به في الفصل بين الناس . وكان رجلا متحرزا يخشى الله أشد خشية ، فكان لا يصدر حكما إلا إذا اطمأن إلى أنه يرتكز على دليل مكين من الكتاب أو السنة . ولهذا نراه يشتغل برواية الحديث وتلقيته والتأليف بين متناقضه وتفسير غريبه والدود عن المحدثين بكل ما أوتي من قوة . ولهذا السبب عينه اشتغل بتفسير بعض آيات القرآن ، ووضع كتابا في مشكله وغريبه .

وفي كتاب « تأويل مختلف الحديث » — وهو الكتاب الذي

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٤ .

(٢) الأشربة ص ١٠٩ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٤٤٢ لندن .

(٤) أدب الكاتب ص ٧١ لندن .

(٥) عيون الأخبار ٩/٤ .

بقى لنا من كتبه في الحديث — تتجلى عقليته وسعة أفقه وقوة منطقته في مناقشة أعداء الحديث من أصحاب الرأي والكلام . وهو يتناول آراء معارضية في تودة وروية ، ويفندها ، ويبين لهم أنهم يحتملون الأحاديث مالا ترمى إليه ولا يقصده النبي الكريم ولا يحتمله منطوقها . وهو يؤيد كلامه بالأدلة الثقلية والعقلية ، ويبين مدى خطورة آرائهم على الدين ، لأنهم يحدثون ثغرات ينفذ منها أعداء الدين وضعاف الايمان . وقد أشرنا في فصول سابقة الى محاولاته الرشيدة في رد المآخذ عن أهل الحديث ، ولهذا اعتبروه زعيمهم والمنافح الأكبر عنهم .

وهذا الكتاب وضعه ابن قتيبة ليوفق بين الأحاديث التي يدعى فيها التناقض والاختلاف . ولا يتسع المقام هنا لأن أورد جميع محاولاته تلك ، وحسبى أن أسوق لك بعض الأمثلة منها :

« قالوا حديثان متناقضان : رويتم عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا انقطع شسع نعل أحدكم فلا يمش في نعل واحدة » . ورويتم عن مندل عن الليث عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ربما انقطع شسع نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى في النعل الواحدة حتى يصلح الأخرى » ، قالوا : « وهذا خلاف ذاك » (١) .

وينبرى ابن قتيبة للتوفيق بين الحديثين فيقول : « قال

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٩٠٨ .

أبو محمد ونحن نقول : ليس هاهنا خلاف بحمد الله تعالى لأن الرجل كان ينقطع شسع نعله فيبندھا أو يعلقھا بيده ويمشى في نعل واحدة الى أن يجد شسعا ، وهذا يفحش ويقبح في النعلين والخفين وكل زوجين من اللباس يستعمل في اثنين فيستعمل في واحد ويترك الآخر ، وكذلك الرءاء يلقي على أحد المنكبين ويترك الآخر . فأما أن ينقطع شسع الرجل فيمشى خطوة أو خطوتين أو ثلاثا الى أن يصلح الآخر فان هذا ليس بمنكر ولا قبيح » . ثم يقول بعد ذلك : « وحكم القليل يخالف حكم الكثير في كثير من المواضع . ألا ترى أنه يجوز للمصلى أن يمشى خطوة وخطوتين وخطوات وهو راکع الى الصف الذي بين يديه ، ولا يجوز له أن يمشى وهو راکع مائة ذراع .. ولا يجوز له أن يعمل عملا يتناول . ويتسم . فلا تنقطع صلاته ويقهقه فتقطع » . ولعلك توافقني على أن ابن قتيبة قد وفق في هذا التأويل أيما توفيق .

وهاك مثلاً آخر : « قالوا : حديثان متناقضان ، قالوا : رويتم عن عائشة أنها قالت : ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً قط » . ثم رويتم عن حذيفة أنه بال قائماً ، وهذا خلاف ذاك » (١) . ويرد ابن قتيبة عليهم قائلاً : « ونحن نقول ليس هاهنا بحمد الله اختلاف ، ولم يبل قائماً قط في منزله والموضع الذي كانت تحضره فيه عائشة رضي الله تعالى عنها ، وبال قائماً في المواضع التي لا يمكن أن يطمئن فيها اما للثقل في الأرض أو طين أو قدر .

(١) تلويل مختلف الحديث ص ١١٠ .

وكذلك الموضع الذي رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم
حذيفة يقول قائما كان مزبلة لقوم فلم يمكنه القعود فيه
ولا الطمأنينة . وحكم الضرورة خلاف حكم الاختيار » وهذا
تأويل سليم يطمئن العقل اليه .

وابن قتيبة — على شدة تعصبه للحديث وأهله — كان
يرفض الأحاديث التي يعجل عنها مقام النبي الكريم أو التي تنجح
إلى الخرافات أو تزيد في شكوك المرتابين ، مثل : « من قرأ
سورة كذا وكذا أسكن من الجنة سبعين ألف قصر ، في كل قصر
سبعون ألف مقصورة ، في كل مقصورة سبعون ألف مهادر الخ .
ومثل قولهم إن الفأرة يهودية وانها لا تشرب ألبان الابل ، كما أن
اليهود لا تشربها (١) . ومثل الحديث الذي قيل عن « عوج
ابن عنق » وضخامة جسمه ، وتصوير هذه الضخامة تصويراً
لا يصدق العقل . ومثل أحاديث عرق الخيل ، وعبادة الملائكة ،
وقصص الذهب الذي يحمل على جمل أو روق (٢) . وغير ذلك من
الأحاديث الكاذبة التي أضيفت إلى النبي كذبا ومينا ، وأنت وابد
الكثير منها في كتاب « تأويل مختلف الحديث » وكلها تحمل في
طياتها دلائل اختلاقها .

وقد اتهم الدكتور اسحاق الحسي بآته كان لا يفرق بين
الأحاديث الموضوعة والأحاديث الصحيحة ، وأن جملهم كان
موجها إلى التوفيق بين الأحاديث المتناقضة والبحث عن الأحاديث

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٩ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٥٤ .

التي يؤيد بها آراءه . وهذا كلام بعيد عن الصواب ؛ فقد رفض ابن قتيبة كثيرا من الأحاديث ، وبين أوجه رفضها ، وعرض لأسباب وضع الأحاديث . وهو في نظري أول من تعرض لتعليل اختلاق الأحاديث . وهذا دليل كبير على أنه يعترف بوجود أحاديث موضوعة . وقد بذل قصاره في التوفيق بين الأحاديث التي يبدو بينها الاختلاف ، ووفق في ذلك كثيرا في كتاب « تأويل مختلف الحديث » .

وكل ما آخذه عليه أنه كان في بعض الأحيان النادرة لا يرد بعض الأحاديث غير المعقولة المنسوبة الى الصحابة ، مستبعدا أن يعتمدوا على الرسول الكذب . وكان في استطاعته أن يرجع تلك الأحاديث الى الاختلاق . وربما كان هذا هو السبب في أن الحاكم اتهمه بالكذب ، وقال مثل ذلك من بعده ابن حجر . والواقع أن الذي جر عليه هذه التهمة هو تحريزه — لشدة تقواه — من اتهام الصحابة بالكذب . ومن ذلك بعض الأحاديث التي ذكرها في « كتاب العرب » بدعم بها قوله في تفضيل العرب . ولكنه على العموم رجل صادق متحيز ، وقد شهد له بذلك سواد المؤرخين كما أسلفنا . ولعل الدكتور الحسيني رماه بهذه التهمة لأنه رآه باخعا نفسه وباذلا جهده في التوفيق بين الأحاديث التي يبدو فيها التناقض ، مع أنه — في الواقع — لم يكن متعسفا في التأويل ولا محملا الألفاظ مالا تطيق .

ولقد أرجع ابن قتيبة وجود الأحاديث المختلفة الى أربعة مصادر :

١ — الزنادقة الذين يدسون الأحاديث المردولة عمداً ليشوهوا قول النبي الكريم .

٢ — القصّاص ، فانهم كانوا يجتذبون العوام اليهم بذكر الغريب والأكاذيب من الحديث « ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه خارجاً عن فطر العقول » (١) .

٣ — الخرافات التي كانت أخباراً متقدمة يرويها الناس في الجاهلية ، كقولهم ان الضب كان يهودياً عاقاً فمسخه الله تعالى ضباً ، ولذلك قال الناس : « أعق من ضب » (٢) . وكقولهم في الهدهد ان أمه ماتت فدفنها في رأسه ، فلذلك أتت ريجته (٣) . وغير ذلك من الخرافات الغريبة التي أورد ابن قتيبة كثيراً منها في كتابه .

٤ — أعداء أهل الحديث ، وقد دسوا أحاديث مختلقة ليحطوا من قدرهم وليصوروهم أمام الناس بأنهم ذوو عقول تافهة لا يجوز لأحد أن يأخذ بشرعتهم أو يؤمن بأرائهم . ويرى ابن قتيبة كذلك أنه كان من أخطر الناس على الحديث هؤلاء الذين لا يحسنون التحديث ولا يفقهون ما يقولون ، فيصحقون ويخطئون ، ويضيفون — بسبب جهلهم — الى الرسول الكريم أحاديث على هذا الوجه تبرأ منها الشريعة الغراء . وقد ذكر ابن قتيبة أمثلة كثيرة تنبىء عن جهلهم الفاضح . ويصف

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٣٥٨ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٢ .

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٣ .

هؤلاء المتعالمين بالحديث بأن الناس كانت تقبل عليهم وتأخذ عنهم « وكلما كان المحدث أموق « أى أحمق وغيا » كان عندهم أنفق ، وإذا كان كثير اللحن والتصحيح كانوا به أوثق ، وإذا ساء خلقه وكثر غضبه واشتد حدة وعسرة في الحديث تهافتوا عليه « (١) . وكانوا يعمدون الى المظاهر الشاذة ، ويأتون أفعالا غير مألوفة ليدخلوا في روع الناس هيبتهم والثقة بهم ، ومنهم رجل يسمى « الأعمش » كان يقلب القرو ويلبسه ويطرح على عاتقه منديل الخوان ، وقد سأله رجل عن اسناد حديث فأخذ يحلقه وأسنده الى الحائط وقال : هذا اسناده « ، ويقول فيه ابن قتيبة : « ان الأعمش هذا كان يأتي حماقات كثيرة لا نحسبه كان يظهرها إلا لينفق بها عندهم » .

ذلك كان صنيع هؤلاء الجهلة وبش ما كانوا يصنعون . فأين هم من كرام الصحابة الذين كانوا يتجزون من رواية الحديث ويتوقون الاكثار منها خشية أن يدخلها الشوب والتحريف ، لأن المكثر — وان جاء بالصحيح — قد لا يسلم من الزيادة أو النقصان في الرواية ؟ أفما كان الأولى بهؤلاء الأفاكين أن يعوا قول النبي الكريم : « من تعد على كذبا فليتبوا مقعده من النار » ؟ وأما سمعوا أن أجلة الصحابة كانوا يخرجون من التوسع في الرواية كالزبير بن العوام وأبى عبيدة بن الجراح والعباس ابن عبد المطلب ؟ وأما علموا أن بعضهم لا يكاد يروى شيئا ،

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٣ .

كسعيد بن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ؟ (١) ثم
أما عرفوا أن أبا حنيفة لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً ، وأن
مالكا — وهو من زعماء أهل الحديث — لم يصح عنده إلا ثلثمائة
حديث ؟ (٢) ألا قبّحهم الله وجعل مثواهم النار وساءت مصيراً .
وبعد : فقد أدركنا الآن أن ابن قتيبة كان واسع العقل ،
وأنه كان محدثاً من لون آخر ، لا يقتصر في الحديث على روايته
كما صنع أصحاب الصحيحين والمسانيد ، ولكنه يتناوله بالتنفيذ
تناول الأديب اللغوي الفقيه المنطقي . وهو بذلك يكون قد أدى
للحديث خدمة جليلة .

والرواة يذكرون أنه قد حدث عنه كثير من العلماء ، وعلى
رأسهم ابنه القاضي « أبو جعفر أحمد بن قتيبة » و « أبو محمد عبد الله
ابن جعفر بن درستويه » . ويقال إن ابنه أحمد حدث بكتب
أبيه كلها بمصر حفظاً ، ولم يكن معه كتاب ، وكان قد رحل إليها
سنة ٣٢١ وولى قضاءها ومات بها سنة ٣٢٢ هـ (٣) . وقد أخذ
العلم عن ابنه حفيده « أبو أحمد عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله
ابن مسلم بن قتيبة » ، وقد ولد في بغداد في حياة جده سنة ٢٧٠
وانتقل إلى مصر مع أبيه ، وروى فيها كتب جده عن أبيه .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢٧٨/١ .

(٢) الانتقاء ص ١٢٨ .

(٣) تاريخ بغداد للبغدادى ٣٢٩/٤ ، وتاريخ ابن كثير ٤٨/١١ ،

وتاريخ مصر وولاتها الكندي ص ٥٤٦ ليدن .

الباب الخامس

أدب ابن قتيبة

الفصل الأول

خصائص أدب ابن قتيبة

وقصد بالأدب العلوم اللسانية وتشمل الشعر والنثر بأنواعه والنقد والنحو واللغة والأخبار والتاريخ والأنساب . تلك هي العلوم التي كان لابد للأديب أن يلم بها الماماً طيباً في العصر العباسي . وكافت علوم التفسير والحديث في ذلك الحين أكثر دخولا في نطاق الأدب منها في نطاق الفقه ، لأنها تعتمد على الدراسات اللغوية التي هي من صميم الأدب .

وقد كان ابن قتيبة خير أنموذج للأديب في ذلك العهد على حلم التعريف الذي يمتاز به ، فقد أصاب من كل علم منها قدرا ضخما جعله مرجعا لطلاب المعرفة والثقافة .

ولقد اتسعت هذه العلوم في ذلك العصر اتساعا جعل العالم يقصر همه على التخصص في علم من تلك العلوم . فترى في هذا العصر نخاة مثل سيبويه وتلميذه الأخفش الأوسط والكسائي والقرء والمبرد وثعلب ، ولغويين مثل الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة وابن الأعرابي ، ورواة للشعر والأخبار كالمفضل الضبي وخلف الأحمر وتلميذه محمد بن سلام الجعفي وحماد الرواية

وتلميذه الهيثم بن عدي وأبي بكر بن عياش ويموت بن المزرع ،
ومؤرخين مثل ابن سعد والبلاذري والمدايني وتلميذه الزبير
ابن بكار والطبري . ونرى من بين هؤلاء من له آراء في النقد .
فاذا عرفنا أن ابن قتيبة لم يقتصر على علم واحد من تلك
العلوم ، بل كان ذا حظ وافر في كل منها ، وإذا عرفنا أنه كان
رجل دين قد استوعب علومه المختلفة من تفسير وحديث وفقه
أيما استيعاب ، وإذا عرفنا أنه قد أضاف إلى هذه العلوم الدينية
واللسانية دراية لا يألئ بها بالعلوم التي استحدثت في عصره ،
وإذا عرفنا كذلك أنه كان ملما بلغة الفرس وتاريخهم وأحوالهم
— أقول إذا عرفنا ذلك كله أدركنا أن هذا الرجل كان موسوعة
علمية تمثل ثقافة ذلك العصر خير تمثيل كما قلنا .

فابن قتيبة عالم أديب قد ألمّ بجميع آلات الأدب وما يتصل
به . ولقد وضع لنا حدا للعالم والأديب لا أرى بأسا من ذكره مرة
أخرى فقال : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن
أراد أن يكون أديبا فليوسع في العلوم » (١) . فمن الحق له علينا
أن نختصه إذن بصفة « الأديب » دون غيره ، لأنه نهل من موارد
جميع العلوم . ثم أراد أن يزيد ذلك تقريرا فقال : « إذا أردت
أن تكون عالما فاطلب فنا واحدا ، وإذا أردت أن تكون أديبا
فتفنن في العلوم » (٢) . وهو في الواقع يقرر معنى كلمة « الأدب »
الواسع الذي كان يفهم منها في ذلك الحين . وقد أدرك العلماء ذلك ؛

(١) المقد الفريد ٢/٨٠ ط لجنة التأليف .

(٢) المقد الفريد ٢/٤٢٣ .

فيقول عنه ابن النديم : « كان ابن قتيبة عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف » (١) .
ويقول عنه ابن الأنباري : « كان فاضلا في اللغة والنحو والشعر متفنا في العلوم » (٢) . ويقول ابن كثير : « هو صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة » (٣) . ويقول مثل ذلك كل من ترجموا له .

ويطلق بعضهم عليه لفظ « النحوى » ولفظ « الكاتب » و « الكاتب العالم » و « الفقيه اللغوى » (٤) . ويصفه الموسوى وضفا جامعا فيقول : « هو الشيخ الامام المتقدم الأديب أبو محمد عبد الله بن مسلم اللغوى النحوى .. الخ » (٥) .
ولم يعرف عن ابن قتيبة أنه نظم شعرا . وقد ذكر له ابن قاضي شهبة في طبقاته ثلاثة الأبيات الآتية في الغزل :

يا من مودته بالعيان . فان غاب كانت مع الغائب
يا من رضى لى من وده . بفعل امرىء قاطع قاض
بأية جرم قد أقصيتى . وألقيت حبلى على غاربى (٦)
وهذه الأبيات لا تحلم روح ابن قتيبة ، اذ ليس من المعقول أن يصدر عن هذا الرجل الجاد المتوقر مثل هذا الشعر . ولو كان

-
- (١) الفهرست ص ٧٧ .
(٢) نزاهة الالباب ص ٢٧٢ .
(٣) البداية والنهاية ٤٨١/١١ .
(٤) الأنساب ص ٤٤٣ وطبقات ابن قاضي شهبة ٥٢/٢ .
(٥) روضات الجنات ص ٤٤٧ .
(٦) طبقات ابن قاضي شهبة ٥٢/٢ .

لابن قتيبة شعر لدوته في مؤلفاته . وقد ذكر في عيون الأخبار
كتاب اعتذار له لا يتجاوز السطرين ثم ذيله بقوله : وحضرني هذا
البيت على ارتجال فوصلت به قولي :

لك الحق ان تعتب علي لأنني

جفوت واما تعفر فلك الفضل (١)

وهذا البيت هو الشعر الوحيد الذي لا يشك في نسبه

الى ابن قتيبة .

والمعروف أن ابن قتيبة تلقى علومه الأدبية في المدرسة
الأصمعية التي كان لأستاذها الأول الفضل الأكبر فيما وصل إلينا
من لغة وشعر وأخبار . ويبدو لي من كتب ابن قتيبة أن الفضل
فيما قدمه لنا من ذخيرة أدبية يرجع الى أستاذه أبي حاتم
السجستاني أحد تلاميذ المدرسة الأصمعية ، وكان هذا الأستاذ
دقيق الفهم لمعاني النصوص واستخراج المعنى من الشعر ، مع
علم واسع باللغة والأعراب (٢) كما يقول أبو الطيب بن علي
اللغوي . وتتصل معظم روايات ابن قتيبة بهذا الأستاذ العظيم .
وكان أبو حاتم سببا في أن يقف تلميذه ابن قتيبة على اتجاه مدرسة
أخرى كانت تعاصر مدرسة الأصمعية في البصرة وهي مدرسة
أبي عبيدة معمر بن المثنى الذي أخذ السجستاني منها أيضا قدرا
طيبا من الحديث واللغة . ولم يتردد ابن قتيبة في أن يأخذ ما يعجبه
من مدرسة الكوفة على الرغم من معارضتها لمدرسة البصرة حين

(١) عيون الأخبار ١٠٢/٢ .

(٢) مراتب النحويين ص ١٣٩ مخطوط .

نرح علماءها الى بغداد ، لأنه كان مولعا بالعلم أيّا كان لونه ومنبعه ، ولهذا نراه يروى للأصمعي كما يروى للقراء والمفضل الضبي .

وقد بقل ذهنه اطلاعه على نتائج القرائح الفارسية في لغته الأصلية وقراءته للمؤلفات الأجنبية التي ترجمت الى العربية حتى زمنه ، وتبلورت في نهضة كل هذه الثقافات المتنوعة التي لم تجتمع لأحد من معاصريه ، فخرج على الناس بهزم الآراء الثورية في النقد الأدبي ، وسنعرض لها بالتفصيل في فصل خاص .

وليس من العجيب أن يكون موقف ابن قتيبة من الأدب مناقضا لموقفه من الفقه والتشريع ، فقد رأينا في الفصول السابقة أنه كان يأخذ نفسه بقيود النصوص القرآنية والسنية ما أمكنه ذلك ، ولاقى في سبيل ذلك عناء شديدا ، ولكنه يرى أن يتحرر النظر في الأدب من كل قيد ، وهذا في رأيي فهم رشيد ، ذلك أنه يخشى على الدين أن تثلم حرمة الحرية الفكرية المطلقة ، ولكنه يرى أن الأدب لا ينهض ولا يرقى الا اذا أطلت مقاييسه الحرية بأوسع معانيها . ولهذا نراه يدرس كل أنواع الشعر مهما تباينت أغراضها ، فلا يمتنع دينه ووقاره من أن يظهر إعجابه بالشعر الخليع في الغزل والخمر اذا وجد فيه فنا قويا آسرا .

ولا شك أن أفكاره الأدبية كانت مسارية للتطور الفكري في هذا العصر الذهبي الذي كان ميدانا للصراع بين المذاهب القديمة والحديثة . ولهذا نرى كتبه معبرة أصدق تعبير عن الاتجاهات الثقافية التي تمخض عنها هذا العصر .

وليس هناك ريب في أن ابن قتيبة قد تناول آراء سابقيه بذوق رفيع وثقافة عالية وعقل مرتب مصقول ، ففندها وأسبغ عليها شخصيته واستخلص منها آراء جريئة كان لها أثر بعيد في النقد الأدبي . ويمكننا أن نقول أن هذه الآراء قد حسبت النزاع بين المدرستين القديمة والحديثة وقضت للأخيرة بالانتصار ، وكانت القنديل الذي أثار الطريق أمام هاد الأدب فيما بعد .
وتمتاز كتب ابن قتيبة الأدبية بالخصائص الآتية :

الخصيصة الأولى : كان ابن قتيبة ذا عقلية منظمة مصقولة ، ولذلك جاءت كتبه وليدة هذا الفكر المنسق . فقد كان التأليف سادجا لا يعنى فيه الا بالاختيار ، فمسألة من هنا ومسألة من هناك واستطراد لا ضابط له ، ومسائل من واد مفرقة في الكتاب ، ومسائل مجتمعة لا يجمعها موضوع . ونلاحظ ذلك كله في البيان والتبيين ، والحيوان ، والكمال . ولكن الأمر يختلف في كتاب عيون الأخبار ، ففيه تشعر بأن كتب المختارات الأدبية قد انتقلت خطوات نحو التوفل والكمال على يد ابن قتيبة ، وذلك لأنه رتب المختارات وبوَّبها وجمع ما تشابه تحت عنوان واحد ، مثل كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب الطعام وكتاب النساء .. الخ . وبذلك يسهل على الباحث أن يجد ضالته في غير عناء . وهو حين يتناول الموضوع يستقصى استقصاء شاملا ؛ فإذا تحدث عن السلطان مثلا يتكلم عن صحبته ، وأدائها ، واتقاء شره ، واختيار عماله وكتابه ويطاؤه وكل ما يتصل به ، موردا في ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم والشعر الرائع والنادرة اللطيفة والفكاهة

البارعة . كل ذلك في سلسلة متماسكة الحلقات ، ولا ينتقل من نقطة الى أخرى من غير أن يرشح لها باستطراد مناسب كأن يقول : وشيئله بهذا قول فلان ، ومن هذا ما قرأت في كتاب للهند ، ونظيره قول أرسطو .. وهكذا نراه لا يستطرد استطراد الجاحظ أو المبرد ، بل يمضى في الموضوع الذي يتناوله قدما حتى يوفيه حقه ، ثم ينتقل الى غيره .

ويرجع هذا التنسيق — فيما أعتقد — الى عدة أسباب :
أولها اشتغاله بالقضاء ، والقضاء يبرأ من الفوضى ولا يقف الا على قواعد قوية من التنظيم والترتيب . وثانيهما المامه باللغة الفارسية ووقوفه على مؤلفات القرس التي كانت — من غير شك — تناج عقول متحضرة تعاقبت عليها أحقاب طويلة . ولهذا السبب نفسه يرجع تنظيم مؤلفات غيره ، فأزعجه ما فيها من خلط وفوضى ، فاحترز من ذلك في كتبه .

وهناك أمر نلاحظه في كتاب « عيون الأخبار » ، فالجاحظ والمبرد في كتابيهما « البيان والتبيين » و « الكامل » — وهما من كتب المختارات — كانا يعنيان عناية خاصة بالنتاج العربي ، وعلى الأخص المبرد . أما ابن قتيبة فانه يوسع اختياره ، فيضيف الى النتاج العربي تناجا فارسيا وهنديا وأقوالا من التوراة والانجيل والزبور . وفي كل ذلك يختار أطايب الأخبار والأقوال وأدناها الى النفوس .

أما سائر كتب ابن قتيبة — وأسميها الكتب الموضوعية — فانها تتناول موضوعا بالذات في الغالب لا تتعداه ، مثل أدب

الكاتب والشعر والشعراء وكتاب المعاني وكتاب المعارف . ويقول الأستاذ « نيكلسون » : « ان كتب ابن قتيبة تعتبر من المؤلفات القيمة المنظمة التي تتناول موضوعا بالذات » (١) .

الخصيصة الثانية : وفي كتب ابن قتيبة ظاهرة بارزة ؛ تلك هي توحيه الايجاز لتسهيل روايتها وليمكن الانتفاع بها على أوسع نطاق . والحاحظ يختلف عنه في هذه الناحية ، ولعل الاستطراد من خصائص التطويل .

وأنت حين تتصفح كتب ابن قتيبة الموضوعية مثل أدب الكاتب والمعارف وغيرهما تحس أنه لا يعنى إلا باللباب دون القشور . انظر اليه يقول في مقدمة أدب الكاتب : « فعلت لمغفل التأدب كتباً خففاً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيتها من التطويل والتشليل » . فكتبه في الواقع مركزة ان صح هذا التعبير . وقد اعتذر عن شدة ايجازه في كتاب « المعارف » فقال في مقدمته : « وكان غرضي في جميع ما اقتضت الإيجاز والتخفيف والقصد والمشهور من الأنباء دون المغمور ، ولما يجرى له سبب على ألسنة الناس دون ما لا يجرى له سبب . ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يعجز عن نسخه فضلاً عن حفظه ، ولاختلط الخفى بالجلي فمجتة الأذان وملته النفوس ، والنفس الى ما تعلم منه سبباً أكثر تطلعاً وأشد استشرافاً ، وهو بها ألصق ولها ألزم » . وفي مقدمة الشعر والشعراء أشار الى أن

كتابه لم يستوعب جميع الشعراء قديما ومحدثين ، ولكنه انتهى
المشهورين منهم دون المغمورين ، والا لطال حبل الكلام الى مدى
بعيد .

وابن قتيبة لا يوجز في نفس المادة فحسب ، ولكنه يوجز في
طريقة سوقها ، لأن الایجاز « تبدو به مقاتل المؤلف » على حد
قوله . ولهذا نراه ينوّه بمزية الایجاز في التأليف في مواطن كثيرة .
هذا صنيع ابن قتيبة في الكتب التي وضعها لتقديم المعارف
للناس . أما الكتب التي يحتاج بها خصومه ، والتي يتبن فيها
أسلوبه الخاص ، مثل كتاب العرب وكتاب الأشربة وكتاب
الاختلاف في اللفظ ، فهي تجنح الى التطويل .

الخصيصة الثالثة : ان كتب ابن قتيبة — في غالب الأمر —
يتعلق بها غرض الافادة ، ولذا تراها كلها تتسم بالحرص على
افادة المتأدين وطلاب المعرفة ، وقل أن تخلو مقدمة من مقدماتها
من الإشارة الى ذلك . وأنت حين تقرأ تلك الكتب تشعر أنها تسد
فراغا كبيرا كان الناس يحسون به في ذلك الزمان ، ولا زلنا نحن
نحس بأنها ترضى حاجتنا في نواح كثيرة . وكل كتاب من كتبه
قد ألفه — في الغالب — لضرورة ألحت عليه . فكتاب أدب
الكاتب مثلا وضعه لأنه رأى الخطأ يتسرب الى ألسنة الناس والى
أيديهم ، ولأنه قد آله أن يرى الناس يزورون عن علوم الدين
والعربية الى العلوم الأجنبية ، فعمل لهم كتبا خفقا في تقويم
اليد واللسان . على أنه قد حثهم على ألا يغفلوا هذه العلوم
الأجنبية وبخاصة المتأدين ومن يشتغلون بوظائف الكتابة حتى

تتم لهم عناصر التأدب ، لأن الجهل بها تجعل المتأدب « ناقصا في
 حال كتابته » ، ولذلك فراه يضع لهم في هذا الكتاب دستورا
 يأخذون أنفسهم به ويسيروا على هديه ؛ فبين ما يجب عليهم أن
 يستوعبوه من ألوان المعارف المختلفة ، وحشهم على ألا يعتمدوا
 على النظر دون الناحية العملية ما أمكنهم ذلك « لأن المخبر ليس
 كالمعائن » . ثم نصحهم بالابتعاد عن غريب القول ومعقده ،
 وأوضح لهم ما يجب أن يعرفه الكاتب من أقدار الرجال المكتوب
 اليهم « فلا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس
 خسيس الكلام » ، وهو يأخذ على الكتاب أنهم لا يلاحظون ذلك .
 ولم يفته أن يستشهد بآيات من التنزيل الحكيم وكلام العرب .
 وبين لهم كذلك أنه يجب أن يبرأ الكتاب من التناقض ؛ فلا يصدر
 بالفاظ الدعاء مثل : « أكرمك الله وأبقاك » ، فإذا توسط كتابه
 وعدد على المكتوب اليه ذنوبا قال : « فلعنك الله وأخرأك » ،
 ويتساءل ابن قتيبة : « كيف يكرمه الله ويلعنه في حال ؟ وكيف
 يجمع بين هذين في كتاب ؟ » . وبين لهم أيضا أن الإيجاز
 لا يستحب دائما ، وكذلك الاطناب ، واستشهد بكتاب الله
 الكريم .. و .. وغير ذلك من النصائح القيمة . وكتاب المعارف
 وضعه لأنه رأى الناس يجهلون أجدادهم الذين ينتسبون اليهم ،
 ولهذا يصطفى الكثير منهم رجلا نابها وينتسبون اليه ، وربما
 لم يكن لهذا الرجل عقب . وهو يشير الى ذلك في مقدمة الكتاب .
 ولذا فراه يورد شذرات تاريخية طريفة كان الناس في ميسيس
 الحاجة اليها . وكتاب عيون الأخبار وضعه ليعطى المتأدب قدرا

طيباً « من المتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك
 وآثار السلف .. ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة
 وسيرة قويمه وأدب كريم وخلق عظيم ، ويصل بها كلامه اذا حاور
 وبلاغته اذا كتب » . وكتاب الميسر والقداح صنفه استجابة لسائل .
 وكتاب الأشربة ألفه لأنه رأى الخلاف قد احتدم بين أمراء الشرع
 في تلك المسألة ، فأراد هو الآخر أن يدلي بدلوه في الدلاء عليه
 يضع حدا لهذا الخلاف . وكتاب الشعر والشعراء ألفه ليبضّر
 الناس بالقسطاس المستقيم حين يفاضلون بين الشعراء حتى يكون
 حكمهم بريئاً من التحيز والهوى .

ولحرصه على افادة الناس نراه يقرر أن لكل مقام مقالا ، وهذا
 المبدأ ليس ببعيد أن يكون قد اشتق منه التعريف العام للبلاغة ،
 ولهذا نراه يثبته الكتاب الى أن يراعوا مستوى الذين يكتبون
 لهم ، وينصحهم باستعمال الكلمات السهلة التي لا يستغصى فهمها
 على أفهام جمهرة الناس ، ولذا قيل « أسير الشعر والكلام المطمع ،
 أي الذي يطمع في مثله من سمعه وهو مكان النجم من يد
 المتناول » (١) .

وهكذا نراه يؤلف كتبه — في الغالب — لغرض افادة الناس ،
 ولغيرته على العربية وعلومها أن يتسرب اليها اللحن والاهمال .
 وليس من العسير أن ندرك سر ذلك ؛ فقد كان ابن قتيبة رجلا
 مسلما عميق الايمان ، يخلص لدينه أشد اخلاص ويحب العرب

(١) مقدمة الشعر والشعراء ص ٥٠ تحقيق الشيخ شاكر .

أصدق حب ، ولذلك فراه يهب نفسه للدفاع عن لغة الاسلام
وعلموها ، وكان وكندة الأكبر أن يرتفع شأن المسلمين ليستووا
أمة عزيزة فاضلة . ومن أجل ذلك كله نرى أن كتبه وحدة لا تتجزأ ،
أعنى أن كلا منها يكمل غيره ، ويظهر لنا هذا من أحواله الى مختلف
كتبه .

الخصيصة الرابعة : من أبرز مؤلفات ابن قتيبة الأدبية أنه يتبع
في بعضها طريقة فذة لم يتبعها أحد قبله ، وهي استنباط حقائق
صادقة عن المجتمع العربي القديم وتصويره في وضوح تام من
الأشعار والأمثال التي أثرت عنهم . وتلك طريقة علمية كان بعضهم
يظن أنها استحدثت في العصر الحديث . وهذه الطريقة ظاهرة جدا
في كتاب الميسر والقداح وفي كتاب الأنواء وفي كتاب المعاني .
وسر ابتكاره لهذه الطريقة الفذة يرجع الى تنوع نشاطه العقلي :
فهو كرجل فقه كان عليه أن يدرس القرآن والحديث دراسة طيبة
حتى يتفهم معانيهما تفهما تاما يصونهما من سوء التأويل والتفسير .
وهو كقاض كان عليه أن يبحث في الآراء المتباينة ويستنبط
ما يطمئن اليه ليصدر الحكم الصحيح ويقضى بين الناس بالقسطاس
المستقيم . وهو كمدرس كان عليه أن يجمع مادة مناسبة طيبة
غزيرة متنوعة في تنسيق وترتيب ويتناولها بالشرح والتعليق
واستخلاص ما تؤدي اليه معانيها من الحقائق الاجتماعية والخلقية .
وهذا هو السر في كون مؤلفاته في نواح مختلفة .

الخصيصة الخامسة : تقوم كتب ابن قتيبة الأدبية — ويشترك
في ذلك بعض كتب القدامى الأدبية — على تربية الملكة العربية

وتحبيب اللغة الى الدارسين والعناية بها ، وترجية أوقات الفراغ
بالمفيد المجدى من لغة العرب وأساليهم وأخبارهم وسموهم
وحكمهم وأمثالهم والمختار من أشعارهم .

ونجب أن نقول ان كتبه كسائر كتب القدماء تخفى فيها
شخصيته الأدبية غالبا . فجلها — كما ترى — تعتمد على ايراد
المعلومات ، وليس للمؤلف فضل الا جمعها وبسطها . وأستاذنا
الدكتور طه حسين يرى ان شخصية الجاحظ القوية تكاد تكون
منعدمة في البيان والتبيين ^(١) ، وقل مثل ذلك في ابن قتيبة والمبرد
وصاحب الأغاني . ولذلك لا نسمى هذه المؤلفات أدبا بمعنى أدب
الفكر وفنه وجماله ، بل بمعنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها ،
فهى كتب ثقافية لغوية ، حتى ما يقرأها أعجمى الا خرج منها عربيا
أو هوى العربية . وأنا أقصد بذلك كتب الجمع والمختارات .

والمتصفح لأحد هذه الكتب القديمة يشعر كأنما يصاحب من
الكتاب أعرابيا فصيحاً يسأله فيجيبه ويستهديه فيرشده ، ومن ثم
جاءت هذه الكتب التى من باب واحد (مثل عيون الأخبار والبيان
والتبيين والكمال والعقد والأمالى) على نسق واحد لا يختلف
في الجملة ، فهى أخبار وأشعار ولغة ، وانما تتفاوت بالزيادة
والنقص والاختصار والتبسيط والتخفيف والتثقل والتنظيم
والفوضى وغير ذلك . وانى لأذكر أنى قرأت للمرحوم الأستاذ

(١) انظر المقدمة التى وضعها الدكتور طه حسين بالفرنسية
لكتاب " نقد النثر وترجمتها المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى "

« مصطفى صادق الرافعي » في أحد كتبه وصفا دقيقا لهذه الكتب القديمة يقول فيه انها كتب جغرافية للغة والفاظها واخبارها ، اذ كانت مثل كتب الجغرافيا ، متطابقة كلها على وصف طبيعة ثابتة لا تتغير معالمها .

وسبب فناء شخصية الأديب في ذلك الحين أن العقول لم تكن بعد قد وصلت الى مدى من التطور تستطيع فيه أن تنتج أبحاثا أدبية تظهر فيها شخصية المؤلف .

ويصور أستاذنا المرحوم أحمد أمين ابن قتيبة من هذه الناحية فيقول : « كان واسع الاطلاع ، يعرف كثيرا ويجمع كثيرا ويؤلف كثيرا . وقد يكون في ذلك قريبا من الجاحظ . وكل ما وصلنا من تأليفه يدل على أنه عالم أديب اتصل بنواح كثيرة من العلم .. ولكنه يفهم من التأليف أنه يجمع ويجمع عن سعة واطلاع من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع » (١) .

وفي رأيي أن ابن قتيبة لم تظهر شخصيته الا في حائتين : الأولى : حين حاول أن يجعل النقد علما له قواعد وأصول ومناهج ، وسنعرض لذلك بالتفصيل في فصل خاص .

الثانية : حين يجادل خصومه من أهل الرأي والكلام والشعوبية ويدراً مطاعنهم ، فانه اذ ذاك يصاول ويظاول ويحتاج ويجادل ، فتبدو عقليته ويظهر منطقه .

وبعد ، فهذه هي الخصائص التي يمتاز بها أدب ابن قتيبة . والآن أريد أن أتناول هذا الأدب بشطريه : الانشائي والوصفي .

(١) ضحى الاسلام ٤٠٣/١ .

الفصل الثاني

أدب ابن قتيبة الأنشائي

الأدب الانشائي هو الذي يصور تأثر النفس بما يروعاها من منظر ، وما يعجبها من مشهد ، وما يؤثر فيها من حدث . وتوضيح ذلك أنه إذا راع الانسان منظر من المناظر ، قصور ما تحس به نفسه من الروعة وما يملؤها من التأثير في لفظ جميل ملائم للموضوع رقة أو فخامة ، فانه يكون قد أنشأ أدبا ، أى أحدث أثرا فنيا لم يكن له وجود من قبل . فموضوع الأدب الانشائي اذن هو الطبيعة وتصوير مشاعرنا وأحاسيسنا حيالها ،

وإذا تناول الانسان هذا الأثر الفنى وسجل رأيه فيه ساخطا أو راضيا أو معللا ، كان هذا الذى سجله أدبا وصفيا . واذن فموضوع الأدب الوصفى هو الأدب الانشائي نفسه . وقد تمخض هذا النوع الوصفى عن لونين لهما شأن خطير في الحياة الأدبية ، هما النقد الأدبى وتاريخ الأدب .

هذه مقدمة يسيرة سقتها لأطبقها على أدب ابن قتيبة . وأنا أرى أن ابن قتيبة لم يكن له أدب من النوع الانشائي ، فلم تدفعه الأحاسيس النفسية الى أن يعبر عن دخيلة نفسه ، راضيا أو ساخطا ،

مبتهجا أو حزينا ، ولم تحفره مناظر الطبيعة أو الأحداث الدنيوية
الى أن يتطلق لسانه بتصويرها ، مبينا شعوره نحوها . ولم أعثر
له على أى أثر انشائي من هذا اللون في جميع كتبه التى وصلت
الىنا ، اللهم الا بضعة سطور وردت له في عيون الأخبار لا غناء
فيها ، ولا يصح أن تتخذها صورة لأدبه الانشائي ، وهى في
الاعتذار والشكر ، ويبدو لى أنه كتب في الاعتذار على غير
حقيقة ، لأنه لم يذكر المعتذر اليه ، وربما يكون قد كتبها على
سبيل المثال . أما كتاب الشكر فهو بضعة سطور وجهها الى محمد
ابن عبد الله بن ظاهر . وفي كل ذلك يبدو أثر التكلف الظاهر .
والسبب في أن ابن قتيبة لم يكن له أدب انشائي — فيما
أرى — أمران :

أولهما : أنه كان رجلا قليل الاختلاط بالناس كما يبدو من
آثاره ، وبخاصة عليه القوم وكبار رجال الدولة . فلم يكن هناك
من سبب يدعو به الى أن ينشئ الرسائل الاخوانية في التهنة
والحب والعتاب والاستمناح وما شابهها ، اذ لم يهج قلبه شيء
من ذلك .

وثانيهما : أنه كان رجلا يعتمد على العقل أكبر اعتماد في
حياته العملية . وربما كان للظروف التى أحاطت به دخل كبير
في ذلك ، فقد شاءت أن يكون زعيم أهل السنة والذائد عن
حياضهم ، فحسم عن ساعديه ، وقام يدافع عنهم ويرد كيد أعدائهم .
وشاءت الظروف كذلك أن يكون عصره عصر تطور وانتقال ،
فهاه — وهو الشديد الغيرة على الدين والعريية — أن ينصرف

عنهما كثير من شباب العلم وقبلوا على العلوم الأجنبية ، وأن
يقعوا — نتيجة لذلك — في أخطاء مبعثها الجهل وقلة الاهتمام .
وقد رأى من واجبه أن يقاوم هذا التيار ، وأن يبصر هؤلاء الناس
بالطريق السوى الأمثل .

وذلك كله — من غير شك — يحتاج الى العقل الذى هو
وسيلة العلية والاقناع . ومن ثم أصبح العقل راصدا له فى جميع
مصنفاته الأدبية وغير الأدبية . والمعروف من حد الأدب الانشائى
— كما بينا — أنه يعتمد على العاطفة كثيرا ، لأنه وليد المشاعر ،
ولهذا خلا أدب ابن قتيبة أو كاد من الأدب الانشائى .

وأحب أن أضيف الى ذلك أن تكوين عقله وحسه لم يكن
يكتمل فيهما روح الأديب الفنان . وأنا أعتقد أن ظروفه — التى
أشرت اليها — كانت عاملا قويا فى تكييف عقله وحسه تكوينا
علميا . ولذلك كان نشاطه الأدبى متجها الى الناحية التى تعتمد
على العقل كثيرا ، وهى ناحية الأدب الوصفى ، لأن روحه روح
الأديب العالم ان صرح هذا التعبير . وهذا هو السبب فى أنه أراد أن
يخضع الأدب لضوابط ومقاييس محددة . ولذلك كان ذا أثر بالغ
فى الأدب الوصفى ، وسنفصل ذلك فى الفصل المقبل .

بيد أننى — مع شئ من التجاوز — رأيت أن أتناول أحد
مؤلفاته واجعله موضوعا لهذا الفصل ، وهو « كتاب العرب » ،
لأنه أقرب مؤلفاته الى الأدب الانشائى ، وإن شئت الدقة فقل
انه « أدب جدلى » ؛ وفيه تحس بشئ من العاطفة المشبوبة بالحب
للعرب والحنق على الشعوبية ، وتحس فيه كذلك نزوعا الى التألق

في اللفظ والعناية بالأسلوب ، ولذا كان أسلوبه في هذا الكتاب
خير ما كتبه .

ولما كانت الدعامة التي يقوم عليها هذا الكتاب هي «الجدل» ،
فقد رأيت أن أيسر كيف كان ابن قتيبة ينهج طريقه في مجادلة
الشعوبية . ومن نافلة القول أن أشير هنا الى أن كتب ابن قتيبة
الدينية التي كان يحتاج فيها خصومه من أهل الرأي والكلام
لم تكن جدلا بالمعنى الصحيح ، وانما كانت رد شبه وتصحيح
تأويل . ولكنه في هذا الكتاب يتناول مغامز الشعوبية ومطاعنهم
ضد العرب ويفندها ويدحضها في أسلوب قوى أقرب الى الجدل
منه الى أى شيء آخر .

وقد صنف الجاحظ فصلا بدأ به الجزء الثالث من « البيان
والتهيين » في الرد على الشعوبية وسماه « كتاب العصا » . ولكن
الفرق كبير جدا بين الكتاتين . ولعل أبرز ميزات « كتاب العرب »
أنه رد قوى مركز على الشعوبية ، وبيان مفضل لمكارم العرب
قد برىء من عيوب الاستطراد ، ولا نلاحظ ذلك في كتاب العصا .
وانه لصنيع جليل من ابن قتيبة أن يقف على رأس المدافعين
عن العرب في ذلك العصر الذي ذهبت فيه ريحهم ، وغلبوا على
أمرهم ، وأقصوا عن أمور الدولة ، ولهج الأعاجم يذمهم وتلبهم ،
وما دفعة الى ذلك الا حبه لدين الله الخفيف . وبلغ من شدة
اخلاصه للعرب أن اتهمه البيروني بأنه « مفرط فيما يخوض فيه ،
وغير خال من الأخلاق الجبلية في الاستبداد بالرأى » . وكلامه
في هذا الكتاب « أى كتاب العرب » يدل على احن وتراحم بينه

١
٢
وبين الفرس » (١) ، ولست أجد سببا يدفع ابن قتيبة الى أن يضطغن للفرس — وهو الذي انحدر من أصلابهم — الا اضافته للعرب الذين كانوا غرضا لسهام الشعوية . فلم يكن مفرطا فيما يخوض فيه كما اتهمه البيروني ، وانما كان رجلا يدرأ الباطل ويحق الحق في منطق سليم . وهذا ما لمستراه في الجزء الذي وصل الينا من كتاب العرب . وليس يبعد أن يكون الافراط الذي لحظه البيروني في الجزء المفقود من الكتاب .

وقد بدأ ابن قتيبة كتابه بذكر الحسد الذي حدا بالشعوية الى أن « تدفع عن العرب كل فضيلة ، وتلحق بهم كل رذيلة ، وتغلو في القول ، وتسرف في الذم ، وتبتهت بالكذب ، وتكابر بالعيان » . وبين أن الحاسد كافر بنعمة الله كنود لربه ، فقد قال ابن مسعود : « لا تعادوا نعم الله ، قيل : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : حاسد الناس » .

وهذا البدء — كما ترى — مناسب للموضوع ، لأن للحسد مبعثه الشعور بالتفاضل ، فينفس المفضول على الفاضل ، فيلحق به المثالب . ثم دخل بعد ذلك في اصميم موضوعه . وأول ما لفت نظره أنه رأى أن أرسخ الشعوية عداوة وأشدهم نصبا للعرب هم « من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى . فأما أشرف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم » . وقد ذكر أن هؤلاء الشائنين

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية لمحمد أحمد البيروني ص ١٢٨ طبعة حيدر آباد .

قد لهجوا بدم العرب « لأن منهم قوما تحلّوا بخلية الأدب فجالسوا
الأشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة ، فقرّبوا من السلطان ،
فدخلتهم الأئمة لأدابهم والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم
وخبث عناصرهم » . وابن قتيبة يشير بذلك الى بغض الكبراء
الذين أوصلتهم مواهبهم الى المناصب العالية ، والذين يحملون
في نفوسهم بغضا دفيناً للعرب ، مثل طاهر بن الحسين والفضل
ابن سهل وأخيه الحسن ويروى التاريخ أن أحد الشعوية
— ويظن أنه أبو عبيدة معمر بن المثنى — ألّف كتاباً في مثالب
العرب فأجازه طاهر بن الحسين بثلاثين ألفاً ^(١) ، ومن هؤلاء من
يلحقون أنفسهم بأشراف العجم ويعتزون الى ملوكهم وأساورتهم
زورا . ثم يبين أن الشعور بالنقص يدفع بصاحبه الى أن يثلب
غيره من الناس « فهو أن عرف خيراً ستره ، وأن ظهر حقره ، وأن
احتبل التأويلات صرفه الى أقبحها ، وأن سمع سوءاً نشره ، وأن
لم يجده تجرّصه ، وصدق من قال :

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا

شراً أذيع وان لم يعلموا بهتوا

ولذلك تراه يعيب الناس بفضل عيه ، ويتقصصهم بحسب
نقصه ، ويذيع عوزاتهم ليكونوا شركاءه في أغورته ، وقال الشاعر :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه

مراد لعنصرى ان أردت قريب

(١) الوزراء والكتاب للجهمي ص ١٢٩ .

ويعجب ابن قتيبة من ذلك فيتمثل بقول الشاعر :

وأجراً من رأيت بظهور غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

وهو بذلك يقرر ظاهرة انسانية عامة يعاني المجتمع البشري الكثير من ويلاتها . وقد ضرب مثلاً لذلك زياد بن أبي سفيان حين كثر طعن الناس عليه وعلى معاوية في استلحاقه عمل كتابا في المثالب لولده وقال : من عيركم فقرعوه بمنقصته ، ومن ندد عليكم فابدهوه بمثلته ، فإن الشر بالشر يتقى والحديد بالحديد يفلح . وكذلك كان حال أبي عبيدة معمر بن المثنى فلقد « كان أغرى الناس بمشاتهم الناس وألهجهم بمثالب العرب ، وحاله في نسبه وأبيه الأقرب اليه حال نكره أن نذكرها .. وهي مشهورة ، ولكن كرهنا أن تدون في الكتب وتخلد على الدهر ، ولا سيما وهو رجل يحمل عنه العلم ويحتاج بقوله في القرآن » .

ثم عرض ابن قتيبة لما أخذ الشعوبية واحدا واحدا ، وفنّدها ، وبين أوجه الخطأ في كل منها ، وجعل من مثالب العرب مناقب ، فهم يزررون بقوس حاجب ، ويذهبون في ذلك الى خسارة العود وقلة ثمنه . ولكن هذا كلام يقال على مذاهب التجار والسوق في الرهون والمعاملات . وانما رهنها العرب لما في ذلك من معنى المسالمة وكف الأذى ، لأن سلاح الرجل عزّه وشرقه . وقد ساق ابن قتيبة أمثلة لبيان هذه العادة عند العرب ، فهذا سيّار بن عمرو الفزاري قد ضمن لبعض الملوك ألف بغير ورهنه قوسه فقبلها منه على ذلك وساقها اليه ، وفيه يقول القائل :

ونحن رهنا القوس ثم تخلصت

بألف على ظهر الفزاري أقرعا

ولما قتل وكيع بن أبي أسود التميمي قتيبة بن مسلم الباهلي
بخراسان ، وبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك وهو بمكة حاجا خطب
الناس بمسجد عرفات وذكر غدر بني تميم واسراهم في الفتن
وثبتهم على السلطان ، فقام الفرزدق ففتح رداءه وقال :
« يا أمير المؤمنين ، هذا ردائي رهنا بوفاء تميم ومقامها على
طاعتك » .

ويستخلص من ذلك أنك « إذا رأيت العرب تنسب إلى
شيء خسيس في نفسه فليس ذلك إلا لمعنى شريف فيه » .
ويعجبني من ابن قتيبة اعتصامه بالانصاف ما وسعه ذلك ،
فهو لا يضيف إلى العرب من المفاخر ما ليس لها فيقول : ولم يدع
أحد أنه كان للعرب في دولة العجم مثل ملكها وأموالها وعددها
وسلاحها وحريرها ودياجها » .

ويتخذ ابن قتيبة في حجاجه أسلوب الجدل بكل مقوماته ،
فهو يفرض أسئلة محتملة ويرد عليها ، كأن يقول : « فإن قيل
كذا كان الرد كذا » .

ويعجب ابن قتيبة من ادعاء هؤلاء العجم أنهم من أبناء اسحاق
وهو ابن سارة الحرة ، بينما العرب من نسل اسماعيل وهو
ابن هاجر الأمة ، ويقول قائلهم :

في بلدة لم تصل غكك لها طنبا
ولا خباء ولا عك وهمدان

ولا لجَرم ولا بهراء من وطن
لكنها لبني الأحرار أوطان
أرض تبني بها كسرى مناسكها

فما بها من بني اللخناء انسان

فبنوا الأحرار عندهم العجم من ولد اسحاق بن سارة ،
وبنو اللخناء عندهم العرب من ولد اسماعيل بن هاجر . ويدفع
ابن قتيبة ذلك بأن كل أمة ليست لخناء (١) . وهاجر قد طيها الله
من كل دنس وارتضاها للخليل فراشا ، وكانت أحظى نسائه عنده ،
وقد شرفها الله بأن جعلها أمّا لاسماعيل ومحمدا عليهما الصلاة
والسلام .

ثم عرج ابن قتيبة على التاريخ يستأديه ما يدعم به حجته ،
فذكر أن الائمة أنجب بعض عظماء الخلفاء والقواد والأخبار
وكرام الناس .

على أن ابن قتيبة لا يسلم بأن العجم من أولاد اسحاق
فيقول : « والنسب لا يعرفون لأهل فارس ولا للبيط في
اسحاق بن ابراهيم حظا » . وهو يبين ذلك بذكر من نسلوا من
اسحاق ومن نسلوا من أخيه اسماعيل بالتفصيل مما يحق ادعاءهم
الاتساب الى اسحاق .

ثم أخذ يقارن بين العرب والعجم ، ويبين وجوه الأفضلية عند
العرب قائلا : « ثم تتساوى العرب وفارس في أن الفريقين ملكوا ،

(١) اللخناء هي الأمة الممتحنة في رعى الابل وسقيها ، واللخناء
ايضا هي القبيحة الرائحة .

وتفضلها العرب بأن قواعد ملكها نبوة ، وقواعد ملك فارس
استلاب وغلبة ، وتفضلها العرب بأن ملكها ناسخ وملك فارس
منسوخ ، وتفضلها بأن ملكها متصل بالساعة وملك فارس محدود ،
وتفضلها العرب بأن ملكها واغل في أقاصي البلاد داخل في آفاق
الأرض وملك فارس شظية منه . وأنت ترى أن ابن قتيبة على
حق فيما يقول .

ويعجبني من ابن قتيبة أنه يؤثر الصدق دائما ، فلا يفترى على
الفرس ، ولا يضيف إلى العرب من المكارم ما ليس لهم ، ولكنه
يتخذ سبيل الاقتناع بالمقارنة الصائبة الدقيقة . ولا يمنعه أصالته من
الفرس أن يعطى كل ذي حق حقه وأن يبين الفاضل من المفضل ،
انظر إليه يقول : ولا أبخس أحدا حقه ، ولا أتجاوز به حده .
فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها ...
وأرجو ألا يطلع ذوو العقول وأهل النظر مني على إثارة هوى
ولا تعمد لتوبيه .

وابن قتيبة لا يعتمد إلى ما يعتمد إليه غيره من ذكر الأحاديث
الطوال عن أخبار العرب وأيامهم للدلالة على مفاخرهم ، وإنما
هو يعتمد إلى مواطن الفضل التي لا يمكن أن ينكرها منكر ، لأن
الأخبار والخطب قد دخلها كثير من الوضع كما يقول .

وانك لتجد البون شاسعا بين كتاب الجاحظ « العنا » وكتاب
ابن قتيبة . فكتاب « العنا » إذا قيس بكتاب « العرب » في
الدفاع عن العرب لا يعد شيئا مذكورا . فالجاحظ لا يتكلم
إلا عن العنا وما شابهها مما يعد من لوازم العرب كالمحصرة

والقوس ونحو ذلك ، ويدافع عن استعمال العرب لها ، ويبين
مزاياها ، ويورد الحكايات في فضلها ، ويذكر أن من رسل الله من
اتخذها رفيقا مثل موسى وسليمان عليهما السلام . وفي خلال ذلك
يستطرد استطرادا ينأى به عن الموضوع . ولا يخرج دفاع الجاحظ
عن هذا النطاق .

أما ابن قتيبة فهو المحامي القدير الذي يتناول مطاعن الخصوم
كلها ويفندها ويرد عليها في منطق قوى سليم ، ثم ينقب عن
مثالبهم فيسردها ، وعن مناقب العرب فينشرها في غير مين أو كذب .
واقراً معنى قوله يعدد محامد العرب : فانها « أى العرب »
لم تنزل في الجاهلية تنواصي بالحلم والحياء ، وتتعاير بالبخل والغدر
والسفه ، وتنزّه من الدناءة والمذمة ، وتتدرب بالنجدة والصبر
والبسالة ، وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق
ما توجه للحميم الشفيق ، فربما بذل أحدهم نفسه دون جاره ،
ووقى ماله بماله ، وقتل دون حميمه .

ويمضى ابن قتيبة في بيان مناقب العرب ورد مطاعن شائئهم ،
مفترضاً مثالب قد توجه اليهم ويدحضها في بيان منطقي سليم .
وهو يسوق في خلال ذلك القصص والحكايات التي تبين صفاتهم
العالية ، ويطعم ذلك بما أثر عنهم من رائع الشعر وبلغ الحكم .
من مثل قول قيس بن عاصم يذكر قومه :
لا يفتنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن
وقول مسكين الدارمي في رعاية الجار :
نارى ونار الجار واحدة واليه قبلى تنزل القدر

ما ضرَّ جارا لي يجاورني ألا يكون لسانه ستر
وقول الحطيئة يذكر محاسن قومه :

أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البناء
وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا
يسوسون أحلاما بعيدا أاناتها
وان غضبوا جاء الحفيظة والجد

وقول أرقط بن سميّة في أكرام الضيف :

وما دون ضيفي من تلاد تحوزه
إلى النفس إلا أن تصان الحلائل

وغير ذلك من الأشعار الرائعة المنبثة في الكتاب ، وكلها ناطقة
بما كان للعرب من صفات حميدة وشيم مرضية .

نعم ان فيهم من كان على غير تلك الخصال — وهم قلة
قليلة — مثل مترد وحמיד الأرقط اللذين هجوا الأضياف ،
وصفاهم « بكثرة الأكل وجودة اللقم » . ومن الغريب أن يتخذ
الشعوبية هذين الشاعرين مثلا للعرب جميعا ، وينسون أن كل
جنس من الناس فيه الطيب وفيه الخبيث ، وهذا أمر درجت عليه
الطبيعة منذ القدم ، وانما يأخذ ابن قتيبة بالغالب الأشهر .

على أن ابن قتيبة لا يترك ثغرة من غير أن يرتقها ، فهو يذكر
أن لهذين الشاعرين ظروفا خاصة دفعتهما إلى أن يذما الكرم
والأضياف لا داعي لذكرها ، ويرى أن لهما أثارة من العذر
فيما سلكا . ولكن الكرم خلة أصيلة في العرب ، بل هي من أظهر

خلالهم ، لأن طبيعة بلادهم تحلقها . وانا لنقرأ أخبارا غريبة في هذا الباب ، وقد ذكر ابن قتيبة طرفا منها في كتابه .

ويغير الشعوبية العرب بخبيث المطعم كالعلهز والحيات ، وخبيث المشرب كالفظ والمجدوح . ويرد ابن قتيبة عليهم في صدق خال من للمكابرة والمغالطة قائلا : « ان هذا وأشباهه طعام المجاوع والضرورات وطعام نازلة القفر والفلوات .. وانا يكون هذا عيبا لو كانت العرب مختارة له في حالة اليسر .. فأما حال الضرورة فالناس كلهم يعسرون .. فمن لم يجد اللحم أكل اليربوع والضب ، ومن لم يجد الماء شرب المجدوح والفظ » . ولكم سمعنا أن كثيرا من الناس في ساعة العسرة يتناولون من المأكول والمشرب ما تعافه النفس ويقشعر منه البدن . والتاريخ يحدثنا أن الناس ابان القحظ والجذب يأكلون لحوم الموتى ، كما حدث في زمن المستنصر الفاطمي ، والسنة الشهباء يحل حرامها كما يقول الشاعر .

على أن ابن قتيبة قد أورد شعرا لبعض مياسير العرب يشعر برقاهة العيش وأرستقراطية الحياة ، ويقول : « وأما ذوو النعمة واليسار والأقدار فقد كانوا يعرفون أطايب الطعام ويأكلونها ويأخذون بأحسن الأدب عليها » ، ويقول قائلهم :

فما لحم الغراب لنا يزداد ولا سرطان أنهار البريص
وينذكر ابن قتيبة أن العرب كان لهم ذوق راق في اختيار أطايب الطعام وفي آدابه ، ومن ذلك قولهم : « أطيّب اللحم عوده » يريدون ما ولي العظم ، كأنه عاذ به . ولا يزال الناس يستطيعون ذلك حتى الآن . وكانوا يكرهون أكل الدماغ ، ومنهم

من يعاف الية الشاة ، وكانوا يقولون في آداب الأكل : « إذا
أكلتم فسموا وأدنوا » يزيدون « كلوا مما بين أيديكم » ، ويضنون
على غض النظر عن أطراف الأكيل ، ويقول شاعرهم :

وللموت خير من زيارة باخل
يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

وكانوا يمدحون بقله الأكل ، ويعيبون بالشره والنهم . ومن
خير ما أثر عنهم قول الأحف بن قيس : « جئوا مجلسنا ذكر
النساء والطعام ، فأتى أبغض أن يكون الرجل وصافا لبطنه
وفرجه » . وكان يعتدون المروءة في أن يترك الرجل الطعام وهو
يشتهي ، ويقول حكيمهم : « أقلل طعاما تحمد مناما » ، ويقول :
« غلبت بطنتي فطنتي » . وقد أدركوا أن البطنة توهن العقل ،
وفي ذلك يقول عمرو بن العاص لمعاوية يوم حكم الحكماء :
« أقلوا الطعام ، فوالله ما بطن قوم الا فقدوا بعض عقولهم »
وما مضت عزيمة رجل بات بطينا .

وأظنك توافقني على أن ابن قتيبة قد استوعب كل آداب
المائدة التي وقف عليها العرب ، وهي لا تقل عما يعرفه أهل القرن
العشرين في هذه الناحية ، وصدق ابن قتيبة حين قال : « فكيف
تكون المعرفة بالطعام والأدب عليه الا كما وصفنا » .

ثم تناول ابن قتيبة بعد ذلك صفات العرب البارزة كالشجاعة
والأنفة والحمية والعقل وما شابه ذلك من الصفات التي اشتهر
بها العرب . وقد تناول ابن قتيبة ذلك على طريقته المعهودة من

الجدل المنطقي السليم القائم على المقارنة بين الفريقين ثم استخلاص
وجوه الإفضلية عند العرب .

ويذكر ابن قتيبة بعد هذا كله أن من أعظم مفاخر العرب أنه
كان فيهم في الجاهلية بقايا من الحنفية يتوارثونها عن إسماعيل
عليه السلام ، كحج بيت الله الحرام ، وزيارته ، والختان ، والطلاق ،
والعتق ، وتحريم ذوات المحارم بالمقاربة والرضاع والصهر ،
والإيمان بالملكين . وكان الفرس في ذلك الوقت يعمهون في ضلال
المجوسية .

ويقول ابن قتيبة إن أعظم ما تعتر به العرب وتتيه به على جميع
الشعوب قاطبة أن الله تعالى قد أرسل فيهم رسولا من أنفسهم ينلو
عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، « فكان عليه
الصلاة والسلام تاسخ كل شرعة وحائز كل فضيلة ، فجمع كلمتها
ولم شعثها ، ومكن لها في البلاد ، وأوطأها رقاب الأمم ، وجعل فيها
خلافة النبوة ، وخطبها يومئذ ولا عجم فيها فقال : « كنتم خير
أمة أخرجت للناس » فلما فضل هذا الخطاب .

ثم عرج ابن قتيبة أخيرا على قريش ، فبيّن أنها أفضل العرب ،
وغلا في ذلك حتى أنه اعتبر من يقدم عليها أحدا أو يسوّى بها
قبيلة فاسد الاسلام ، ولا يصح عقده ، واستشهد على ذلك
بأحاديث يبدو فيها أثر الوضع والانتحال . وليس من شك في أن
قريشا — وهي الأرومة التي نشأ منها النبي الكريم — قد شرفت
وعلا قدرها به ، وما أصدق قول ابن الرومي :

كم من أب قد علا بابن له شرفا كما علا برسول الله غدنان

وقد ختم ابن قتيبة كتابه بالإشارة إلى أن أهل خراسان يلون العرب في الشرف ، لأنهم « أهل الدعوة وأنصار الدولة » كما يقول . وذكر قصة تبين أسبقيتهم على أهل فارس في السؤدد ، وهي قصة أشبه بالخرافات ولا داعي لذكرها .

والواقع أن ذلك يعتبر منه تحيزا لوطنه الأصلي ، إذ أن أباه من « مرو » ، وهي مدينة خراسانية . والوجه الذي يقيم عليه الأفضلية — وهو كونهم أهل الدعوة وأنصار الدولة — ليس شيئا ذا بال يرجح كمتهم على أهل فارس .

وبهذا ينتهي الكتاب الذي وصل إلينا والذي نشره المرحوم كرد علي ، ولا شك أنه لم يصل إلينا بأكمله ، لأنه قُطع قطعاً ، ولأنه أشار في ثناياه إلى أمور وعد بذكرها مفصلة ولم نجد لها ، ومن الجائز أن يكون قد استوعبها في الجزء المفقود من الكتاب . وقد عثرت في « العقد الفريد » على فصل عنوانه « اليتيمة في النسب وفضائل العرب » ^(١) ، وقد نقل الألوسي في « بلوغ الأرب » جزءاً منه ^(٢) . ويظن بعض الباحثين أنه جزء من كتاب العرب ، ولكني أخالفهم في ذلك ، لأن هذا الجزء يغاير منهج الكتاب في أساس الجدل . فالكتاب — كما رأينا — يقوم على أن العجم يرون أنفسهم خيراً من العرب ، ويحاولون تقرير ذلك ، وابن قتيبة يرد عليهم ويبين خطأهم ويسوق الأدلة الواضحة على أن العرب أفضل منهم .

(١) العقد الفريد ٧٢/٢ طبعة المطبعة الأزهرية .

(٢) بلوغ الأرب ١٦٩/١ .

أما هذا الفصل فنرى فيه الفرس يحاولون أن يجعلوا أنفسهم
أندادا للعرب ، وأن يقفوا معهم على قدم المساواة ، مستشهدين
بآي من الذكر الحكيم وأحاديث النبي الكريم . ويبدو منطقهم
فيه أقوى منه في كتاب العرب ، كما يبدو فيه رد ابن قتيبة متهافنا
ضعيفا . ولذلك تراه يخضع أخيرا لمنطق العقل السليم ، وينقض
ما بنى كما يقول ابن عبد ربه الذي أخذ عليه هذا التناقض ، يقول
ابن قتيبة : « وأعدل القول عندي أن الناس كلهم لأب وأم ،
خلقوا من تراب وأعيدوا إلى التراب .. فهذا نسبهم الأعلى الذي
يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالأباء ، ثم إلى
الله مرجعهم فتنتقطع الأنساب وتبطل الأحساب إلا من كان حسبه
التقوى أو كانت مآنته طاعة الله » .

وليس بعيد أن يكون هذا الفصل الذي وجدته في « العقد
الفريد » قطعة من رسالة أخرى وضعها ابن قتيبة في الرد على
الشعوبية كذلك .

مهما يكن من شيء فكتاب العرب يمثل بحق عقلية ابن قتيبة
الجدلية ، ويدل على درايته الفائقة بالتاريخ والأنساب . وأسلوبه
في الجدل سمح ، فيه شيء من حسن الديباجة وصفاء الطبع .
ونستطيع مما سبق أن نلخص مذهبه الجدلي في الأمور
الآتية :

١ — تحدوه في جدله نزعة دينية تدل على إيمانه العميق .

٢ — يثق في نفسه وثوقا شديدا ، وهو من بأن الحق في جانبه ،

ويتضح ذلك من افتراضه مطاعن قد توجه الى العرب ، ويرد عليها
في قوة ومقدرة .

٣ — في جدله شيء من السخرية التي تخفف عن القارىء
صرامة الجدل وجده .

٤ — يستشهد كثيرا بالنصوص الشعرية ، ويحسن اختيارها
مما يجعلنا نعتقد أنه لم يحرم حاسة الذوق الأدبي .

٥ — يعتمد في جدله الى طريقة علمية لم يسلكها غيره ، وهي
بسط خصائص الطرفين « الفرس والعرب » في أمانة وصدق
ليستطيع القارىء أن يدرك في سهولة الفاضل والمفضول .

٦ — ويمتاز ابن قتيبة بالشمول والاحاطة في جدله ، أعنى أنه
لا يترك ثغرة أو مظنة طعن الا تصيدها وانبرى للدفاع في حرارة
واخلاص .

٧ — يعنى في جدله — وفي هذا الكتاب بالذات — باختيار
الألفاظ ، والتأنيق في الأسلوب ، والاستعانة بالصور البيانية
للايضاح وتجميل الكلام ، كما يعنى كذلك بذكر بعض المحسنات
البديعية ، وبخاصة الجناس والسجع .

٨ — يحسن القارىء أن ابن قتيبة يدافع عن قضية كلية ،
ولذلك نراه يجتد كل ما أوتي من جهل وثقافة ومنطق لرد مطاعن
الشعوبية . وكان يرى أنه في حاجة الى الاستعانة بالأحاديث ، فكان
لا يتخرج من رواية الأحاديث الموضوعة ، مع أنه كان في غنى عن
روايتها ، لأن الحق كان بجانبه غالبا .

الفصل الثالث

أدب ابن قتيبة الوصفى

ذكرنا أن الأدب الوصفى شقان : النقد وتاريخ الأدب .
أما النقد فلا بن قتيبة فيه أثر عظيم ، ولذا رأينا أن نفرّد له فصلاً
خاصاً نبين فيه جهود ابن قتيبة في هذا الباب .
وأما تاريخ الأدب فسنبين في هذا الفصل مدى خطوات
ابن قتيبة فيه ، وأثره في هذه الناحية .

والكتاب الذى يمثل اتجاهه فى التاريخ الأدبى هو كتاب
« الشعر والشعراء » وقد أودع فى المقدمة مذاهبه فى النقد ،
وسنوقفك عليها فى الفصل التالى . أما الكتاب فهو سجل لعدد
ضخم من الشعراء وأخبارهم وشيء من أشعارهم منذ العصر
الجاهلى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى . وهو كتاب قيّم
جداً ، ويعتبر من أهم المراجع الأدبية لتراجم الشعراء ومعرفة
ملاسل بعض أشعارهم .

ولم يسبق ابن قتيبة فى التأليف فى الشعراء إلا محمد بن سلام
الجمحى ، فقد وضع كتابه المعروف « طبقات الشعراء » ،
ولم يترجم فيه لكل شاعر ، وإنما كان جلّ همه إيراد آراء القدماء

في الشاعر ليضعه في طبقته ، وقلما يذكر خبرا مقتضبا عنه ،
ويُتردّد ذلك بذكر بضعة أبيات من شعره . وسنعرض للمقارنة
بين الكتابين بالتفصيل في فصل خاص . ولا شك أن ابن سلام
قد لفت نظر المؤلفين الى وضع كتب في تراجم الشعراء . وأول من
حذا حذوه ابن قتيبة ، ولكنه نحا بمؤلفه نحو آخر تدركه من
حديثنا عنه .

والمتصفح لكتاب ابن قتيبة يشاهد أنه لم ينهج في تأليفه منهجا
خاصا من حيث ترتيب الشعراء ، فقد بدأه بامرىء القيس لأنه
شيخ الشعراء وباجس عين الشعر لهم كما يقولون ، ثم أردفه
بزهير بن أبي سلمى مع أن من الشعراء الذين ذكرهم بعده من هم
أقدم منه ، أمثال طرفة والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم .

ولا يمكننا أن نقول انه اتخذ الشهرة والقدرة الفنية هدايته
في الترتيب ، لأنه ذكر مثلاً المتلمس والمسيب بن علس قبل طرفة
وأعشى قيس . فهو يقدم شعراء خاملين على فطاحل لامعين كما
ثرى .

والملاحظ أنه يعاقب في أحيان كثيرة بين الشعراء الذين تربط
بينهم رابطة الدم أو القرابة أو الأصلة القبلية ، ولعل السر في
ذلك راجع الى تداعى الأفكار فيما أعتمد . فمثلا ترجم زهير
ابن أبي سلمى ثم لابنه بعده ، وترجم للمرقش الأكبر ثم للأصغر
وهو أخوه في رواية وابن أخيه في رواية أخرى ، وترجم لخفاف
ابن نذبه السلمي وبعده لابنة عمه الخنساء وهما من بني سليم .
وترجم للأضبط بن قريع وبعده للمستوغر لأنهما من بني كعب

ابن سعد . وترجم للمثقب العبدى ثم للمزق العبدى لأنهما من
شكرة .

والأخوة — بطبيعة الحال — من أقوى أسباب تداعى
الأفكار ، ولذلك نراه يتناول الشاعرين الأخوين فى ترجمة واحدة
كما صنع مع مالك . ومتمم ابنى نويرة ، ومع سويد ويزيد
ابنى خذاق وهما شاعران قديمان كانا فى زمن عمرو بن هند ، ومع
كعب وعثميرة ابنى جعيل ، وغيرهم .
وقد يدعوهُ الى ذلك روابط أخرى مثل رابطة العشق والغرام ،
ولذلك نراه يترجم لتوبة بن الحمير عاشق ليلى الأخيلية ، ثم
يترجم لها بعده .

وهناك رابطة أخرى من لون آخر تستدعى ذكر القرين بقرينه ؛
فترجم لجريز والفرزدق والأخطل على التوالى . ولم يراع فى ذلك
كبر السن بدليل أنه جعل الأخطل آخر الثلاثة مع أنه كان أسنهم .
ويبدو لى أنه رتبهم على حسب أقدارهم الفنية لأن جريزا أعلاهم
كعبا . ثم ترجم بعدهم للبعيث لصلته بهم ، إذ شارك فى الخصومات
التي احتدمت بينهم كما نعرف . وقد ذكر بعد ترجمة الأخطل
مجموعة طيبة مختارة من شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة .

وتمشيا مع هذه الرابطة (رابطة القرينية) نراه يترجم لكثير
عزة ثم للأحوص ، وهما غزلان . ثم تركهما وتناول شعراء من لون
آخر ، وعاد بعد ذلك الى شعراء النسيب والعشق ، فترجم للمجنون
ثم للعرجي . وكذلك ترجم لعروة بن حزام صاحب عفراء ، وبعده
لقيس بن ذريح صاحب لبنى .

والرابطة عند ابن قتيبة مهما تنوعت ألوانها تعتبر صلة تدعو
الى ذكر الشاعر بذكر قرينه ، فرابطة الصداقة جعلته يترجم للكثير
ابن زيد الأسدي ، ثم للطرماح بن حكيم بعده ، لأنه كان بينهما
« من المودة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين على تباعد ما بينهما في
الدين والرأى والأصل » . ولصلة القرابة والنسب ترجم للعجاج
الراجز ، ثم لابنه رؤبة ، ثم ترجم بعدهما لأبى تخيلة الراجز ،
ثم لأبى النجم ، ثم لدكين الراجز ، ثم ترجم لراجز آخر معثور
اسمه « الأغلب » . والرابطة التي تربط بين هؤلاء جميعا فنية
خالصة ، ويكادون يتعاصرون .

وفراه يترجم لشعراء هذيل متتابعين ، وقد وضع لهم هذا
العنوان « شعراء هذيل » ، والرابطة بينهم قبلية . ويترجم
لأبى نواس ، ثم للعباس بن الأخنف ، ثم لصريح الغواني لأنهم
جميعا يتقاربون في المشارب . وقد حدث به رابطة القرابة الى أن
يترجم لأبى الشيص ثم لدعبل ابن عمه .

هذا هو منهج ابن قتيبة في كتاب « الشعر والشعراء » من حيث
ترتيب التراجم . وانا نلاحظ أنه — على كل حال — اتبع الترتيب
الزمنى (العصرى) الاجمالى . أعنى أنه ترجم أولا لشعراء
الجاهلية والمخضرمين ، ثم ترجم بعد ذلك لشعراء العصر الأموى ،
ثم لشعراء عصر بنى العباس . بيد أنه لم يتبع في ترتيب شعراء كل
عصر الترتيب الزمنى الدقيق كما ذكرنا ، فقد يترجم لشاعر مخضرم
أدرك الجاهلية والاسلام قبل شاعر جاهلى لم يدرك الاسلام .
وليس لذلك من علة الا علة الرابطة آتيا كانا نوعها كما ذكرنا .

والخلاصة أن ابن قتيبة لم يراع الترتيب الزمني الفردي ، ولكنه راعى الترتيب الزمني المجموعى ان صح هذا التعبير . وكان يشد عن ذلك أحيانا شذوذا عجيبا : مثال ذلك أنه ذكر بين الشعراء الاسلاميين (فى عصر بنى أمية) شاعرين أحدهما جاهلى وهو دريد بن الصمة ، والآخر مخضرم وهو العباس بن مرداس ، وقد ترجم لهما بعد القطامى الشاعر الأموى . وسبب ذلك — فيما أرى — أنه ربما يكون قد نسى الشاعرين الجاهليين ثم ذكرهما وهو يتحدث عن شعراء العصر الأموى ، فترجم لهما بينهم ، ولم يفتح الكتاب بعد أن انتهى منه فبقيا حيث هما .

ويلاحظ كذلك أن نهاية الكتاب لا تشعر بانتهائه ، لأنه دائما يختم كل مصنف من مصنفاته بجملة ختامية يدرك القارىء منها أن الكتاب قد انتهى . وقد ختم الكتاب بترجمة « أشجع السلمي » الذى كان متصلا بالبرامكة . وعلى ذلك يرجح أن للكتاب بقية مفقودة قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة ، بل قد تكون صحيفة واحدة . والمهم عندي أن هذا ليس ختاماً للكتاب إذ ينتهى بهذه الجملة : « أخذه من قول الآخر وهو ابن الدمينه .. » ثم يذكر البيت . ومما يدل على أن الكتاب ناقص كما وصل إلينا أنه خلا من شعراء نابهين ، فليس من المعقول أن يغفل ابن قتيبة شاعرا مثل أبى تمام أسير ذكرا من دعبل الخزاعى ، مع أنه توفى قبله ، إذ توفى أبو تمام سنة ٢٣١ وتوفى دعبل سنة ٢٤٦ . ويشع ابن قتيبة فى تراجم الشعراء طريقة غريبة ، فهو يبدأ بإيراد اسم الشاعر وبعض أخباره ، ثم يذكر بعض النصوص

المختارة له ، كل ذلك في ايجاز شديد . وبعد ذلك يتناول الشاعر في شيء من الاطناب مرة أخرى . وتلك طريقة لها مزاياها ولها عيوبها ، ومن مزاياها أنها تعطي القارئ أول الأمر صورة موجزة عن الشاعر ، فان شاء المزيد واصل القراءة في الترجمة المفصلة . وهذه مجدية للقارئ العجّل الذي ينشد الفكرة العاجلة فحسب . ومن عيوبها أنه يكرر في غير ما جدوى فيضيع شطرا من وقت القارئ ويبعث اليه شيئا من السأم والملل ، بسبب هذا التكرار الذي لا داعي له . ويلاحظ أن ابن قتيبة في الترجمة المفصلة — فضلا عن التكرار — يذكر نصوصا وأخبارا تختلف بعض الشيء عن الترجمة الموجزة . وقد يصل هذا الاختلاف الى اسم الشاعر وآبائه في زيادة أو نقصان وفي بنية الأسماء أحيانا . وهذا الاختلاف من الكثرة بحيث لا تكاد تخلو منه ترجمة مزدوجة . وأنا أعزو سر ذلك الى أن الكتاب قد ألّفه المؤلف على فترتين ، ومن المرجح أنه وضع الترجمة الموجزة في الفترة الأولى ، ثم مضت أزمان تجمعت لديه فيها معلومات أخرى ، فذكرها برمتها بعد الترجمة الأولى من غير تنقيح أو توفيق بين الترجمتين . وهذا بلا شك عيب لا تخفى منه ابن قتيبة ، لأن القارئ لا يدرى بأيهما يأخذ وعلى أيهما يعتمد . وهذه التراجم المزدوجة اختص بها المؤلف مشهورى الشعراء دون سواهم .

والمشاهد في هذه التراجم عامة أن ابن قتيبة لا يذكر شيئا ذا غناء عن حياة الشاعر الأولى ، والعوامل التي اختلفت عليه وأثرت في منحاه الفنى . ويثلثس له العذر في ذلك وبخاصة

بالنسبة للشعراء الأقدمين الذين لا يكاد يُعرف عن حياتهم الأولى شيء .

ومن حق التاريخ الأدبي علينا أن نقول أن التراجم التي ساقها ابن قتيبة في كتابه هذا لا تعدو أن تكون جملة من أخبار كل شاعر وقدرنا من أشعاره ليس غير . على أنه لم يتحرر في أخباره الدقة والتجسس ، ولذلك دخلها شيء غير قليل من التناقض والخرافات . فلا يحق لنا أن نطلق على هذه التراجم ما نسميه بالتاريخ الأدبي لأنها بعيدة عنه كل البعد .

فلم يكن ابن قتيبة اذن مؤرخا أدبيا بالمعنى الذي تفهمه نحن المشتغلين بالأدب في عصرنا الحديث ، لأنه لم يتحدث عن العوامل التي اختلفت على الشاعر ومدى تأثير البيئة والزمان في إنتاجه الفني . وله آراء يسيرة تدخل في صميم تاريخ الأدب ، ولكنها لا تعدو أن تكون لمحات خاطفة متفرقة تنعدم فيها خصائص المنهاج العلمي ، وهي — على كل حال — تدل على شيء من ثقوب الفكر والاحساس الفني ، لأنها تشير الى علل بعض الظواهر الأدبية ، فيقول مثلاً : « وهذه عندي قصة الكميت في مدح بنى أمية وآل أبي طالب ، فانه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعره في بنى أمية أجود منه في الطالبيين . ولا أرى علة ذلك الا قوة أسباب الطمع وايثار النفس لعاجل الدنيا على أجل الآخرة » (١) . وقد يكون هذا حقاً ، فالطمع في العظيمة

(١) الشعراء والشعراء ص ٢٤ تحقيق الشيخ شاکر .

— لخدمة الحاجة — يغلب حرارة الصدق في العاطفة . وقد حكي
أن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبي يعقوب الخريمي : « مدائحك
لمحمد بن منصور بن زياد كاتب البراكمة أشعر من مرثيتك فيه
وأجود ، فقال : « كنا يومئذ نعمل على الرجاء ونحن اليوم نعمل
على الوفاء ، وبينهما بون بعيد » (١) . والخريمي يتكلم بلغة الواقع ،
وصدق من قال : اللهم افتح للها » .

ومن هذه النظرات الثاقبة أنه يضع أحيانا للشاعر سمات تحدد
منطاه الفني ؛ فيقول مثلاً عن أوس بن حجر : « كان عاقلاً في شعره
كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للحجر والسلاح
ولا سيما القوس ، وسبق الى دقيق المعاني والى أمثال كثيرة » (٢) ،
وكذلك صنع مع زهير والحطيئة وذو الرمة .

ويمكننا أن نقول في اجمال ان ابن قتيبة كان مؤرخاً مستقرئاً
للتنصوص ان صح هذا التعبير . فهو يذكر البيت للشاعر مثلاً ،
ثم يذكر الشعراء الذين تناولوا معناه ، وأحيانا يبدى رأيه ، فيذكر
أن هذا الشاعر قد أحسن الأخذ ، وذلك أفسد المعنى وتخلّف عن
الشاعر الأصيل . وابن قتيبة قد أفاد اللغة لفادة جليلة لأنه ساعد
على حصر المعاني التي تناولها شعراء العربية حتى العصر العباسي
الثاني ، وبين لنا تأثير بعض الشعراء ببعض الآخر ، فكان كتابه
هذا الدعامة القوية التي أقام عليها مؤلفو السراقات الشعرية
مصنفاتهم أمثال الآمدي والقاضي الجرجاني وغيرهما .

(١) المصدر نفسه .

(٢) الشعر والشعراء ٩٩ طبعة ليتن .

وهناك ناحية يجب ألا نغفلها وهي أن ابن قتيبة لا ينسى أن ينبهك الى أن هذا الشاعر أول من طرق هذا المعنى ، وأن ذلك أول من تناول في شعره ذلك الأمر . وقد تتبعنا عددا من أقواله تلك في مراجع الأدب ودواوين الشعراء لأعرف مبلغ صحتها فألقيته آمينا صادقا في كل ما يقوله .

وكتاب ابن قتيبة يعتبر سجلا قيما لعدد كبير من الشعراء لا يستغنى عنه باحث أو أديب ، ويعتبر كذلك مرجعا هاما لكثير من النصوص الشعرية وملاساتها ، وبخاصة ما يستجد منها في نظره .

ويؤخذ عليه أنه كثيرا ما يعتمد في الاستجادة على آراء السابقين . وهو بذلك يتكسب الطريق السوى الذي رسمه لنفسه في المقدمة من أنه لا يتبع سبيل التقليد في الحكم على الشعر والشعراء . ولهذا فراه أحيانا يذكر للشاعر أبياتا على أنها مما يستجد له في حين أنها ليست من خير شعره ، لكنه يأخذ برأى السابقين .

ونراه يعنى بسرد كثير من أخبار بعض الشعراء ، في حين فراه يوجز في أخبار البعض الآخر أيجازا غير محمود ، بل أنه يترك المهم منها ولو كان خاصا بالفحول .

ومما نعييه عليه أنه يذكر للشاعر أشعارا في الترجمة ، ثم يمضى قليلا ويكرر هذه الأشعار من غير أن يكون هناك مبرر لذلك ، وقد يرويهام مع تغيير في بعض ألفاظها . وكثيرا ما ينصرف عن الشاعر الذي يترجم له ويتناول شاعرا آخر ، ذاكرة أخباره

وبعض أشعاره لوجود صلة قريبة أو بعيدة بين الشاعرين ، فإذا تناول الشاعر الآخر كرر ما قاله في ترجمة الأول . وسبب ذلك أن التأليف في ذلك العهد كان في طفولته ، ولذلك نراه أحيانا يجنح الى الاستطراد الذي يشبه الخلط . وليس هذا بدعا ، فالتأليف في أول عهده كان يتهم منه تقييد كل ما يسنح على الخاطر مما يتصل بالموضوع قريبه وبعيده . فلما جاء ابن قتيبة هذبه وخطأ به نحو الرقي ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من عدوى الاستطراد .

ويؤخذ عليه أنه يخالف جمهرة الأدباء في بعض الأمور ، حتى لقد انفرد وحده برأى لا يقره عليه أحد . ولا زلت أذكر — حين كنت أعد رسالة الماجستير عن زهير بن أبي سلمى — أنه نسبة الى غطفان أصلا وموطنا ، مع أن الرواة يجمعون على أنه « مزني » أصلا « غطفاني » موطنا ، والتحقيق يؤيد ذلك . وهو ينسب قيس بن الملوخ « مجنون ليلى » الى بنى جعدة بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة ، والرواة يجمعون على أنه من بنى عذرة المشهورة بالحب العذرى العفيف .

ويعاب عليه كذلك أنه يضرب صفحا عن ذكر الصفة اللصيقة بالشاعر ، فقد ذكر مثلا عن أبي العتاهية أنه رمى بالزندقة ، ونسي أنه كان ألهم الشعراء بالزهد والحث على نبذ الدنيا وعدم التهالك عليها . أما الزندقة فقد رمى بها في حيا شبابيه ، ثم انقلب الى زاهد ورع طيلة حياته . ولا يطوف بخاطر انسان اسم أبي العتاهية

من غير أن يقرن بالزهد والورع . ومن العريب أنه يروى له أبياتاً في الزندقة ولا يذكر له بيتاً واحداً في الزهد الذي اشتهر به .
ويؤخذ عليه أيضاً أنه أهمل فحولاً من الشعراء كان يجب أن يترجم لهم ، فلم يترجم لأبي تمام وقد توفي قبله بما يقرب من نصف قرن ، ولا للبحثري وابن الرومي وقد عاصراه ، والثلاثة من فحول الشعراء . وهو بذلك يحيد عن مبدئه الذي رسمه في المقدمة .
فإن قيل أنه لا يحتاج بشعرهم قلنا أنه ترجم لشعراء كثيرين محدثين أقل منهم شاعرية ، ولا يحتاج بشعرهم ، لأن آخر من يحتاج بشعره هو بشار بن برد كما يقولون . ويحتمل أن يكون قد ذكرهم في الجزء المفقود من الكتاب .

ويعاب عليه أنه يأتي بأخبار كثيرة فيها خرافة من غير أن يقيسها بمقياس العقل ، مع أن عنايته بالدراسة تبدو في هذا الكتاب أكثر منها في غيره . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فمن ذلك أنه يذكر أن عبيد بن الأبرص عاش أكثر من ثلثمائة سنة (١) ، وأن المستوغر بن ربيعة بن كعب السعدي عاش ثلثمائة سنة وعشرين سنة ، ومن العريب أنه يروى له شعراً يؤيد ذلك :

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وعمرت من عند السنين مئتي

مائة حدثها بعدها مائتان لي

وازددت من بعد الشهور سنيها (٢)

(١) الشعر والشعراء ١٤٤ ط لندن .

(٢) الشعر والشعراء ٢٢٧ ط لندن .

ولعلنا نذكر أن لبيد بن ربيعة له بيت صدره هو نفس الشطر
الأول من البيت الأول .

ومن العيوب التي لا تغتفر له أنه يضيف شعرا إلى شاعر ،
ثم ينسبه إلى شاعر آخر حين يترجم له . ومن ذلك أنه أضاف هذا
البيت إلى زهير :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة القدر (١)
وهذا البيت من قصيدة موجودة في ديوانه مطلعها : لمن الديار
بقنة الحجر .

ثم عاد ونسب البيت إلى المسيب بن علس حين ترجم له (٢) .
وهذا تخبط منه . وهناك بعض الأمثلة لهذا التخبط منبئة في
الكتاب .

ولعل من أقوم ما احتواه هذا الكتاب هذه الذخيرة الضخمة
من آراء القدماء في الشعراء وأشعارهم ، وهو بذلك يقدم لتورخي
قصد النصوص أجل صنيع . وقد يتناول أحيانا بعض الأبيات
المتحسنة بالشرح ليبين موطن الجمال فيها ، ولكنه قد يخطئ
في هذا الشرح . وغريب من ابن قتيبة أن يعجز فهمه عن إدراك
معاني بعض الأبيات ، وهو العالم اللغوي الكبير ، ومن أمثلة ذلك
أنه يشرح بيت النابغة المعروف :

ولست بمستيق أخا لا تلمته على شعث أي الرجال المهذب
فيقول : « يقول من لم تصلحه وتقومه من الناس فليست

(١) الشعر والشعراء ٥٨ ط لندن .

(٢) الشعر والشعراء ص ٨٤ طبة لندن .

بمستقبله ولا راغب فيه » (١) . وهذا التفسير — كما ترى — بعيد كل البعد عن الغرض الذى يرمى اليه الشاعر . والبيت حكمة معروفة متداولة تناولها شعراء كثيرون فى صور مختلفة . وقد وقع له مثل هذا القصور فى بعض كتبه الأخرى ؛ فيقول فى « كتاب الأشربة » فى شرح بيت زهير :

أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

« يريد أنه يعطى اذا بخلت النفوس » (٢) . وأنت ترى أن مفهوم البيت ومنطوقه لا يؤيدان مثل هذا المعنى ، فالشاعر يريد أن يصف ممدوحه بأنه رجل متصون ، لا يغشى مجالس الشراب ، ولا يتلف ماله فيها ، ولكنه يتلفه فى البذل والعطاء . وفى كتاب المعانى الكبير أمثلة لهذا الشرح الخاطئ :

وانى لتعرونى الدهشة حقا حين أجد ابن قتيبة الأديب العالم يزل هذه الزلات التى لا يقع فيها أبسط العقول ، واذا ذاك يمر بخاطرى قول الأزهرى فى ابن قتيبة بعد أن وثقه فيما يرويه : « فأما ما يستبد فيه برأيه من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حروف غريب ، فانه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة » (٣) .

وأنا أعزو سر ذلك الى ما ركب فى طبيعته من التناقض الذى يسيطر عليه فى بعض الأحيان : فهو يضع للنقد الأدبى مبادئ

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ .

(٢) الأشربة ص ٦٨ .

(٣) تهذيب اللغة ١٥/١ مخطوط .

جليلة ، منها تقويم الشعر من حيث هو شعر بدون نظر الى زمن
قائله وآراء الأدباء فيه ، ولكنه كثيرا ما يتسكب هذا المبدأ للتقويم
ويعتمد على آراء القدماء في حكمه ، ويضرب صفحا عن الشاعر
المحدث مهما كان مجيدا . وتجده يخوض في أعماق الأبحاث الأدبية
والدينية ويلمس أغوارها ، ويعجز في الوقت نفسه عن فهم بيت
سهل من الشعر . وتراه يؤمن بمسألة الالتحال في الحديث ويتوقى
رواية الأحاديث الموضوعة ، ثم تجده يدعم آراءه أحيانا بأحاديث
لا يخفى فيها أثر الالتحال .

والظاهر أن ابن قتيبة كان يشعر بأخطائه ، فكان يلتمس لنفسه
المعذرة بأنها زلات لا يسلم منها أى عالم مهما بلغ علمه ، والكمال
لله وحده جل شأنه . وفى ذلك يقول : « ولا أعلم أحدا من أهل
العلم والأدب الا وقد أسقط فى علمه ، كالأصمعي وأبى زيد
وأبى عبيدة وسيبويه والأخفش والكسائى والقراء وأبى عمرو
الشيئاني ، وكالأئمة من قراء القرآن والأئمة من المفسرين . وقد
أخذ الناس على الشعراء فى الجاهلية والاسلام الخطأ فى المعانى وفى
الأعراب وهم أهل اللغة وبهم يقع الاحتجاج » (١) ، ثم يقول بتعيد
ذلك « وليس صنف من الناس الا وله حشو وشوب .. ومن ذا صفا
فلم يكن له عيب ؟ ، وخلص فلم يكن فيه شوب ؟ » . ويذكر
ابن قتيبة لتقرير ذلك أن بعض فطاحل العلماء كانوا يعترفون بعجزهم
عن فهم بعض الأبيات ، فقد سأل أبو عبيدة أبا عمرو بن العلاء

(١) تأويل مختلف الحديث ٩٥ .

عن تفسير بيت من الشعر فقال : « ذهب والله الذين كانوا يعرفون تفسيره » (١) . واذن فابن قتيبة — كغيره من العلماء — معرض للزلل والعتار كما يريد أن يقول .

وهناك سؤال يتردد في أخلادنا بعد ذلك وهو : هل كان ابن قتيبة ذواقة للأدب ؟ وهل كان يثق الشعر ويحسن الحكم عليه ؟ الجواب عندي أنه كان كذلك في الأعم الأغلب . وأبرز ناحية تدفعنا الى هذا الجواب أنه كان يختار فيحسن الاختيار ، ويحكم فيصيب سواء المفضل . والأمثلة على ذلك لا يحصى ، وهي مشورة في كنه وبخاصة في كتابي الشعر والشعراء وعيون الأخبار ، وكلها تدل على أنه كان من أعظم نقاد الأدب في القرن الثالث ان لم يكن أعظمهم . وهاك نماذج على سبيل المثال لتدرك أنه كان يقدر الشعر ويعرف غثه من سمينه :

يقول ابن قتيبة : « وما سبق اليه النايعة ولم ينازعه قوله :

فانك كالليل الذي هو مدركي

وان خلت أن المتأى عنك واسع » (٢)

والحق أن هذا البيت من أروع ما قيل في سعة السلطان وبسطة السيادة . والصورة نفسها رائعة قوية . وانظر اليه في حكمه العكسي على البيت الذي يليه :

خطاطيف حجن في جبال متينة
تمد بها أيد اليك نوازع
فيقول : « رأيت قوما يستجيدونه وهو عندي غير جيد في

(١) كتاب المعاني الكبير ١١٣٧/٢ .

(٢) الشعر والشعراء ٨٠ ليدن .

المعنى ولا في التشبيه . وهو مصيب في حكمه ؛ فإن الخطاطيفه
 المحجن قد تعجز عن أن تصل إلى الغاية . وهو هنا يستعين في
 هذه بالعقل الخالص . وشبيه بهذا رأيه في بيت آخر عيب على
 الأعشى وهو قوله في ملك الحيرة :

ويأمر لليحموم كل عشية

بقت وتعلق فقد كاد يسبق (١)

وقالوا : « هذا مما لا يمدح به رجل من خساس الجنود ،
 لأنه ليس من أحد له فرس إلا وهو يعلفه قنا . ويقضمه شعيرا ،
 وهذا مديح كالهجاء » . ويرد ابن قتيبة ردا يلتمسه من الحق
 والواقع فيقول : « ولست أرى هذا عيبا لأن الملوك تعد فرسا
 على أقرب الأبواب من مجالسها بسرجه ولجامه ، خوفا من عدو
 يهجوها أو أمر ينزل ، أو حاجة تعرض لقلب الملك ، فيريد البدار
 إليها فلا يحتاج إلى أن يتلوّم (يتمكث) على اسراج فرسه
 والجامه ، وإذا كان واقفا غدتى وعشتى . فوضع الأعشى هذا
 المعنى ودلّ به على ملكه وعلى حزمه » (٢) . والواقع يؤيد
 ابن قتيبة .

ولو أحصيت لك جميع نظرائه الضائبة في الشعر في كتاب
 الشعر والشعراء لظال بي الحديث ، وحسبى من ذلك ما ذكرت .
 وقد عقد في « عيون الأخبار » فصلا بعنوان « حسن التشبيه

(١) اليحموم = فرس النعمان بن المنذر ، سمي بذلك لشدة
 سواده . القت = نوع من العلف . يسبق = يشتم من الشيع
 والتخمة . (٢) الشعر والشعراء ٢٢/١ طبعة شاكر .

في الشعر» (١)، وأنا أحيلك عليه لتدرك أنه يسوق الأبيات الرائعة التشبيهية ، مما يدل على سلامة ذوقه في الاختيار . ولم يكن يقف عند حد ذكر الأشعار ، بل كان كثيرا ما يبدى رأيه معارضا سابقه ، ومفتدا آراءهم ، وهاك مثلا واحدا من كثير : يقول الشاعر :

كأن نيرانهم في كل منزلة مصبغات على أرسان قصار (٢)
ويقول فيه ابن قتيبة : « الناس يستحسنون هذا » وأنا أرى أن أقول : الأولى أن يشبه المصبغات بالنيران لا النيران بالمصبغات . وهو يرى ذلك لأن الصفة في المشبه به دائما أوضح منها في المشبه ، ولون النار المندلعة الأوار أقوى من لون المصبغات . ويبدو منه أحيانا ذوق سليم حين يقارن بين الأبيات ، فقد ذكر أن العلماء يرون قول عمرو بن الاطنابة أحسن ما قيل في الصبر وهو :

وقولي كلما جشأت وجاشت

مكانك تحمدي أو تستريحي (٣)

ويعقب ابن قتيبة قائلا : وأحسن من هذا عندي قول قطري :

وقولي كلما جشأت لنفسي من الأبطال ويحك لا تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعني

(١) عيون الأخبار ١٨٦/٢ .

(٢) عيون الأخبار ١٩١/٢ . المصبغات = الثياب التي صبغت ولونت بالصيغ . الأرسان = الجبال . القصار = الذي يحسور الثياب ويدقها بالقصرة وهي قطعة من الخشب .

(٣) عيون الأخبار ١٩٣/٢ .

ولعلك توافقني على أن بيتي قطري من أروع ما قيل في الصبر
على الحرب ، والحث على الاقدام . واستحسن ابن قتيبة فيما يشبه
هذا المعنى قول نهشل بن حري بن ضمرة :

ويوم كأن المصطلين بحره وان لم تكن نار قيام ولا جمر
صبرنا له حتى ييوخ وانما تفرج أيام الكريهة بالصبر (١)
وهذان البيتان رائعان في وصف هول الحرب والصبر على

جاسائها .

على أية حال نستطيع أن نقول ان ذوقه في الاختيار من خير
الأذواق على العموم ، وكتبه في المختارات تدل على ذلك . واقرأ
هذه الأبيات لمحمد بن أبي حمزة مولى الأنصار ، اختارها لأنها
أغرب ما قيل في مصلوب :

لعمرى لمن أصبحت فوق مشدب

طويل تعفيك الرياح مع القطر

لقد عشت مسبوط اليدين مرزاً

وعوفيت عند الموت من ضغطة القبر

وأفلت من ضيق التراب وغميه

ولم تفقد الدنيا فهل لك من شكر (٢)

والأبيات — من غير شك — شديدة التأثير ، طريفة المعنى .

والأشعار التي اختارها للغزل في عيون الأخبار من أروع ما تقع

(١) عيون الأخبار ١/١٢٥ .

(٢) عيون الأخبار ٢/١٩٦ .

عليه عين مختار . ومن ذلك ما ذكره لأبي صخر الهزلي ، وهي
قصيدته الرائية التي مطلعها :

أما والذي أبكى وأضحك والذي

أملت وأحيا والذي أمره الأمر

ومنها :

ويا حبها زدني جوًى كل ليلة

ويا سلوة الأيام موعداك الحشر

وصلتك حتى قيل لا يعرف القلي

وزرتك حتى قيل ليس له صبر

ومنها :

عجبت لسعي الدهر يني وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

إذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها

كما انتفض العصفور بقله القطر

وختمها بهذا البيت :

هل الوجد الا أن قلبي لو دنا

من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر

وهي قصيدة جميلة عذبة الجرس ، ترددها الألسن لعذوبتها .

واختار أبياتا رقيقة لشاعر لم يذكر اسمه ، وهي في « أمالي

القالى » منسوبة الى يزيد بن الطثيرة (١) ونكتفى منها بهذا

البيت :

(١) أمالي القالى ١/ ١٩٦ .

وكنـت اذا ما جئت جئت بعـلة
فأفـنيت علـاتي فأيش أقـول

ولعل هذا البيت هو الذي أوحى الى شوقي أمير الشعراء أن
يقول على لسان المجنون في رواية « مجنون ليلى » :

كم جئت ليلى بأسباب ملفقة
ما كان أكثر أسبابي وعلاتي
وأورد للمجنون أبياتا من خير ما رثوى له منها :

وانى لأستغنى وما بي نـعـة
لعل خيالا منك يلقى خيالـيا

وأخرج من بين الجلوس لعلنى
أحدث عنك النفس في السر خالـيا

ويقول المجنون يصور أمله في الظفر بليلى تصويرا لم يسبق
له مثيل :

هان أعط ليلى في حياتي لا يتب
الى الله عـبد توبة لا أتوبها

ومما ذكره للعباس بن الأحنف :

أشكو الذي أذاقوني مودتهم
حتى اذا أيقظوني في الهوى رقـدوا

واستهضوني فلما قمت منتهضا
من ثقل ما حملوني في الهوى قعدوا

واختار لقيس بن ذريح أبياتا جميلة منها :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا

ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد

فزاد كما زدنا فأصبح ناميا

فليس وان متنا بمنفصم العهد

وهكذا كان ابن قتيبة سليم الذوق حين عمد الى اختيار هذه
الأشعار فى الغزل وفى غيره . ولكنى آخذ عليه فى هذا المقام اغفاله

أشعار عمر بن أبى ربيعة وجميل وكثير ، وهم من زعماء الغزلين .
وكان ذوقه يهديه أحيانا الى معرفة الشعر المصنوع من غيره ،

ومن ذلك أنه روى أبياتا لنظر بن حجاج ثم قال : « وأنا أحسب
هذا الشعر مصنوعا » (١) .

وكما كانت له سقطات فى تفسير بعض الأبيات كانت له كذلك

سقطات فى اضافة بعض الأشعار الى قائليها تدل على ضالة حظه
من الذوق الفنى . وعلة ذلك عندى التناقض الذى أشرت اليه

أقفا والذى يسيطر عليه أحيانا ؛ فبينما تجده رائع الذوق عميق
الفكرة ، يملأ نفسك اعجابا به واكبارا له ، اذا به يبهتك بذوق

ضئيل وفكر ضحل . واقرأ له هذه الأبيات يضيفها الى المتلمس :

واصلاح القليل يزيد فيه وتقوى الله من خير العتاد

وأعلم علم حق غير ظن وضرب فى البلاد بغير زاد

لحفظ المال أيسر من بغاء ولا يبقى الكثير مع الفساد (٢)

واللمحة الفنية الخاطفة تنبئنا بأن هذا الشعر لا يقوله شاعر

كالمتلمس ؛ فالسهولة البالغة ، والألفاظ السمجة اللينة ، ثم المسحة

(١) عيون الأخبار ٢٤/٤ (٢) الشعر والشعراء ٨٨ ط ليدن .

الدينية التي تعمّر الأبيات ، كل ذلك يجعلنا نرفض في غير تردد
نسبها الى المتلمس ..

ويخلط ابن قتيبة أحيانا خلطا يدعو الى الغرابة مبعثه التناقض
كذلك ؛ ومن ذلك أنه نسب الى البعيث هذه الأبيات الأربعة :
ولست بمفراح اذا الدهر سرّني

ولا جزع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى

ولكن متى أحمل على الشر أركب
ويعتده قوم كثير تجارة

ويعنى من ذلك دينى ومنصبى
هان مسيرى فى البلاد ومنزلى

للمنزل الأقصى اذا لم أقرب (١)
وبعد ذلك يوضع صفحات ذكر البيتين الأولين فقط ، ناسبا

ليأيهما الى تأبط شرا .
واذا جرينا وراء تعليله قلنا انها هفوات تعرض لكل عبقرى ،

ولا يسلم منها أى انسان .
ومهما يكن من شئ فهفواته قليلة لا تقدح فى عبقريته . وهو

على العموم رجل يثقف الشعر ويحسن الحكم عليه .
وأستطيع أن أقول بعد كل ما ذكرت انه وضع لبنة أساسية

فى تاريخ الأدب العربى ، بما ساقه لنا من أخبار عدد حافل من
الشعراء ، وبما ذكره لنا من تحليل لبعض الظواهر الأدبية .

(١) عيون الأخبار ١/ ٢٧٥ .

الفصل الرابع

أثر ابن قتيبة في النقد

بيننا في الفصل السابق أثر ابن قتيبة في الشق الأول من الأدب الوصفي ، وهو تاريخ الأدب ، وعرفنا أن كتابه « الشعر والشعراء » لم يكن من التاريخ الأدبي في شيء كثير ، وإنما كان لبنة طيبة في أساس هذا العلم .

ونريد في هذا الفصل أن نبين أثر ابن قتيبة في الشق الثاني من الأدب الوصفي وهو « النقد » . ولا جدال في أن آراءه كانت ذات أثر بعيد الغور في النقد من الناحية النظرية على الأقل . وقد سجل تلك الآراء في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » .

ولكني نذكر صنيع ابن قتيبة في هذا الفن يجعل بي أن أذكر كلمة عاجلة عن النقد وتطوره حتى أسلمته المقادير إلى ابن قتيبة ، وبذلك نستطيع أن نقف على الخطوات الساذجة التي خطاها النقد في ثورة ، والدرجات التي توقلها على يد ابن قتيبة :

كان للعرب في أخريات العصر الجاهلي مجالس أدب وأسواق يرتادها الناس من كل فج ليشهدوا منافع لهم وليتناشدوا الأشعار .

وكانوا الى جانب ذلك يلتقون في رحاب الملوك والأمراء من المناذرة
والغساسنة وغيرهم يتشددونهم أشعارهم ، وكان التنافس بينهم
يلدفعهم الى أن ينقد بعضهم بعضا . وهذه كانت المحاولات الأولى
في النقد . ومن ذلك ما نعرفه من حكومة النابغة المشهورة في
سوق عكاظ . ويروون كذلك أنه « دخل يثرب فغنى بشعره ففطن ،
فلم يعد للاقواء » (١) . ويعزون الى طرفه أنه عاب على المتلمس
نعتة البعير بشعوت النياق وقال : « استنوق الجمل » (٢) ، فضحك
الناس وصارت مثلا .

وأبلغ من ذلك دلالة على وجود هذا النقد أن الشعر قد أصبح
في هذا العصر فنا يتلقى على أساتذة ، ووجدت له مذاهب
مختلفة ، وأصبحنا نرى من الشعراء الجاهليين من كان له أستاذ
يروى شعره ويتخرج على يديه ، مسترشدا بمنهجه الفني ، مثل
زهير بن أبي سلمى والحطيئة والأعشى .

ويلاحظ أن هذا النقد الناشئ كان يتجه الى الصياغة والمعاني
ويعرض لها من ناحية الصحة والانسجام ، كما توحى به السليقة
العربية . فهو نقد فطري لا يربط بين الشاعر وبين بيئته وزماته .
واذن فلا مرء في أن ما روى من القصص التي تتضمن النقد
التفصيلي مرفوض من أساسه ، كقصة النابغة مع حسان والخنساء
وهي معروفة مشهورة ، وكقصة أم جندب الطائية زوج امرئ

(١) الشعر والشعراء ص ٤٢ طبعة الشيخ شاكر .

(٢) الشعر والشعراء ص ١٣٥ شاكر .

القيس التي احكم اليها امرؤ القيس وعلقمة الفحل ، وقضت فيها لعلقمة (١)

وهناك مسألة أخرى متصلة بالنقد اتصالا وثيقا ، تلك هي قصة « المعلقات » . فهذه القصة — ان صحت — تدل على أن اختيار هذ القصائد دون غيرها حكم ضمنى على جودتها . ولكنى لا أطمئن الى صحتها . وقد تحدثت عنها حديثا مستفيضا في كتابى عن زهير بن أبى سلمى (٢) .

ولما بعث النبى الكريم رأى أن يجتد الى جانب حملة القنا والصوارم ، اللسن المقاول . وكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب ، يتذوق الكلام البليغ ويخوض فى الشعر مع الوافدين ، وقد أعجب بشعر النابغة الجعدى وقال له : « لا يفضض الله هاك » ، وكان يستنشد الخنساء ويستزيدها ويقول لها : « هيه يا خنساء » .

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم يخوضون مع الوفود التي كانت تقعد على المدينة فى الشعر وفى المفاضلة بين الشعراء . وأظهرهم فى هذا الباب الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ، وله فى ذلك حكايات كثيرة معروفة . ويعتبر عمر أول من أقام حكما فى النقد على أصول متميزة وأسباب واضحة . ولكنه على أية حال كان قد فطريا .

(١) انظر هذه القصة بالتفصيل فى كتاب المعانى الكبير ٨١/١ .

(٢) انظر كتاب زهير بن أبى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية

وظل النقد على تلك الحال ناشئاً يافعا الى قبيل أواخر القرن الأول ، لا يعدو أن يكون نظرات يسيرة تبني على أمور موجزة من المقاييس الأدبية . ثم تبدلت الحال غير الحال في أخريات القرن الأول ، لأن الناس تعمقوا في فهم الأدب ، ووازنوا بين شعر وشعر وبين شاعر وشاعر ، حتى انه لم يكن القول — في شيء من التجاوز — ان عهد النقد الطحيح يتبدى من ذلك الوقت ، وان كل ما سبق له لم يكن سوى نواة أو محاولات فيه . وكتب الأدب مترعة بالأمثلة الكثيرة ، وحسبى أن أسوق لك منها هذه الأمثلة :

ذكر ابن قتيبة أن عبيد الله بن قيس الرقيات أشد عبد الملك ابن مروان أبياتا رقيقة القافية ، فقال له الخليفة : « أحسنت لولا أنك خنت في قوافيك » (١) .

وكانت سكينه بنت الحسين رضي الله عنهما عفيفة بررة ، تجالس الخيرة من الناس ، ويجتمع اليها الشعراء محكمين ، وكانت طريفة مزاحمة ، وكان مجلسها نموذجا طريفا (للصالونات) الأدبية في ذلك الحين . وقد روى أنه اجتمع في مجلسها ذات مرة راوية جرير وراوية جميل وراوية نصيب وراوية الأحوص ، فأخذ كل منهم يفخر بصاحبه ، فاجتكموا الى سكينه ، فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجعي بسلام

(١) الشعر والشعراء ص ٥٢٥ تحقيق الشيخ شاكر .

وأي ساعة أحلى من الطروق ؟ « قُبِحَ الله صاحبك وقبح شعره » . ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
ولكن طلايها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى ، إنما يطلب عقله ، « قُبِحَ الله صاحبك وقبح شعره » .

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهيم بدعد ما حيت فان أمت

فواحرنا من ذا يهيم بها بعدي

فما أرى منه إلا حين يعشقها بعده ، « قُبِحَ الله وقبح شعره » . ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذي يقول :

من عاشقين ترأسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا

بانا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قُبِحَ الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال « تعاقبا » . ولم تقدم

أحدا منهم في ذلك اليوم (١)

وهالك مثلا آخر من النقد الذي ظهر في ذلك العصر :

أشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة :

سائلا الزمع بالبلى وقولا هجت شوقا إلى الغداة طويلا

أين حي حنوك إذا ألبست محفوف بهم أهل أراك جيلا

(١) أغاني ساسي ٧/ ٥٠ .

قال :

قال : ساروا فأمعنوا فاستقلوا وبرغمي لو استطعت رحيلا
سئموننا وما سئمنا مقاما وأحبوا دماثة وسهولا
فقال جرير : « ان هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه
هذا القرشي » (١) وكانوا يقولون : « ان جريرا يغترف من بحر
والفرزدق ينحت من صخر » .

وقد وجد في هذا العصر الاسلامي مجالس أدب عامة تشبه
مجالس الأدب في الجاهلية ، كمربد البصرة ومسجد الكوفة .
وكانت حلقات الشعر تنظم فيها ، وبخاصة في المربد ، اذ كان
يرتاده من حين لآخر جرير والفرزدق والراعي للمهاجاة والتفاخر ،
ونشأ عن ذلك ما يعرف « بالنقائض » .

ولعلك تلاحظ معنى أن هذه الآراء في النقد تدل على أن
العرب قد فطنوا الى كثير من خصائص الشعر الجيد ، كروعة
النغم ورقة الشعور وجودة المعاني وطرافتها ، وتدل على أن النقد
قد دقت عبارته ، وأصبح الناقد يجنح الى التعليل بعض الشيء ،
ولكنه كان يعتمد — على كل حال — على السليقة والذوق
العريين .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول ان النقد ظل فطريا تأثريا بعيدا
عن روح العلم ، ولا يعتمد على تحليل النصوص تحليلا يبين
خصائصها الدقيقة . وهؤلاء النقاد كانوا عربا خلصا ، ينقدون
بدافع من سليقتهم وطبعهم .

(١) أغاني بولاق ٤٧/١ .

أما الذين نطقوا العربية تعلّمًا وتقّدوا الشعر تعلّمًا ، وكانوا يدرسون اللغة ويحلّونها ليعرفوا أسرارها وأوجه الجمال والقبح فيها فهم اللغويون والنحويون ، ومعظمهم من الموالي . وكان أثرهم في النقد خطيرا ، واليهم يرجع الفضل في تدوين كثير من مقاييسه وأصوله . وهؤلاء هم العلماء الذين خلقتهم الحياة الإسلامية الجديدة .

وقد أخذت هذه الطائفة تستقرئ كلام العرب لتستنبط منه قواعد النحو ووجوه الاشتقاق وأعراض الشعر ، وأصبح نقدهم للشعر لا يتصل برقته وجودة معانيه ، وإنما يتصل بمسارته للقواعد والأصول التي هداهم إليها استقراؤهم في الأعراب والوزن والقافية واللغة . وهذا النقد بعيد عن روح النقد الأدبي ولا دخل للذوق فيه .

بيد أن فريقا من هؤلاء العلماء كان يروى الأشعار والأخبار والملح ، وكانوا من أئمة العربية الذين يترجع اليهم في حل المشكلات ، ولهم في نقد الأدب آراء يُعتد بها . وهؤلاء يُعتبرون من النحويين واللغويين الذين قوّوا دعائم النقد الأدبي ، كعنبسة الفيل وميمون الأقرن وعيسى بن عمر الثقفي وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب ، وكالأصمعي وخلف الأحمر وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة ومحمد بن سلام الجمحي من البصريين ، والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي وحمام الراوية من الكوفيين . وإلى هؤلاء جميعا يرجع الفضل في جمع اللغة والأدب وأخذهما من مناهلهما ونشرهما في الأمصار .

وقد جرهم ذلك الى التعمق في فهم الشعر وتذوقه وادراك
مميزات الشعراء ، فعرفوا مثلاً أن جريراً قوى الطبع صادق
الشعور ، وأن الأعشى يستعمل كثيراً من الأوزان في شعره ، وأن
امراً القيس قد أتى بمعان لم يسبق اليها وأنه بجس عين الشعر
للشعراء .

وكان لهؤلاء اللغويين الفضل الأكبر في جمع الحجج التي أدلى
بها أنصار كل شاعر ، وهذه الحجج كانت من الدعائم القوية التي
بُنِي عليها النقد وتاريخ الأدب .

وهذه الآراء تعتبر في جملتها من النقد الذاتي Subjective
لأنه نقد يختلف باختلاف الأذواق والثقافات . ولذلك نراهم
يختلفون في تقدير الشعر والشعراء . ويقول يونس بن حبيب :
« ما شهدت مجلساً قط ذكر فيه الفرزدق وجرير ، فاجتمع أهل
ذلك المجلس على أحدهما » (١) . وهذا الكلام يصور ذاتية النقد ؛
فمن كان يميل الى جزالة الشعر وشدة أسره يقدم الفرزدق ، ومن
كان يميل الى الشعر السمج المشرق يقدم جريراً .

ولا ريب أنه كان في الشعر عناصر جيدة ترضى الناس جميعاً
ولا تختلف فيها الأذواق . ويدلنا على ذلك أنهم يكادون يجمعون
على أن امراً القيس والنابعة وزهيرا والإعشى في الطبقة الأولى
من الجاهليين ، وأن جريراً والفرزدق والأخطل في الطبقة الأولى
من الاسلاميين . واذن فلا بد من القول من أنه كان هناك ذوق
أدبي عام يقوم على خصائص عامة .

(١) الفيت المنسجم ١٩٨/١ .

ونستخلص من أقوال هؤلاء اللغويين النقاد أن المفاضلة كانت تقوم على دعامين أساسيتين : أولاها كثرة ما أثر عن الشاعر من شعر ، وثانيتهما جودة هذا الشعر الغزير . وتتحقق هذه الجودة بتوفر الخصائص العامة التي تستجيبها الأذواق .

وقد ظهر الى جانب هذا النقد نوع آخر لا يتصل بالجوادة والرداءة ، ولا يخوض في الموازنة بين الشعراء ، ولكنه يربط الشاعر ببيئته وبالعوامل التي اختلفت عليه ، ولا شك أن اللغويين هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه في النقد بحكم مهمتهم الشاقة الجليلة التي اضطلعوا بها ، وهي جمع اللغة والأدب . وقد دعاهم ذلك الى دراسة البيئات العربية لمعرفة خلوها من شوائب الدخيل واللحن . وقد هدتهم تلك الدراسة الى أن يعللوا كثيرا من الظواهر في الشعر العربي ، وأن يفرقوا بين الشعراء من حيث ملازمتهم للروح العربية أو مقارفتهم لها حتى تبين منزلتهم في ميدان الاستشهاد بالشعر . ومن ذلك ما يقوله يونس بن حبيب عن ابن قيس الرقيات : « ليس بفصيح ولا ثقة ، شغل نفسه بالشراب بتكرير » (١) . وكان العلماء يقولون عن عدى بن زيد انه « كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جدا » والعلماء لا يرون شعره حجة » (٢) ، وذلك لأن كلا منهما تأثر بمن حوله من الأخلاط ، ففقد ذلك في فصاحته . وهذا النوع من النقد لا يعتمد على ذوق خاص ولا على ذاتية

(١) أغاني ساس ١٦٠/٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص ١٧٦ شاكر .

خاصة ، وانما هو يعتمد على صلات الشاعر ببيئته وظروفه ، ويسمى
بالنقد الموضوعي Objective .

ويتصل بهذا النقد الموضوعي ضرب آخر من النقد يبحث في
صحة اضافة الشعر الى صاحبه ، لأن الافتعال شاع اذ ذاك في
الشعر كما شاع في الحديث لأسباب لا يتسع المقام لذكرها ، وقد
أشار اليها ابن سلام في مقدمة كتابه . وأشهر من عُرف باتحال
الشعر رجلان هما : خلف الأحمر البصرى وحماد الراوية الكوفى ،
وشاركهما في شئ يسير جدا شيخ اللغويين أبو عمرو بن العلاء .
وقد دعت هذه الظاهرة اللغويين الى أن يبحثوا في المتن وفي
السند كما يفعل رجال الحديث . ويرى أستاذنا المرحوم « طه
ابراهيم » أن هذا النوع من النقد أقرب الى النقد التاريخى منه
الى أى شئ آخر (١) .

وأول من صنف فى كل هذه المعارف كتابا خاصا وزاد عليها
وجعلها بحثا علميا ذا أصول هو « محمد بن سلام الجمحى
البصرى » ، وذلك الكتاب هو « طبقات الشعراء » . وقد ضمن
هذا الكتاب الآراء المبعثرة التى قيلت فى الشعر والشعراء ، ومحصلها
وزاد عليها وبحثها بحث عالم متأثر بروح عصره من حيث التعليل
وردة الظواهر الأدبية الى أسبابها على قدر ما تتسع له عقليته .
وسنعرض مقارنة بينه وبين ابن قتيبة فى فصل خاص .
وقد عرض ابن سلام فى المقدمة لمسألة الشعر الموضوع ،

(١) تاريخ لنقد الأدبى عند العرب ص ٧٣ ، وقد اعتمدنا على هذا
الكتاب القيم كثيرا .

وأرجع أسباب الوضع الى أمرين : الأول : العصبية في العصر الاسلامي ، وحرص كثير من القبائل العربية على أن تضيف الى أسلافها ضروبا من السؤدد والمجد . الثاني : الرواة أنفسهم ورغبتهم في زيادة الأشعار . وكان ابن سلام يشير في كثير من المواضع الى نظرية الشعر المنحول في حديثه عن الشعر والشعراء في شيء كثير من الدقة يدل على المامه بالفكرة الماما طيبا . ولا ريب في أنه قد درس الشعر الجاهلي دراسة طيبة ووقف على طبع كل شاعر . ثم وضع بعد ذلك الشعراء في طبقات متخذة الكثرة والجودة مقياسه . وهو يتناول كل شاعر ، موردا بعض أخباره في اقتضاب شديد ، وشيئا مما يستجد من شعره وآراء بعض القدماء ، من غير أن يتعرض لتحليل النصوص تحليلأ أدبيا يبين مواطن الروعة فيها ، بل يكتفى بالحكم على الشعراء وتعليل بعض الظواهر الأدبية ويضع كل شاعر في طبقته .

والظاهر من اضطراب المقدمة أن الكتاب كتابان ألف ابن سلام كل واحد منهما على حدة ، وجعل لكل مقدمة ، ثم اندمجت المقدمتان ، فكان ذلك سر ما في المقدمة من اضطراب . وقد أشار ابن النديم الى ذلك (١) . ولا ريب في أن ابن سلام قد استضاء بآراء سابقيه من اللغويين والنحاة .

ولكننا نأخذ على ابن سلام أنه لم يحلل النصوص ليبين جمالها كما قلنا . ونأخذ عليه كذلك أنه لم يطبق مقياس « الكثرة والجودة » بدقة حين ينزل الشعراء منازلهم . فأحيانا يضع

(١) الفهرست ص ٦١ .

شعراء في طبقات دون أقدارهم ، ويضع آخرين في طبقات لا يستحقونها من غير أن يبدى لذلك سببا . وعلة ذلك — فيما أرى — صعوبة تقسيم الشعراء الى عشر طبقات ويجاد الفروق الدقيقة التي تميز هذه الطبقة من تلك .

ومما نأخذه عليه أنه أعرض عن ذكر شعراء نابهين مثل عمر بن أبي ربيعة والطرماح بن حكيم والكميت الأسدي . ثم انه وضع شعراء جاهليين بين الاسلاميين مثل بشامة بن الغدير وقراد ابن حنش وأبي زيد الطائي ، وهؤلاء جاهليون . ومهما يكن من شيء فكتاب ابن سلام يعتبر أول الكتب التي وضعت في النقد الأدبي .

وهنا أحب أن أشير الى مسألة هامة تعيننا على اتجاه ابن قتيبة في النقد قبل أن نصل اليه ؛ تلك أنه لما قامت الدولة العباسية وامتزج العرب بغيرهم من الموالي وبخاصة الفرس وتعددت الحياة نشأ جيل من الشعراء يعرفون بالمحدثين . ومنذ ذلك العهد صار الشعراء طائفتين : طائفة تحتذى القدماء ، ولا تجدد الا بمقدر ما يساير الحياة الجديدة ولا يجافى الروح العربية ، ومن هؤلاء مروان بن أبي حفصة ودعبل الخزاعي وعلى بن الجهم وأشجع السلمي . وطائفة أخرى مالت الى التجديد وعلى رأسهم بشار شيخ المحدثين والعتابي وأبو نواس ومسلم بن الوليد ، ثم أبو تمام وابن المعتز . ويقول ابن رشيق ان المشهور ان أول من فتح البديع بشار بن برد ، واقتدى به كلثوم بن عمرو العتابي وأبو منصور النمرى وأبو نواس ومسلم بن الوليد ، واقتفى

البديع الى ابن المعتز واختتم به (١) . وكان التجديد الذي أحدثته هذه الطائفة يتصل أكثر ما يتصل بالزخرف والتنسيق . وقد وجدوا لهذه الصنعة أصولا ونماذج في الشعر القديم جاءت عفوا عن غير قصد ، وأنفوتها كذلك في القرآن الكريم ، وفي الأحاديث .

ووجدت اذن مدرسة جديدة شيخها بشار ، وأصبح الشعر فنا يسير الشاعر فيه وراء الجمال ويشقى في العثور عليه ، وصارت الألفاظ تبدل والعبارات تغير ليحدث اللفظ طربا في السمع وليتحقق به للشاعر نوع من أنواع البديع . ولم يعد الغرض من تبديل الألفاظ وتغيير العبارات ايضاح المعنى أو تحديده .

وقد كان هذا — بطبيعة الحال — مؤذنا بوجود خلاف بين النقاد ، فبعضهم يؤثر القديم الجزل ، وبعضهم يؤثر الحديث الرقيق المزخرف . وأشد النقاد تعصبا للقدماء وتحاملا على المحدثين هم اللغويون ، فهم لا يكادون يقرّون لمحدث بسبق . وسبب ذلك واضح ؛ فانهم كانوا يرتادون البادية ويأخذون اللغة عن فصحاء الأعراب ويروون الشعر ، فتأثرت أذواقهم بالشعر القديم ، وأصبحوا لا يحفلون كثيرا بأشعار المحدثين . هذا الى أنهم كانوا يرون اللغة العربية لغة صحراوية تتصل بما في الصحراء من جماد وحيوان ونبات ، واذن فهي لا تزدهر الا في البداوة . ولهذا كانوا يعتقدون أن الإقامة في الحضر تفسد الملكة الفنية العربية وتجلب اللحن . والشعر المحدث وليد الحضارة ، فهو اذن يجافى الروح

العربية ، وقد لا يخلو من اللحن في الاعراب أو في الاشتقاق .
زد على ذلك أنهم كانوا في حاجة الى الشواهد ، وكانوا لا يطمنون
بطبيعة الحال الى لغة المحدثين .

وقد كان على رأس هؤلاء المتعصبين للقديم شيخهم أبو عمرو
ابن العلاء . وكلما أوغل الشاعر في القدم كان في نظره أجدر
بالقديم والتقدير ، ولهذا يقول : « لو أدرك الأخطل يوما واحدا
من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا » . وجرى على مذهبه ابن الأعرابي
وخلف الأحمر وأبو عبيدة والأصمعي وغيرهم .

وقد تصدى الأنصار القديم أبو نواس ، وأخذ يسفّه مذاهبهم
وينعى على من يحتذيه ، ويطعن الشعر العربي في أخص خصائصه ،
وهو بدء القصائد بالنسيب والوقوف على الأطلال ومساءلة
الدمن ، وأمزه في ذلك معروف . ولكن صيحته هذه كانت نفخة
في واد ، ولذلك فراه هو نفسه يسير في درب الشعر القديم ، فيقف
على الأطلال أحيانا ويخاطب الربع ويذكر انضاء الراحلة .

على أنه يجب أن نعترف بأن محاولة أبي نواس هذه تعتبر
لفتة فذة في النقد الأدبي ، لأنه يريد أن يحقق الصلة بين الأدب
والحياة ، أي انه يريد أن يكون الأدب مرآة الحياة على حد تعبير
العربيين .

هكذا كان النقد في نهاية القرن الثاني : تعصّب للقديم يبلغ
حد التحامل على المحدثين ، ومحاولة من أنصار التجديد فيها شيء
غير قليل من الإزراء بالقديم .

وظلت الحال كذلك حتى بزغ فجر القرن الثالث ، فكان بحق

عصر تجديد تناول النقد في ظواهره وفي أشكاله ، بل في جوهره وفي حقيقته .

نعم أصبح النقد في هذا العصر يقوم على العناصر التي أشرنا إليها ، ويقوم كذلك على الثقافة والفلسفة والمنطق ، وعلى كل ما دخل الذهن العربى من المعارف الأجنبية التي ترجمت ، وبخاصة كتب أرسطو في الشعر والخطابة . فلقد أقبل كثير من أدباء هذا القرن على هذه العلوم الحديثة واغترفوا منها في قلة أو في سعة ، كل على حسب ميله وذوقه ، كما ازور عنها كثير من العلماء الذين لا يؤثرون على الثقافة العربية أية ثقافة أخرى ، مثل أبى حاتم السجستاني وأبى الفضل الرياشى وابن السكيت ومحمد بن يزيد المبرد وأبى العباس ثعلب . هؤلاء جميعا ومن لف لفهم كانت ثقافتهم عربية أو تكاد ، فكانوا يجمعون بين العلم بالنحو والعلم باللغة والأدب ، ولا يخلو أحدهم من أثر في نقد الشعر . وائبك لتعرف اتجاهاتهم في النقد من كتاب « الكامل » للمبرد ، وعلى الأخص في باب « التشبيه » ، اقفه تجد كثيرا من أحكامهم على الشعر ؛ اذ يختار المبرد خير ما عرّف من التشبيه المصيب الجيد ، ويعقب على ذلك بالحكم الذى يبين منهج القوم في النقد في ذلك الحين .

وقد وجد الى جانب هؤلاء وأولئك فريق آخر أخذوا بحظ من الثقافات الأجنبية الى جانب ثقافتهم العربية ، فكان لهم ذوق خاص في نقد الأدب يعتمد على القديم أولا وقبل كل شيء في الروح وفي الخصائص العامة الأصيلة ، ويتأثر مع هذا بالمعارف

التي نقلت الى اللسان العربي ، وب عقلية العلماء في التنظيم والترتيب . وخير من يمثل هذا الفريق عالمنا وأدينا « أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة » ؛ فقد أخذ نصيبا ضخما من الثقافة العربية الرصينة ، وحصل على قدر عظيم جدا من العلوم الشرعية والدينية ، وظفر الى جانب ذلك بحظ لا بأس به من الثقافات الأجنبية .

كان ابن قتيبة في الواقع وسطا بين المذهبين ، وكان سياجا قويا يحول دون طغيان الثقافات الأجنبية على الثقافة العربية . ونحن نقرأ له في مقدمة « أدب الكاتب » شكواه المريرة من انحراف المتبحرين عن النظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وفي علوم العرب ولغتهم وآدابهم ، وانصرافهم الى العلوم المترجمة انصرافا يكاد يتما بينهم وبين تراثهم من صلة . ولكنه مع ذلك يحث الكتاب والأدباء على التزود من هذه العلوم الأجنبية في قصد لما لها من مزايا .

وابن قتيبة لا يكره المنطق لأنه يجهله ، وانما يعيب على معاصريه أنهم يسرفون فيه الى حد يصرفهم عن الثقافة العربية الاسلامية التي هي أخلق بالدرس من غيرها .

يريد ابن قتيبة للناس في عصره اتزانا في العلم وملاءمة بين المعارف ، فلا يدعون العلم العربي وينكبون على المعارف الأجنبية التي تصد عقولهم وأذواقهم على حد اعتباره .

ولا شك أن رجلا كابن قتيبة له هذا الباع الواسع في هذه المعارف المتنوعة الفسيحة المستقرة في ذهن خصيب اذا تصدى

للقند كان له فيه منحي خاص وذوق يتناسب مع هذا الذهن
الصقيل الواعي .

ومن اليسير أن ندرك بعد ذلك منحي هذا الرجل في النقد ،
وهو البحث في الأدب بروح العلم . أعني أنه جعل النقد كالعلم
دقة وتحديدا ، وبذلك يصبح له ضوابط وأصول محددة محصورة .
وقد وجب علينا الآن أن نقول ان ابن قتيبة أول من وضع في نقد
الشعر قواعد وضوابط دقيقة نوقفك عليها الآن .

ومقدمة كتابه « الشعر والشعراء » تعتبر خطوة جريئة نقلت
النقد الأدبي من حال الى حال .

والآن أتناول ما أزجاه ابن قتيبة للنقد من وضع ضوابط
واضحة المعالم في افاضة واسهاب .

١ — تدبر ابن قتيبة الشعر فوجده أربعة أضرب : ضرب حسن
لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته
لم تجد هناك فائدة في المعنى ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه
عنه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه . وقد ضرب ابن قتيبة الأمثلة
الكثيرة لكل ضرب من هذه الأضرب ، وهي تدل على أنه كان
حسن الذوق والاختيار الى حد بعيد : فمن الضرب الأول قول
أبي ذؤيب :

والنفس راغبة اذا رغبت بها واذا ترد الى قليل تقنع

وهذا البيت من أبدع ما قالته العرب لفظا ومعنى . ومن
الضرب الثاني قول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

وهذه الأبيات حسنة الجرس جميلة المقاطع والمخارج ، ولكن
معناها دارج . وقد تناول هذه الأبيات بالتفصيل عبد القاهر
الجرجاني وضياء الدين بن الأثير مبينين روعة الصورة البيانية
التي أضفت على المعنى الدارج الجدة والجمال (١) . وأشار الى
هذه الأبيات الفيلسوف أبو الوليد بن رشد فى تلخيصه كتاب
الشعر لأرسطو ، ويثبت أن الصورة البيانية هى التى خلقت من
هذه الألفاظ شعرا جميلا ، ثم قال : « انما صار الكلام شعرا
لأنه استعمل قوله وسالت .. البيت » (٢) . ومن الضرب الثالث
قول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح
فهذا البيت جيد المعنى الا أنه قليل الماء والرونق ، ليس فيه
شئ من الطلاوة والاشراق . ومن الضرب الرابع قول الأعشى :

(١) انظر أسرار البلاغة ص ١٦ طبعة المنار ، والمثل السائر
٣٥٣/١ طبعة مصطفى الحلبي .
(٢) انظر كتاب « فن الشعر » لأرسطو ص ٢٤٢ تحقيق الدكتور
عبد الرحمن بدوى .

ولقد غدوت الى الحانوت يتبعني

شاو مثل شلول شلشل شول (١)

وأنت ترى أن البيت غثّ المعنى واللفظ ، وفيه أربعة ألفاظ يمكن أن يستغنى بأحدها عن جميعها .

ويجب أن أقرر أن الجاحظ قبل ذلك قد قسم الشعراء الى أربعة أقسام : فأولهم الفحل الخنذيذ والخنذيذ هو التام ، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعور . ثم يقول الجاحظ بعد ذلك : « وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاثة : شاعر وشويعر وشعور » (٢) .

فالجاحظ يقسم الشعراء وابن قتيبة يقسم الشعر . ومن الجائز أن يكون ابن قتيبة قد أخذ فكرة التقسيم عن الجاحظ . ولكن تقسيم ابن قتيبة مبني على علل وأسباب محددة . وليس من شك في أن ابن قتيبة والجاحظ قد اطلعا على كتاب الشعر لأرسطو ، وهذا الكتاب كان قد ترجم في ذلك الحين الى العربية . ولكن كل واحد من هؤلاء قد اعتمد في تقسيمه على أساس يختلف عن أساس الآخرين : فأرسطو يقسم الشعر على أساس الموضوع : الملهاة والمأساة والملحمة .. الخ ويتحدث عن عناصر كل منها في تفصيل ، ثم يتناول اقسام الشعر وفقا لطبائع الشعراء ، « فذوو النفوس النبيلة حاكوا الفعال النبيلة وأعمال الفضلاء » ،

(١) هذه الألفاظ كلها بمعنى واحد ، ومعناها الرجل الحسن الصلبة ، السريع في تلبية الحاجة .

(٢) البيان والتبيين ٢١/١ .

وذوو النفوس الخسيسة حاكوا فعال الأدنياء ، فأنشأوا الأهاجي ،
بينما أنشأ الآخرون الأناشيد والمدائح » (١) ، لأن الشعر عنده
محاكاة . والجاحظ يقسم الشعراء الى أقسام من غير أن يضع
معالم لكل قسم تميزه عن غيره . وابن قتيبة يقسم الشعر بحسب
قيمة اللفظ والمعنى .

ومن جميع الأمثلة التي ساقها ابن قتيبة لأضرب الشعر ندرك
ما يقصده من « اللفظ » ، فهو يقصد به رصف الكلمات وانسجامها
وتألفها وحسن وقعها ، أى الصياغة كلها بما تجمع من لفظ ووزن
وروى . ويقصد بالمعنى الفكرة التي تنبعث من الشعر ، والتي
يريد الشاعر أن يسوقها لنا في عباراته .

ويبدو لنا من تقسيم ابن قتيبة للشعر أنه متأثر بالروح العلمية ،
لأن هذا التقسيم — كما ترى — جاء نتيجة حصر علمى دقيق .
ويتضح لنا كذلك أنه يعتبر الشعر كل كلام موزون مقفى .
وأرسطو أدق من ابن قتيبة في هذه الناحية لأنه يعتبر الكلام الذي
ليس له من خصائص الشعر الا الوزن والقافية « أقاويل » ، ويعتبر
قائله « متكلماً » وليس شاعراً (٢) .

والمعاني الجيدة في نظر ابن قتيبة هى التى تأتى عن طريق
الحس فى الغالب ، وتصدر عن تجربة أو أمر واقع فى الحياة
أو يمكن تحقيقه .

(١) انظر « فن الشعر » لأرسطو ص ١٣ وما بعدها تحقيق
الدكتور عبد الرحمن بدوى .
(٢) فن الشعر لأرسطو ص ٢٠٤ .

وقد فات ابن قتيبة في هذا المقام أمر هام جدا ، وهو ضرورة
 ائتلاف اللفظ مع المعنى ، أعنى أن اللفظ يجب أن يناسب المعنى .
 فالفخر مثلا يناسبه الألفاظ الجزلة التى تملأ الفم ، والغزل يناسبه
 الألفاظ الرقيقة الناعمة . وائتلاف اللفظ مع المعنى هو الذى
 يسميه عبد القاهر الجرجاني « النظم » . وقد أفاض الجرجاني
 في هذه المسألة حين تحدث عن بلاغة القرآن في كتابه « دلائل
 الإعجاز » فذكر أن اعجاز القرآن ليس في اللفظ وحده ولا في
 المعنى وحده ، وإنما هو في « النظم » ، أى ائتلاف اللفظ مع
 المعنى وتناسبهما واتساقهما . ولم يتعرض ابن قتيبة لهذه المسألة
 مع أنها من أهم مقاييس الشعر .

٢ — تناول ابن قتيبة ظاهرة هامة تعتبر من أخص خصائص
 الشعر العربى ، وهى بدء القصيدة العربية بالنسيب . وقد أفاض
 في تعليل ذلك تعليلا منطقيا ، فذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ
 بذكر الديار ومخاطبة الدمن ، فبكى وشكا واستوقف الرفيق ،
 ذاكرا أهلها الطاعنين عنها ، لأن أهل الوبر ينتجعون مساقط الغيث
 على خلاف ما عليه نازلة المدر . ثم خلاص من ذلك الى إظهار شدة
 الوجد وألم الفراق وفرط الصباية والشوق ، ليميل نحوه الوجود
 ويجتذب الأسماع .

وهنا يتناول ابن قتيبة أمرا يتصل بالنفس البشرية ، فيقول
 ان الشاعر يخوض في التشبيب « لأن التشبيب قريب من النفوس ،
 لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل والف
 النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب

وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام . ويمضى ابن قتيبة في تعليل
النسب فيقول ان الشاعر « اذا استوثق من الاصغاء اليه عقب
بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى
الليل وحر الهجير وانضاء الراحة والبعر . فاذا علم أنه أوجب
على صاحبه حق الرجاء وقرر عنده ما قاله من المكاره في المسير بدأ
في المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح » .

وهنا نصل الى النقطة التي تعنينا وهي اثار ابن قتيبة للقديم
اشارا يحتم على الشعراء أن يجعلوا عامود الشعر القديم
دستورهم الفني ، وفي هذا يقول : « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج
على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر
أو يركى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر
والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين
رحلوا على الناقة والبعر ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن
المتقدمين وردوا الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت
النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على منابت الشيع
والحنوة والعرارة » .

فأنت ترى أن ابن قتيبة لا يزال يتعصب للقديم وزسومه
ومظاهره . وتلك من المآخذ الكبيرة التي أخذها على ابن قتيبة
لأنه بذلك يريد أن يقف الشعر جامدا ، لا يساير الحياة . ولا
ينبغي لابن قتيبة أن يحتم على شاعر عباسي رأى القصور والرياض ،
وعاش بينها أن يترسم خطى شعراء كانوا يستلهمون وحيهم من
مهمه قفر وخيمة ذات أطناب وبعر وشاة .

وانى لأعتقد — فيما أعلم — أن ابن قتيبة أول من تناول هذه الظاهرة الفنية (النسيب) بالتعليل . وندرك من هذا التعليل أنه يريد أن يحقق الرابطة بين الشاعر وبيئته .

٣ — نظر ابن قتيبة الى القصيدة العربية فوجدها مقسمة الى أجزاء تواضع الشعراء عليها وهى : ذكر الديار والدمن والشكوى والنسيب وما لاقاه الشاعر من لغوب ، ثم الانتقال بعد ذلك الى موضوع القصيدة كالمدح والاعتذار وغيرها ، ثم الختام .

وقد نظر ابن قتيبة الى هذه الأقسام نظرة علمية متأثرة بروح المنطق ، فأوجب ضرورة التناسب بينها ، فلا يصح أن يطغى واحد على آخر ، فلا يطيل الشاعر فى أحدهما فيمل السامعين ، ولا يقطع وبالنفس ظمأ الى المزيد . ويسوق ابن قتيبة أمثلة وقعت ولم يراع فيها أصحابها التناسب بين هذه الأجزاء ، وأنكر منهم السامعون ذلك . وأحب أن أقول بهذه المناسبة ان من أبرز ما يمتاز به ابن قتيبة أنه يدعم الفكرة بأدلة مأخوذة من الأحداث والواقع ، بل انه كان يستلهم كثيرا من أفكاره من هذه السوابق ، فيبرزها فى نظرية منسقة . ومن الأمثلة التى ذكرها أن بعض الرجاز أنى نصر بن سيار فمدحه بقصيدة ، تشبيها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات ، فقال نصر : « والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيك ، فان أردت مديحي فاقصر فى النسيب » فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدار لأمّ الغمر دع ذا وجبر مدحة فى نصر
فقال نصر : « لا ذلك ولا هذا ، ولكن بين الأمرين » . وقيل

لعقيل بن علفة : « مالك لا تطيل الهجاء ؟ فقال : يكفيك من القلادة
ما أحاط بالعنق » :

وأنا أعتقد أن ابن قتيبة على حق في أن يوجب على الشعراء
مراعاة أقسام القصيدة ، لأننى أرى أنه يجب أن يكون للعقل
بعض السلطان على الشعر حتى لا يكون هناك جموح وفوضى .

٤ — قسم ابن قتيبة الشعر الى متكلف ومطبوع . وهنا
يوقفنا على أمر له خطره فى الشعر ، أمر يتخطى الألفاظ والمعانى ،
ولكنه يتصل بالروح والشعور ، وهو الطبع . والطبع من الأهمية
بمكان ، حتى ان ابن قتيبة ليرى أن الشعر أحيانا يكون جيدا
محكما ، ولكن الصنعة تمسحه وتذهب بطلاوته . والشاعر المتكلف
فى نظر ابن قتيبة « هو الذى يقوّم شعره بالثقاف وينقّحه بطول
التفتيش ويعيد فيه النظر بعد النظر كزهرير والحطيئة » . وقد
ذكر شعرا لبعض الشعراء الذين يذهبون هذا المذهب ويصنون
تنقيح الشعر وتحريره ، مثل الحطيئة وسويد بن كراع وعدى
ابن الرقاع ، ومن ذلك قول سويد :

أبيت بأبيات القوافى كأنما

أصادى بها سربا من الوحش نزعاً

أكالها حتى أعرس بعدما

يكون سحيرا أو بكيد فأهجعا

وقول عدى :

وقصيدة قد بت أجمع بينها
حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته
حتى يقيم ثقافة منادها

وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحولى المنقح المحكك ؟ .
هذا هو الشعر الذى يراه ابن قتيبة متكلفا مصنوعا .
وأما الشعر المطبوع عنده فهو الذى يأتى عن اسباح وطبع وغريزة .
ويمضى ابن قتيبة فيذكر أن للشعر دواعى تهيج ملكته وترسله
من غير تكلف ، منها الشوق ، ومنها الشراب ، ومنها الطرب ، ومنها
الغضب ، ومنها الطمع . قيل للحطيئة : « أى الناس أشعر ؟ فأخرج
لسانا دقيقا كأنه لسان حية وقال : هذا اذا طمع » . ويذكر
ابن قتيبة تأييدا لذلك أن شعر الكميث فى بنى أمية أجود منه فى
الطالبين ، وعلة ذلك فى نظره « قوة أسباب الطمع وإثارة النفس
لعاجل الدنيا على أجل الآخرة » .

والشعراء يختلفون فى الطبع ؛ فبعضهم يجيد فى أغراض
ويقصر فى أخرى ، تبعا لنزوعه وميله . قيل للعجاج : « انك
لا تحسن الهجاء » فقال : لأن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم ،
وأحسابا تمنعنا من أن نظلم » .

وقد ذكر ابن قتيبة أمارات واضحة للشعر المتكلف ، وذكر
كذلك أمارات للشعر المطبوع تفهم ضمنا من كلامه على الشعر
المتكلف وعلى المطبوعين من الشعراء . فالشعر المطبوع هو الذى يندفع
عن السليقة والطبع ، ويوفق الشاعر فيه الى الإبانة عن خوالج
نفسه فى غير تعقيد ولا استكراه .

ويتبين لنا من قوله أن أمارات الشعر المتكلف ترجع الى أمرين :
أولهما الروح والشعور ، وثانيهما التعبير والإبانة . والقارئ
يستطيع أن يدرك روح الشاعر المتكلف مما يبدو فى شعره « من

طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين » ، ويحس القارىء
الجفوة التى بين الشعر وروحه وكأنه صاعد جبلا كما يقول .
وكذلك يظهر التكلف فى الابانة والافصاح ؛ فكثرة الضرورات
فى الشعر كرفع المنصوب وصرف المنوع من الصرف ومدّة
المقصور وتسهيل المهوز والترخيم فى غير النداء ، كل ذلك من
علامات التكلف . كما أن منها الخضوع لقافية جائرة ، وغموض
الكناية ، وذكر مالا يحتاجه المعنى ، وحذف مالا بد من ذكره .

فالشعر المطبوع هو الذى يصدر عن نفس تجد ما تقول
وينبعث عن سليقة طبيعية وشعور فياض . والشاعر المطبوع هو
الذى تجيئه الألفاظ وتتابع فى سهولة ويسر وتدقّق حين تجيش
بنفسه المعانى وتختلج . وكان الابانة عند المطبوعين تكاد تصاحب
التفكير ، فيصدر الشعر حينذاك عن فطرة واسماح .

ثم يتناول ابن قتيبة الأوقات التى يأتى فيها الشعر طبيعاً سمحا
سلس القياد ؛ فمنها أول الليل قبل الكرى وصدر النهار قبل
الغداء ، ومنها الخلوة فى الحس . ولهذه العلل تختلف أشعار
الشاعر ورسائل الكاتب . ولعله يعنى أن الشعر الذى يصدر فى
هذه الأوقات يكون مطبوعا .

وليس من شك فى أن ابن قتيبة مصيب فى تبيان خصائص
الشعر المطبوع ؛ فالينبوع الشعرى وقوة الطبع والعبارات التى
يأخذ بعضها بحجّز بعض من أمارات الشعر المطبوع . ولكن
تعريفه للشاعر المتكلف فيه تنكّب للحق والانصاف ، لأنه يعتبر
العناية بالشعر وتحكيكه من أمارات التكلف . وظاهر من هذا

أنه يرى أن الارتجال في الشعر هو الطبع ، وأن الشاعر المطبوع هو الذي ينطق الشعر على البديهة بدون اعداد ، ولذلك عدّ زهيراً والبحيئة وأشباههما من المتكلفين . وذلك فيه مجانبة للصواب ، لأن الشعر صناعة ككل الصناعات تحتاج الى مران وعناية واعداد ، وقلما يكون الشعر المرتجل قويا . وأبلغ مثل لذلك شعر حسان بن ثابت في الاسلام ؛ فهم يعزون سر ضعفه الى أسباب ، أهمها اضطراره الى الارتجال للرد على الوفود التي كانت تقف على النبي الكريم . وقل مثل ذلك في النابغة الجعدي والسماح بن ضرار وأخيه مزرد . فلا بد في الشعر من طول الأناة والروية ومعاودة النظر حتى يخرج وقد برىء من كل عيب وخلا من كل شائبة . وهذه العناية في الواقع ليست تكلفا ما دامت الملكة الشعرية مركوزة في فطرة الشاعر ، وما دام البيان في الافصح عن أحاسيسه وخوارج نفسه يواتيه في سهولة ويسر . فزهير في الواقع لم يكن متكلفا ، ولم يكن يخرج عن طبعه وسجيته ، لأن التجويد أصيل في طبعه ومن قرارة نفسه ، فهو « يردد النظر في شعره ويقلب فيه رأيه اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ورأيه عياراً على شعره .. ليكون فحلاً خنديذاً وشاعراً مقلداً » (١) كما يقول الجاحظ . فالعناية بتثقيف الشعر والأناة والروية فيه من الخصائص التي فطر عليها زهير وأضرابه ، وليس هذا من التكلف في شيء ، لأن التكلف — كما عرفه ابن قتيبة —

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١ .

هو ظهور العناء في حمل النفس على قول الشعر من غير أن يكون هناك ميل أو نزوع ، فيرشح جبينه ولا تواتيه الابانة في يسر ، فيكثر من الضرورات غير المقبولة ، أما العناية الطبيعية فليست تكلفا . ويقول ابن خلدون : « وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ، ولا يرضن به على الترك اذا لم يبلغ الاجادة ، فان الانسان مفتون بشعره اذ هو نبات فكره واختراع قريحته » (١) . والعناية ليست محمودة في الشعر فحسب ، بل هي محمودة كذلك في الخطب التي من أخص سماتها الارتجال ، ويقول البعيث وكان من أخطب الناس : « انى والله ما أرسل الكلام قضيا خشيا ، وما أريد أن أخطب يوم الحفل الا بالبات المحكك » (٢) . ولعل ابن رشيق يصيب حاجة نفسى اذ يقول : « ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذى وضع أولا وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ، لكن بطباع القوم جاء عفوا فاستحسنوه ومالوا اليه » (٣) .

وانى آخذ على ابن رشيق أنه يجعل الشعر المحكك قسيما للشعر المطبوع ، والواقع أن خير ضروب الشعر المطبوع هو الشعر المجتر اذا صدر عن شاعر تكون العناية فيه جبلة وطبعا

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤ ط بيروت .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٩ .

(٣) العمدة ١/٨١ .

كزهير والحطيئة والنابعة . فكل من هؤلاء كان مطبوعا على
الاتقان لأن الاتقان من طبعه .

فابن قتيبة — كما ترى — مخطيء حين يفهم الطبع على أنه
الارتجال ، وليس الطبع في الواقع سوى السليقة والملكة الشعرية ،
وليست الأناة منافية للطبع ، بل إنها منه .

٥ — وضع ابن قتيبة للناس دستوراً سليماً في تقويم الشعر
والشعراء قد أسس على الحق والانصاف . وعندى أن هذه
المسألة من أقوم المسائل التي أجدها ابن قتيبة في النقد الأدبي .
نظر ابن قتيبة إلى الشعر من حيث هو أثر فني ، وأطرح جانباً
مذهب تفضيل القديم لقدمه وازدراء الحديث لحدثه . وبذلك
خلص النقد من هذا التعصب المقيت الذي لا يقوم على أساس
من العدل . فلقد شغف القوم بتقديس كل قديم ، وامتهان كل
جديد مهما عزّ ، وما كانوا يعترفون لمحدث بسبق ، ولهم في ذلك
أقوال وقصص غريبة . وكان شيخهم أبو عمرو بن العلاء يقول :
« لقد أجاد هذا المحدث حتى لقد همت برواية شعره » .
ويذكرون أن اسحاق الموصلي أنشد الأصمعي هذين البيتين .

هل إلى نظرة إليك سليل

يُروى منها الصدى ويثشف الغليل

إن ما قلّ منك يكثر عندي

وكثير ممن تحب القليل

فقال الأصمعي : « هذا الديباج الخسرواني » ، هذا الوشي

الاسكندراني ، لمن هذا ؟ فأخبره اسحاق أن البيتين له ، فقال

الأصمعي : أفسدته ، أفسدته ، أما ان التوليد فيه ليس (١) .
 وكان ابن الأعرابي يقول : « انما أشعار هؤلاء المحدثين مثل
 أبى نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار
 القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا » (٢) . وبلغ
 بهم التعصب للقديم مبلغا سخيفا ، فالمسعودي يقول : « ذكر
 أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف الكتاب الكثير
 المعاني الحسن النظم ، فينسبه الى نفسه ، فلا يرى الأسماع
 تصفى اليه ، ولا الارادات تتيمم نحوه ، ثم يؤلف ما هو أقص
 منه مرتبة وأقل فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون
 أو غيرهما من المتقدمين ومن قد صارت أسماؤهم في المصنفين
 فيقبلون على كتبها ويسارعون الى نسخها لا لشيء الا لنسبتها الى
 المتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم
 ومنافسته على المناقب التي يخص بها ويعنى بتشبيدها » (٣) .
 وتعصبهم للقدمى يرجع — كما أشرنا — الى أنهم كانوا
 يرغبون الناس في حفظ أشعارهم وروايتها لأنها موضع الاستشهاد
 في اللغة . فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح لأن يحتج به
 في تثبيت اللغة وقواعد العربية وتفسير القرآن والسنة . والشعر
 المولّد مهما جاد لا يصلح لذلك . يضاف الى ذلك أن القديم
 ينظر اليه دائما بعين الاجلال والاعظام .

(١) أغاني ساسى ٧١/٥ .

(٢) الموشح ص ٢٤٦ .

(٣) التنبيه والاشراف ص ٨٦ طبعة ليدن .

ثار ابن قتيبة على هذا المذهب القديم ، ونبذ فكرة التقليد
 جانبا ، وأراد أن يضع كل شاعر في مكانته التي يستحقها بدون
 نظر الى عصره . فهو لا يستحسن الشعر باستحسان غيره ،
 ولا ينظر الى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا الى المتأخر بعين
 الاحتقار لتأخره ، بل نظر بعين العدل الى الفريقين وأعطى كلا حظه
 « لأنه رأى من العلماء من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله
 ويضعه في متخيره ، ويثردل الشعر الرصين و لا عيب له عنده
 الا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله » . فهو يحكم بين الشعرين
 لا بين العصرين ، يثني على المحدث اذا أجاد ، ويذم القديم
 اذا لم يتجد ، فالله « لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون
 زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما
 بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره » وكل
 شريف خارجيا في أوله .

فجودة الشعر ورداءته — في نظر ابن قتيبة — هما الفيصل
 في الحكم بين شاعرين بدون نظر الى عصريهما . وقد ردد ابن قتيبة
 هذه النظرية في كتاب عيون الأخبار فقال في المقدمة : « وكذلك
 مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين ، فاذا كان
 متخير اللفظ لطيف المعنى لم يثزر به عندنا تأخر قائله ، كما أنه
 اذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه » . ثم يقول منكرا رأى
 الآخرين ومعتبرا اياهم من عوام الناس : ومن شأن عوام الناس
 رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب المنوع وتعظيم
 المتقدم وغفران زلته وبخس المتأخر والتجنى عليه . والعامل من

ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم». وهذا يدل على أن الفكرة مختصرة في ذهنه ، وأنه مقتنع بها كل الاقتناع .

وتقدّيس القديم أمر جرى عليه الخلق منذ الأزل ، ولكن ابن قتيبة خلص النقد الأدبي من هذا التعصب الأعمى ، ولذلك نراه يترجم في « الشعر والشعراء » للكثير من المحدثين ، مثل العتابي والحسن بن هانيء ومسلم وابن منذر ودعبل وغيرهم . وكان جميع المحدثين يلاقون كثيرا من الارذال والزراية لجداتهم ، ولكن ابن قتيبة خلصهم من هذا الاجحاف .

غير أنه — مع ذلك — أبى على هؤلاء المحدثين ألا يخرجوا على المذهب الذي رسمه الشعراء الغابرون من ابتداء القصيدة بمسألة الأطلال ، واستيقاف الصحاب ، والترحال على الابل ، وقطع البيد في قيظ الهواجر ، وغير ذلك مما أشرنا اليه ، لأنه يعتبر ذلك عامود الشعر . وأنا لا أوافقه على ذلك كما بينت .

فهو متعصب لمظاهر الشعر القديم وأشكاله ، ولكنه مجدد منصف للشعر من حيث هو أثر فني من غير نظر الى قائله . وهذا في نظري أعظم ما أزجاه ابن قتيبة للنقد الأدبي ، ويدل من غير شك على استقلال فكرى وسعة أفق . ويقول جورجى زيدان ان ابن قتيبة « أول من تجرأ على النقد الأدبي » (١) . ويقول الدكتور محمد مندور : الواقع أن ابن قتيبة كان رجلا مستقل الرأي ، غير

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ١٧٠/٢ .

خاضع لتقاليد العرب الأدبية ، ولا مؤمن بأحكامهم ، ولا يطمئن الى المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره » (١) . ولكن الدكتور يرى أنه قصر من ناحية تحليل النصوص . وهذا في نظري مطلب عسير من رجل عاش في هذا العصر ، لأن النقد التحليلي لم يظهر الا بعد ذلك بحقبة . ويعود الدكتور مندور فيقر بفضل ابن قتيبة قائلاً : ومع ذلك يبقى له فضل وقوفه في سبيل طغيان منطق اليونان على أدب العرب ، وفضل التخلص من التعصب للتقديم تقدمه أو الحديث لحداثته » (٢) . يريد أنه كان يحث المتأدين على إثارة دراسة أدب العرب ، وعدم الانكباب على العلوم الحديثة ، وأنه كان يحث الشعراء على المحافظة على مظاهر الشعر العربي الخالص .

على أنى آخذ على ابن قتيبة أنه لم يطبق نظريته في انصاف الشعراء التطبيق الصحيح . وذلك راجع — فيما أعتقد — الى أن ذوقه كان واقفاً عند عصره ، فلم يستطع أن يساير تفكيره . وقد أوجز ذلك الدكتور مندور في عبارة دقيقة فقال : « ان ابن قتيبة رجل تفكيره خير من ذوقه ، ونزغته خير من عمله » (٣) .

ويرى الأستاذ « نيكلسون » كذلك أن « ابن قتيبة يعتبر أول ناقد له أهميته يصرح بأن الشعراء الأقدمين والمحدثين يجب أن

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ١٢ .

(٢) النقد المنهجي ص ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه .

يوضعوا في ميزان النقد على حد سواء بدون نظر الى
عصورهم» (١).

وبهذا نستطيع أن نقول ان ابن قتيبة هو أول من خلص النقد
العربي من هذا التعصب البغيض . ولكن الانصاف يحفزنا الى أن
نذكر أن الجاحظ ربما كان أول من فطن الى هذه النظرية أو الى
المبدأ الذي قامت عليه ، فقد كان يؤثر بشارا ايثارا شديدا ، ويخص
أبا نواس بالتفوق ومجانبة الاستكراه . وقد بين قوة شاعرية
الأخير ، وبخاصة في وصف الكلاب فقال : وصفات الكلاب
مستقصاة في أراجيزه ، وهذا مع جودة الطبع وجودة السبك
والحذق بالصنعة» (٢) . ثم يقول بعد ذلك مؤثرا الحق والانصاف :
وان تأملت شعره فضلته الا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو
تري أن أهل البدو أبدا أشعر ، وأن المولدين لا يقاربونهم في
شيء ، فان اعترض هذا الباب عليك فانك لا تبصر الحق من الباطل
ما دمت مغلوبا» .

وليس بعيد أن يكون ابن قتيبة قد استضاء بلفتة الجاحظ
هذه . ولكن يرجع اليه الفضل على أية حال في أنه وضع الفكرة
وأبرزها في منهاج منطقي ، حتى أصبحت أصلا هاما من أصول
النقد .

٦ — عرض ابن قتيبة كذلك لمسألة تتصل بالنقد اتصالا
وثيقا ، تلك هي الاسباب التي من أجلها يستجاد الشعر ، وقد مهد

(١) A Literary History of The Arabs. p. 286

(٢) كتاب الحيوان ١٠/٢ .

لذلك بقوله : « أن من ينظر بعين العدل ويترك طريق التقليد لا يستطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره ، والله در القائل : أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه » . ولعلك تذكر أن ابن سلام قد جعل الجودة والكثرة معا هما الأساس الذي أقام عليه « طبقات الشعراء » فهو اذن أسبق من ابن قتيبة في تسجيل هذه الفكرة .

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك أن الشعر يستحسن لجودة اللفظ والمعنى ويستحسن كذلك ويحفظ لأسباب كثيرة منها الاصابة في التشبيه ، ومنها خفة الروى ، ومنها ندرة شعر الشاعر ، ومنها غرابة معناه ، ومنها نبل قائله . وقد ساق أمثلة كثيرة توضح ما يقول . وأنت ترى أن حسن التشبيه وروعته وجدة المعنى وجمال الجرس من أصول جودة الشعر . واذا تصفحت « المثل السائر » لابن الأثير وجدت فيه نماذج كثيرة من الشعر عييت على أصطابها لأنها فقدت عنصرا من هذه العناصر التي أشار إليها ابن قتيبة .

٧ — تناول ابن قتيبة بعد ذلك عيوب الشعر العامة فجعلها قسمين : قسما خاصا بالهيئة الناجمة عن الجرس والموسيقى واثتلاف التغمات ، وقسما خاصا بالاعراب .

أما العيوب الأولى فذكر منها الاقواء ، وهو اختلاف الاعراب في القوافي . ومن الشعراء المقوين النابعة الذبياني وبشر بن أبي خازم . ومنها السناد ، وهو اختلاف أرداف القوافي كهوئك (علينا) في قافية و (فينا) في أخرى . ومنها الايطاء وهو اعادة

القافية مرتين ، وليس هذا عندهم بالعيب الكبير كغيره . ويعجبني من ابن قتيبة أنه لا يخطو خطوة من غير أن يورد الأمثلة التي يوضح بها قوله .

أما عيوب الأعراب فكثيرة منها تسكين ما كان ينبغي أن يحرك ، ومنها مد المقصور ، ولا عيب إذا اضطر إلى قصر الممدود . ومنها عدم صرف المصروف ، ولا عيب إذا صرف غير المصروف . ومنها همز غير المهموز ، ولا عيب في ترك همز المهموز .

وكان ابن قتيبة ينفر من وحشة البداوة وغلظة الأعراب ، ولهذا نراه ينهى المحدث عن أن يتبع المتقدم في استعمال وحشى الكلام ، وهذا يدل على ذوق رفيع .

وكان ابن قتيبة شديد الحرص على توحيد اللغة ، ولذلك فجدده ينهى عن استعمال اللغات القليلة عند العرب ، كإبدال الجيم من الياء وإبدال الواو من الألف ، وقد ذكر لذلك أمثلة كثيرة . وهذا في الواقع عمل جليل من ابن قتيبة يدل على أنه كان ينبغي أن ترقى لغة العرب وتتخلص من الطفيليات التي تبدد شملها .

وابن قتيبة حريص على أن يتوفر للشعر العنصر الهام ، وهو عنصر الموسيقى لأنه يكسبه الطلاوة وحلاوة النغم ، ولذلك يحذر الشعراء من أن يتخذوا الأساليب التي لا تصح في الوزن ولا تطو في الأسماع . ويحشهم أخيرا على اختيار أحسن الروي ، وأسهل الألفاظ ، وأبعدها من التعقد والاستكراه ، وأقربها من الأفهام . وهذا في الواقع هو جماع القول في الأمور التي تتأني بها جودة الشعر .

وبعد ، فذلك هو أثر ابن قتيبة في النقد الأدبي ، ويتضح منه أنه أراد أن يصنع النقد بالصيغة العلمية التي يظهر فيها أثر المنطق والثقافات الأجنبية . ولا شك أن كتاب أرسطو في الشعر كان له أثر في هذا الاتجاه الأدبي كما قلت .

ومع تقديري لفضل ابن قتيبة فانتى ما زلت أرى أن النقد لا يصح أن يخضع تماما لهذه الضوابط ، بل يجب أن يكون للذوق وللحاسة الفنية دخل كبير فيه . وكأنا أحس ابن قتيبة نفسه بأن ما قاله لم يصل إلى كنه الشعر ، ففرع إلى ذوق الناقد ليستعين به فيما يستعين على تمييز الجيد من الرديء .

ولعل من خير ما قدمه ابن قتيبة للنقد أنه حصر الآراء السابقة ، ونسقتها ، ونظمها تنظيما دقيقا ، وشفعها بآرائه الخاصة .

ولو لم يكن لابن قتيبة من فضل إلا أنه أنصف المحدثين من طغيان التعصب للقديم ، ووقف وقوفا حسنا على العناصر الجديدة التي ظهرت في الشعر المحدث ، وأدرك ما فيها من صالح وفاسد ، وسائر على سنن العرب وخارج على المألوف — أقول لو لم يكن لابن قتيبة إلا هذا الفضل لكفى .

ويعتبر ابن قتيبة إلى جانب ذلك حلقة اتصال بين المنهج القديم والمنهج الحديث في النقد ، فهو الذي خطا به هذه الخطوات الواسعات حتى تلقفه منه من جاء بعده من النقاد وأوصلوه إلى ذروة مجده .

وقد كان لآراء ابن قتيبة دوى كبير لدى المشتغلين بالأدب والنقد ، فقد تناولها قدامة بن جعفر في « نقد الشعر » واستشهد

بشواهدهما . ومن غريب الأمر أنك تراه متأثرا بها ، ولكنه مع ذلك
ينكرها ، وكأنه لم يقرأها اذ يقول : « ولم أجد أحدا وضع في نقد
الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا » (١) .

وما كان يحق لناقد فاضل مثل قدامة أن يجحد فضل أول رجل
وضع قواعد النقد وأسس بطرقة علمية سليمة . ولا أدري لذلك
من سبب الا أنه — وقد كان نصرانيا وأسلم على يدى الخليفة
المكتفى بالله — أراد ألا يعترف لعالم مسلم بفضل في هذا الباب .
ولا يبعد أن يكون قد ألف كتابه قبل أن يسلم ، والا فما سر انكاره
لصنيع ابن قتيبة ، مع أن تأثره به لا يخفى على من عنده مسكة من
الادراك . وقد تأثر قدامة أشد تأثر بكتاب أرسطو في الشعر ،
وبخاصة فيما يتصل بتقسيم الشعر (٢) ؛ فقد قسمه من حيث
موضوعاته وتحدث عن عناصر كل موضوع كما فعل أرسطو .

ومهما يكن من شيء فلا ينكر مؤرخو تاريخ النقد الأدبي أن
ابن قتيبة قد وضع الأساس الضخم للنقد ، وشاد عليه بنيانه بعده
قدامة هذا ، وأبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى صاحب
« الموازنة بين أبى تمام والبحترى » والقاضى أبو الحسن على بن
عبد العزيز الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه »
والشعالبي ، وابن رشيق وغيرهم .

(١) نقد الشعر ص ٩ مطبعة انصار السنة المحمدية .

(٢) نقد الشعر ص ٥١ .

الفصل الخامس

ابن قتيبة الراوية الاخبارية

أشرنا في فصل سابق الى أن جمهرة العلماء والأدباء والمؤرخين يوثقون ابن قتيبة ويعتبرونه من أصدق الرواة ، ولم يشذ عنهم إلا الحاكم ، وقد أنكروا عليه ذلك واعتبرها الحافظ الذهبي « مجازفة قبيحة وكلام من لم يخف الله » (١) . فالذي لا شك فيه أنه كان أمينا صادقا في الرواية . وإذا تتبعنا الذين أخذ عنهم وجدناهم من مشهورى الرواة وأوثقهم ، ويقول الأزهرى : وما رأيت أحدا يدفعه عن الصدق فيما يرويه عن شيوخه » (٢) . وكانت تبلغ به الأمانة أنه لا يدعى علم ما يجهله ، فيقول مثلا في نسب بنى عمرو بن قيس عيلان : « فأما عمرو بن قيس فولده فهم وعدوان ، فمن فهم تأبط شرا ، ولا أعرف أفخاذهم » (٣) . ويعترف كذلك بأنه يجهل بعض الأعلام في نسب جدات النبی لأمه (٤) . وإذا ساق خبرا لا يعرف راويه على وجه التحقيق يقول :

(١) ميزان الاعتدال ٧٦/٢ .

(٢) تهذيب اللغة ١٥/١ مخطوط .

(٣) كتاب المعارف ٣٦ . (٤) كتاب المعارف ص ٥٨ .

« وقال بعض أصحابنا وأحسبه فلانا » (١) . وإذا تلقى الخبر عن قائله يقول : حدثني فلان ، وأحيانا يسمعه عن شخص فيقول : « وبلغني عن فلان » . وكان حبه للدقة في الرواية أحيانا يدفعه الى استقصاء الخبر من قائله ، ومن ذلك ما ورد في عيون الأخبار : « وقال بعض الشعراء المحدثين ، وقيل انه البحرى ، فبعثت اليه أسأله عنه فأعلمنى أنه ليس له » (٢) .

وكان أبو الفرج صاحب الأغاني يثق في روايته ، وقد روى عنه كثيرا ، ونظمه في عداد سنده ، وهو يذكره أحيانا بكنيته (ابن قتيبة) وأحيانا باسمه « عبد الله مسلم بن قتيبة » .

ومن ذلك يتبين لنا أن أماتته في الرواية لا يعتور هاريب . بيد أني أريد في هذا المقام أن أبين منهج ابن قتيبة في رواية الأخبار ، وهل كان يشفع الرواية بالمقارنة والتحقيق والتمحيص ، أم كان يكتفى بها في أمانة من غير أن يزنها بميزان العقل ؟

الواقع أن ابن قتيبة قلما كان يعنى بالتحقيق ، شأنه في ذلك شأن معاصريه من كبار الأدباء والمؤلفين كالجاحظ والمبرد ، فكان يتلقف الخبر ويرويه بسنده ليس غير ، ويندر أن تجدله رأيا في خبر من الأخبار . ولهذا جاءت كتبه غير خالية من الخرافات والخلط ، ومنشأ هذا من غير شك عدم التحقيق . وقل مثل ذلك في مؤلفات هذا العصر .

ولما كان كتاب عيون الأخبار يشتمل — الى جانب الأخبار —

(١) عيون الأخبار ١/٢٧٣ .

(٢) عيون الأخبار ٣/١٦١ .

على كثير من النصوص الشعرية والنثرية فقد وقف من هذه النصوص موقفه من الأخبار ، ولكن في شيء من القصد . أعنى أنه لم يكن يعنى كثيرا بتحقيقها ، ولذلك شابها أيضا بعض الخطط والاضطراب . أما كتاب الشعر والشعراء فقد كان له في معظم النصوص آراء طيبة كما ذكرنا ، وذلك لأنه قصد بهذا الكتاب أن يكون كتاب نقد وأدب ، يسوق فيه نظرياته ويحاول تطبيقها بقدر طاقته المنهجية ، ومع ذلك لم يخل من الخلط .

وكتبه التي تمثل لنا ناحية الرواية الاخبارية هي كتاب « عيون الأخبار وكتاب المعارف » . والملاحظ أن ابن قتيبة كان يروى الأخبار ويرصتها رصًا على علاتها في هذين الكتابين . وكأنه التمس لنفسه معذرة ترفع عنه عبء التحقيق والتمحيص من أن الكتابين قد صنفهما للأخبار التاريخية والأدبية ليس الا . وهكذا نرى أن ابن قتيبة في كتبه الاخبارية يسوق لنا الأخبار سوقا ويترك القارئ يضل في دياجيرها . وقد نجم عن ذلك أنك تراه يضيف الأشعار التي تصاحب هذه الأخبار الى غير قائليها . والأمثلة على ذلك كثيرة منها أنه نسب أبياتا مطلعها :

غدوتك موالودا وعلتك يافعا
تعل بما أجنى عليك وتنهل
الى يحيى بن سعيد مولى تيم ، قالها لابنه لائما (١) ، مع أن الرواة يجمعون على أن قائل هذه الأبيات هو أمية بن أبي الصلت (٢) . ويضيف البيت المعروف :

(١) عيون الأخبار ٨٧/٣ . (٢) انظر ديوان الحماسة ص ٣٥٤ طبعة أوربلا وأغانى بولاق ١٩١/٣

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند
الى غير قائله طرفه بن العبد مع أنه موجود فى معلقته : لخولة
أطلال -

وينسب هذا البيت لدكين الراجز :
إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جيببيل
والمعروف أن هذا البيت من قصيدة مشهورة للسموءل بن
عادياء اليهودى ، وهى ليست برجز .

وبلغ به الأمر أنه كان يضيف أشعارا الى أناس يستحيل
صدورها من أفواههم ، مثال ذلك أنه ينسب الى تميم بن الأقرن
— وهو تتبع الأكبر — هذه الأبيات المشهورة :

منع البقاء ثقل الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى
وطلوعها بيبضاء صافية وغروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما يجرى حمام الموت فى النفس
اليوم نعلم ما يجيء به ومضى بفضل قضائه أمسى (١)
وهذا خطأ شنيع من ابن قتيبة لأن لغة القحطانيين غير لغة
العدنانيين ، وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء قولته المشهورة :
« ما لسان حمير بلساننا ولا عريبتهم بعريبتنا » ، ويقول ابن جني :
« فليسنا نشارك فى بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار » (٢)

(١) كتاب المعارف ٢٧٣

(٢) الخصائص ٣٩٢/١

وقد ثبت من النقوش التي كشفت حديثا في صنعاء أن لغتهم
تخالف لغة الحجازيين كل المخالفة . أضف الى ذلك أن هذه
الآيات تتم عن نظرة فلسفية لا يمكن أن تجرى على السنة أهل
هذا العهد .

وأعجب من هذا أنه ينسب الى ملك يمني آخر اسمه (تبّع
ابن كليكرب) بيتين يدلان على ايمانه برسالة محمد صلى الله عليه
وسلم وهما :

شهدت علي أحمد أنه رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عنري الى عمره لكنت وزيرا له وابن عم (١)
وهذا الملك قد باعد الزمن بينه وبين ظهور النبي بمئات السنين .
وانه لعجب عجاب أن يعجز ابن قتيبة عن ادراك حقيقة الأشعار
الفنية، فضلا عن القرائن الأخرى التي تحول دون نسبتها الى ملوك
اليمن في أزمانهم السحيقة . وعلة ذلك هو ما أشرنا اليه آنفا .

ومن دلائل الخطط الناشئة من عدم التحقيق أنه كان ينسب
النص الى شاعر ، ثم يعود في مكان آخر وينسبه الى شاعر آخر ،
ومن أمثلة ذلك أنه ذكر البيتين الآتيين في باب « الانصاف في
المودة » منسويين الى عبد الله بن مصعب الزبيري وهما :

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا عليه لأهلها وهو الرسول (٢)
ثم عاد فذكرهما في « باب الاعتذار » منسويين الى ورد بن

(١) كتاب المعارف ٢٧٤ .

(٢) عيون الأخبار ٣٠/٣ .

عاصم المبرسم يهجو الحسن بن زيد بن الحسن والى المنصور
على المدينة (١).

وروى أربعة أبيات ونسبها الى البعيث ، ثم عاد بعد صفحات
وذكر اثنين منها منسويين الى تأبط شرا ، وقد أشرنا الى ذلك في
فصل سابق .

ولعدم دقته نراه يطلق على الشاعر لقبه الذى اشتهر به والذى
اشترك معه فيه بعض الشعراء من غير تخصيص فيضل القارىء ؛
فهو يقول مثلاً : قال الأعشى ، فأى الأعشى يريد ؟ انهم كثيرون .
وقد ذكر هذا اللقب على اطلاقه مرة فى شعر ، وظهر لى أنه ميمون
ابن قيس لأن الشعر فى ديوانه (٢) . وفى نفس الصحيفة ذكره من
غير تخصيص كذلك واتضح أنه أعشى بنى تغلب (٣) . وكذلك كان
يستعمل لقب « النابغة » على اطلاقه من غير تخصيص .

وفى كثير من الأحيان لا يذكر اسم الشاعر مكتفياً بقوله : وقال
الشاعر . وقد يلتبس له العذر فى ذلك اذا كان الشاعر نكرة
أو كان بعيد العهد ممن عاشوا فى أغوار الجاهلية ، ولكنه لا يجوز
منه ذلك مع قطا حل الشعراء كالفرزدق وأبى نواس مثلاً (٤) .
وكان ابن قتيبة يشذ كثيراً فى رواية النصوص ، فقد روى
خطبة زياد البتراء بعبارات مخالفة لما اتفق عليه كبار العلماء ، مثل

(١) عيون الأخبار ٣/ ١٠٤ .

(٢) انظر عيون الأخبار ٣/ ٢٦١ .

(٣) انظر الحيوان ١/ ١٩٤ .

(٤) انظر عيون الأخبار ٢/ ٨٢ ، ٣/ ٥٦ .

الحافظ والمبرد وابن عبد ربه والقالى ، بل انه جعلها خطبتين (١) .
ويروى كذلك خطبة الهجاج المعروفة « أنا ابن جلا » فى عبارات
ما سمعنا بثلها قط فى كتب الأدب الأخرى .

وكانت الأشياء المتشابهة تختلط عليه فيذكر الاسم محرفا من
غير أن يحمل نفسه عبء التحقق منه ، فقد قال فى ترجمة « زربن
حيش » ويكنى أبا مكرم وهو من التابعين : « وكان أعرب
الناس ، وكان عبد الله بن مسعود يسأله عن العربية ، وغاش مائة
وعشرين سنة » (٢) . والواقع أن الذى كان يرجع الى ابن حيش
هو عبيد الله بن مسعود أحد السبعة المدنيين الذين أخذ عنهم
الفقه ، وهو من جلة التابعين ، وكان مشهورا بكثرة العلم وفنونه ،
وتوفى سنة ١٠٢ ، وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود الصحابى (٣) .
أما الخرافات فهى منبئة فى جميع الكتب التى ألفت فى ذلك
العصر . وحسبك أن تقرأ صفحات فى عيون الأخبار أو البيان
والتيبين أو الكامل لتعرف الخرافات التى كانت تسود العقول فى
ذلك العهد . فاذا عرفت أن هذه الخرافات قد دوتها أيدي علماء
أفذاذ أدركت مدى ما كان يرين على أفهام العوام من الأباطيل
والخرافات آنذاك . وإن العجب ليملؤنى حين أقرأ ما يرويه
ابن قتيبة من أن بعض ملوك العجم واسمه (طهورث) حكم
بلاده ألف سنة وآخر واسمه (جم) حكم ٩٦٠ سنة ، وإن أحد
ملوك اليمن حكم ٣٢٠ سنة . وأعجب من ذلك أن ملكا يمنيا

(٢) المعارف ١٨٨ .

(١) عيون الأخبار ٢/ ٢٤١ .

(٣) طبقات المفسرين ١٧٢ مخطوط .

اسمه (أفريقيس بن أبرهة) هو الذى بنى افريقية وبه سميت ،
وان آخر اسمه (العبد بن أبرهة) وهو أخو (افريقيس) غزا
بلاداً تسمى (النسناس) ورجع الى اليمن وقد سبا قوماً منهم
وجوهم فى صدورهم (١) . وهذا الكلام لا يصدقه عقل .
وأى عقل يصدق « أن الفرات قذف فى المدرمات كأنها البعير
البارك ، وتحدث أهل الكتاب أنها من الجنة » (٢) ؟ ويعجب ياقوت
فى معجم البلدان من هذا الخبر ويعتذر عن روايته بقوله
« ولو لم أر هذا الخبر فى عدة مواضع من كتب العلماء ما استجرت
كتابته » (٣) . وهل يدخل فى روع أى انسان أن سليمان
ابن عبد الملك مرّ بالمجذومين فى طريق مكة فأمر باحراقهم وقال :
لو كان الله يريد بهؤلاء خيراً ما ابتلاهم بهذا البلاء » (٤) ؟
ومن ذا الذى يصدق أن « القردة مسخت من بنى اسرائيل » (٥) ؟
وهل من المعقول أن تحمل بعض النساء الأجنة سنتين وثلاثاً
وأربعاً ؟ وإذا جاز أن يدخل فى نطاق العقل هذا الشذوذ فى امرأة
أو امرأتين فليس من المعقول أن يكون هذا شأن نساء أسرة
بالذات ؛ فقد روى ابن قتيبة أن الواقدي قال : « سمعت نساء
آل الجحاف من ولد زيد بن الخطاب يقلن : ما حملت امرأة منا
أقل من ثلاثين شهراً » (٦) .

(١) المعارف ٢٧٢ .

(٢) صيون الأخبار ٢٨٠/٣ .

(٣) معجم البلدان ٨٦١/٣ .

(٤) عيون الأخبار ٦٩/٤ .

(٥) تأويل مختلف الحديث ١٦٧ . (٦) المعارف ٢٥٧ .

هذه أمثلة من الخرافات التي تصادفك في كتب ابن قتيبة .
وخلاصة ما شوله في ابن قتيبة الراوية الاخبارى أنه كان صادقا
فيما يرويهِ ، ثقة في كل ما ينقله من أخبار ، ولكن ينقصه تحقيق
هذه الأخبار ووزنها بميزان العقل ، وقل مثل ذلك في غيره من
مؤلفي هذا العصر كالجاحظ والمبرد .

وبعد ، فهناك سؤال يضطرب في نفسى وهو : هل يعتبر
« كتاب المعارف » كتاب تاريخ ؟ وبالتالي هل يعتبر ابن قتيبة
مؤرخا ؟ .. الواقع أن بعض المستشرقين وعلى رأسهم « وستنفلد
Wustenfled » و « براون Browne » يعتبرونه من مؤرخى
العرب . وقد أشار وستنفلد الى ذلك في المقدمة التي نشر بها
« كتاب المعارف » . والأستاذ براون يعده من المؤرخين الممتازين
ويضعه بجانب البلاذرى (١) . ولعل كليهما قد انخدع بتسمية
حاجي خليفة لهذا الكتاب باسم « المعارف في التاريخ » .
وأنا أرى تقيض هذا رأى . ولفظة « المعارف » تمثل محتويات
الكتاب أصدق تمثيل . وغرض ابن قتيبة من وضع الكتاب
— كما يتضح من المقدمة — امداد الطبقة المثقفة بمعلومات
قصيرة غزيرة عن الأمور العامة التي يجب عليهم الإلمام بها مما يتصل
بالتاريخ . ولعل هذا الغرض هو الذى منعه من أن يسلك سبيل
المؤرخين ، ولذلك تجده يهمل أحيانا الاسناد الذى كان من
خصائص التاريخ والرواية في ذلك الحين . وقد خلا الكتاب من

عرض الحوادث الهامة في زمن المؤلف وفي غير زمنه . وانا لنفتقد فيه الأثر الشخصي الذي يميز المؤرخ ، مما يدل على أن المؤلف لم يكن ذا ميل الى التاريخ بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة . ومن أجل هذا نراه لا يعلق على أى حادث ولا يبدى فيه رأيا .

والكتاب في مجموعه لا يحوى سوى خطوط للقبائل والأسر والتواريخ . وقد تحدثنا عن محتويات هذا الكتاب بالتفصيل ضمن آثار ابن قتيبة ، ومنه يتضح أن المعلومات التى اشتمل عليها تتعد كل البعد عن روح المؤرخ . ومن غريب الأمر أن يهمل ابن قتيبة مسائل خطيرة كانت تشغل الخاص والعام في عصره مثل محنة خلق القرآن والقضاء على المعتزلة وظهور الأتراك وثورة الرنج ، وغيرها من الأحداث الجسام . وانك لتعجب حين تراه يهمل تاريخ البرامكة ونكبتهم . وتاريخ الخلفاء من المعتصم الى المعتز لم يمل من عنايته أكثر من صحيفة واحدة وهو الحقبة التى عاصرها . فلا يحق لنا بعد ذلك أن نطلق عليه لقب « المؤرخ » ، على الأقل من وجهة النظر الحديثة .

ولا شك أن ابن قتيبة قد استقى معلوماته من الكتب التى كانت موجودة في عصره ومن الروايات الشفهية المتناقلة ، فقد استفاد من كتب السير والمغازي والطبقات والحوادث التى ألقت قبله . وقد اعتمد في أنساب العرب على الواقدي وابن الكلبي . واعتمد في تاريخ التنبى وصحبه على ابن اسحاق وابن سعد . وروى كثيرا عن المدائني في فصول متعددة من الكتاب ، وروى عنه كذلك في عيون الأخبار . واعتمد جل الاعتماد في تاريخ الأنبياء

على وهب بن منبه وعلى التوراة والانجيل . ويعتبر ابن قتيبة أول عالم قارن بين أقوال وهب بن منبه وبين ما جاء في التوراة . ويفهم من ذلك أنه كانت لديه ترجمة عربية للتوراة والانجيل ، وكثيرا ما يقول : « وقابلت ما يقوله بما في التوراة فوجدت كذا .. » . وقد أخذ الروايات الشفهية عن السجستاني والريثي والزيادي وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي وغيرهم ، وكلهم ينتسبون إلى المدرسة الأصمعية .

وكان ابن قتيبة شديد الثقة بالأصمعي أستاذ المدرسة الأول ، لأنه يروى عنه ويحتديه في تأليف بعض الكتب ويعتمد عليه فيها ، وبخاصة الكتب اللغوية . وكان يجلّه أشد اجلال ، يدلنا على ذلك أنه يشفع اسمه بجملة « رحمه الله تعالى » ، ولم يفعل ذلك مع غيره وهو يتحدث عن « رواة الشعر وأصحاب الغريب والنحو » . وكتاب المعاني الكبير لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكر الأصمعي .

ومهما يكن من شيء فكتاب « المعارف » أقرب إلى التاريخ منه إلى أي علم آخر ، ولكننا لا نعتبره أثرا تاريخيا خالصا .

الفصل السادس

أسلوب ابن قتيبة

أرى — اجزأا للهائدة — أن أذكر نبذة موجزة عن الكتابة في عصر العباسيين وألوانها وسماتها ، لنذكر العوامل المختلفة التي لوئت أسلوب ابن قتيبة بلون خاص ، فأقول :

كانت الكتابة في أوائل عهد العباسيين لا تختلف عما كانت عليه في عهد بني أمية ، من جودة اللفظ ومتانة الأسلوب وجلأ المعنى ووضوح القصد ، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها عن حاضر البديهة وعفو الخاطر . وكانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع أو مثل سائر أو حكمة رائعة أو معنى يصل إلى القلب بلا استئذان . وكانوا في ذلك فرسان الفصاحة وأمرأاء البيان .

فلما حفلت بغداد ، وأقبلت الدنيا ، وامتدت أطراف الدولة ، وضمّت إلى أحضانها أبناء الفرس والسرّيان وغيرهم بما يحملون من تراث آبائهم وثقافة أجدادهم ، وأوسع الخلائف رحابهم لكل ذي فضل من رجال الدولة ، وعرفوا للعلم والأدب مقامهما ، وقربوا العلماء والأدباء ، وشجعوا حركة النقل فأكب

الناس على العلم والتأليف والترجمة ، وتكشف كل ذلك عن علوم
وفنون لا عهد للعربية بها — أقول لما حدث كل ذلك أوجد أثرا
عميقا في أخيلة الكتاب وأسلات الأقلام ووحى القرائح .

ولقد كان من أهم خصائص هذا النشاط العقلي الذي بلغ
أقصاه في نهاية القرن الثاني وأوائل الثالث أن ضعف الخيال
وقويت ملكة النقد والفهم . وكأنما الأمة الإسلامية قد فارقت
طفولتها وشبابها ، فأصبحت تتجنى الى التفكير والتروى . ولهذا
نلاحظ أن الشعر قد ضعف شأنه وأن النثر قد بلغ أشده . فقد
كنا نعدّ في القرن الأول شعراء كثيرين على رأسهم الفحول كجبر
والفرزدق والأخطل ، وفي الثاني نجد عددا ضخما من الشعراء
مثل بشار وأبي نواس وحماد عجرد ومسلم ومروان بن أبي حفصة
ووالبة ومطيع وابان وابن الضحاك وغيرهم . ولكننا نجد في القرن
الثالث نقرا قليلا من الشعراء ، وأصبح الذن يفرضون أنفسهم
على الناس فرضا لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ، فيظهر فيه
أبو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز .

وعلى عكس ذلك كنا في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني
لا نعد من الكتاب الا عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع ،
ثم أصبحنا في أواخر الثاني وأوائل الثالث نعدّ كتابا كثيرين . ففي
قصر المأمون نرى عمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف والحسن
ابن وهب وسليمان بن وهب والفضل بن سهل وسهل بن هارون ،
فضلا عن الكتاب الذين كانوا يختلفون الى القصور ويتصلون

بالأمراء ، والكتاب الذين نأوا بجانبهم عن السياسة وقصروا أنفسهم
على الكتابة ليس الا .

وبينما كنا نرى الشعراء يسلكون سبيلا واحدة قوامها المدح
والهجاء والرثاء اذا بنا نرى الكتاب في القرن الثالث قد تقسموا
فنونا مختلفة ، وتخصص كل منهم في فرع من هذه الفنون . فمنهم
من تخصص في الكلام ، ومنهم من تخصص في اللغة والنحو ،
ومنهم من تخصص في الفقه ، وقليل منهم من يجمع بين هذه
الأشياء .

وكان الشعراء في القرن الأول وأوائل الثاني أشبه بالجهلة ،
فأصبحوا في القرن الثالث يختلفون الى مجالس العلم . بل ان
بعضهم لم يكتف بذلك ، وانما أراد أن يكون له كتب ، فنى
أبا تمام يؤلف حماسته والبحترى يضع مختاراته وابن المعتز
يصنف بديعه .

وهذا يدلنا على أن ذلك العصر لم يكن عصر خيال ، وانما كان
عصر تفكير وعقل . وسبب ذلك معروف ، وهو تلك العلوم العربية
التي نشأت ، والعلوم الأجنبية التي ترجمت الى العربية . وكل
هذا دعا الناس الى أن يفكروا وأن ينشئوا ، وكان النثر أداة
التعبير عن ذلك كله .

فليس غريبا اذن أن تتغير طبيعة النثر وأن تكثر موضوعاته
وأن يزاحم الشعر حتى يزيه ، وأن يصبح فنا تؤدي فيه جميع
العلوم ، وجميع الأغراض التي كانت مجال الشعر . فنرى الكتاب
يمدحون ويهجون ويرثون ويعاتبون وهكذا . وقد تناولوا هذه

القصود كلها وبسطوها بسطا لم يكن مألوفاً في الشعر ، لأن البسط
أنسب الى طبيعة النثر من الشعر الموثق بالقيود .

ولم يتغير النثر في ذلك العهد من جهة موضوعه فحسب ، ولكن
طبيعته قد تغيرت كذلك ، فسهل ولان وأصبح مرناً طيئراً ،
يستطيع الكاتب أن يتصرف فيه كما يحب دون أن يستعصى عليه .
فالفرق عظيم جداً بين كاتب كابن المقفع الذي نجد في استساغة
نثره شيئاً من المشقة وبين كاتب آخر في القرن الثالث كالجاحظ
وابن قتيبة ، فإن الأخيرين يؤديان ما يريدان من المعاني في سهولة
وسر .

ولقد دعا هذا التطور في النثر أثناء القرن الثالث الشعراء الى
أن يسطروا عليه ويأخذوا منه كما كان الكتاب يسطرون على الشعر
ويأخذون منه . وأنت ترى شاعراً كابن الرومي يتفنن في معانيه
ويطيل في بسط فكرته مقلداً الكتاب ، ويسرف في ذلك اسرافاً حتى
بلغت قصائده أطول حد عثر في الشعر العربي الى عصره ، كما
أنه بسط ألفاظه تبسيطاً شديداً . وخير مثل لذلك همزيته
المشهور : ففيها تجده يأخذ معاني الكتاب في وصف الشطرنج
وفي العتاب في ألفاظ سهلة جداً .

ولقد أصبح الكتاب أوسع الطوائف علماً ، وأصبحت الكتابة
وسيلة الوصول الى أرفع مناصب الدولة . فقد رفع العباسيون
بلغاء الكتاب الى منصب الوزارة كما فعل المأمون والمعتصم .
وقلما رفعوا شاعراً لشعره ، وذلك لأن الشعر خيال وعاطفة ،
والكتابة عقل وحقيقة . والممالك حاجتها في تدبير شئونها الى

العقول أكثر من حاجتها الى العواطف والخيال . ولقد أجاد ابن قتيبة وصف الكتاب فقال : « هم السنة الملوك ، انما يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغرة أو عبارة بلاد أو اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء الى ألفسة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ومعظم الشئون التى يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة » (١) . ويقرر ذلك ابن خلدون فيقول : « ان صاحب خطة الرسائل والكتابة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة » (٢) . وهذا يدل على أن الكتاب كانوا ينشدون الثقافة الواسعة لتكون سبيلهم الى المناصب الرفيعة . ومن أجل هذا كانوا أعلى الطوائف كعبا فى تحصيل العلوم المختلفة الألوان . وها هو ذا الجاحظ زعيم أدباء عصره يعترف للكتاب بالفضل فيقول انه طلب علم الشعر عند الأصمعي فوجده لا يحسن الا غريبه ، فرجع الى الأخفش فوجده لا يعرف الا اعرابه ، فسأل أبا عبيدة فراه لا ينفذ الا الى ما يتصل بالأخبار . ولم يظفر الجاحظ بما أراد الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما .

ولعل أهم ظاهرة فى النثر العباسي لدى الرجال الرسميين اتسامه — خطابة ورسائل — بطابع الثعرة الدينية مباهاة بأواصر

(١) مقدمة أدب الكاتب .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٢٨ .

الرحم التي تجمعهم بالرسول صلى الله عليه وسلم . وكان من مظاهر ذلك ميلهم الى استعمال ألفاظ القرآن الكريم ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته والاستشهاد بها ، مدعين أن دولتهم قامت بدعوة دينية ترمي الى اصلاح ما أفسدت الدولة الأموية من معالم الدين ، وما عطلت من شعائره ، وما هتكت من حرماته . فكانت خطب أبي مسلم وداود وعبد الله ابني علي بن عبد الله بن عباس والسفاح والمنصور والمهدى والرشيد وكتبهم ومنشوراتهم ، كلها مفعمة بأى القرآن الكريم . وقد اطرذ ذلك فى أكثر شارات الدولة من البنود والأعلام والطراز والسكة . وتوسعوا فى ادخال ألقاب التعظيم ذات الطابع الدينى على أسماء الخلفاء صونا لأعلامهم الشخصية وحجبا لها عن امتهائها فى السنة السوقة ، فتلقبوا بالمنصور والمهدى والهادى والرشيد .. الخ . وظل ذلك ساريا فيهم الى أن غابت شمس دولتهم .

ويلاحظ على الخطابة بنوع خاص اللغة (الأوتوقراطية) التي كانت أشبه بلغة بابوات روما فى العصور الوسطى ، ولغة الملوك الذين كانوا يدينون بنظرية « حقوق الملك المقدسة أو الحق الإلهي ، وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه » . وهذا واضح فى خطب رجالات بنى العباس فى عصرهم الأول . انظر الى المنصور يقول فى بدء خطبة له : « أيها الناس ، انما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه بأذنه .. الخ » . وبهذه المناسبة يجمل بى أن أثبت هنا ملاحظة جديرة بالنظر

لأنها تعيننا على فهم بعض أسباب رقي الكتابة في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ؛ تلك هي أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التي كانت عليها في صدر تلك الدولة بعد أن استقرت دعائمها ، فقد فترت عند ذلك الدواعي واشتد اختلاط العرب بالأعجام ، وكانت الشخصيات البارزة في الدولة — في الغالب — من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تنجرد ألسنتهم بالخطابة ، لما يصيها أحيانا من لكمة العي وحضر العجمة ، فانصرفوا الى الكتابة ونهضوا بها نهوضا حثيثا وألبسوها حلة قشبية من آيات البلاغة والبيان على يد فحول كتابهم من أمثال ابنى سهل وابن سعدة وغيرهم .

وقد تترجم كتاب أرسطو في الخطابة في أواخر القرن الثاني وكلف به الكتاب كلفا شديدا حتى لقد أنكر عليهم ذلك ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب وسخر من المنطق والمناطقة . وكان لهذا الكتاب أثر عظيم في النشر ، وقد فجم عن ذلك طريقتان : طريقة قوم اتصلوا بالفلسفة اليونانية والعقل اليوناني ، وطريقة قوم اتصلوا بالحضارة الفارسية والأدب الفارسي . والفرق كبير جدا بين هاتين الطريقتين ، فأصحاب الثقافة اليونانية هم المتكلمون وبخاصة المعتزلة ، وهؤلاء أصحاب تفكير وعناية بالمعاني وترتيب الكلام ترتيبا منطقيا . وأصحاب الثقافة الفارسية يوجهون عنايتهم الى الألفاظ أكثر من عنايتهم الى المعاني . وكان ابن قتيبة وسطا بين أولئك وهؤلاء ، أعنى أنه تأثر بالطريقتين . فكان يعنى بالفكرة أشد عناية ويحتاج خصومه على طريقة أصحاب المنطق ، وفي الوقت نفسه كان يتألق

في لفظه وفي أسلوبه الى حد ما . ولكن كانت النزعة الفارسية غالبة عليه كما ستوضح بعد قليل .

ولا نعدو الحق اذا قلنا ان اساليب الانشاء قد تنوعت تبعا لمذاهب المنشئين في ذلك العصر لتنوع العلوم ، فاصبح للفقهاء أسلوب وللمتكلم أسلوب وللأديب أسلوب وهكذا . وهذه الظاهرة تنخلق حين تتطور العقول وتنوع الثقافات . وهذا مشاهد عندنا اليوم ، فللصحفي أسلوب خاص ، ولرجل الدين أسلوب خاص ، وللسياسي أسلوب خاص ، وللأديب أسلوب خاص ، ولكل واحد له حظ من ثقافة أسلوب خاص تنضح عليه ثقافته . وقد أشار الجاحظ الى ذلك فقال : « ولكن صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها .. وقبيح بالمتكلم أن يفتقر الى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو الحجار أو في مخاطبة أهله وعبيده وأمثه أو في حديثه اذا حدث أو خبره اذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » (١) .

وكان الكتاب في الواقع لا يتقيدون بمظهر خاص في الكتابة ، فأحيانا يطيلون ، وأحيانا يوجزون ، وصدق جعفر بن يحيى البرمكي أحد أمراء البيان حين قال : « اذا كان الاكثار أبلغ كان الايجاز تقصيرا ، واذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار هذرا » (٢) . وسئل أبو عمرو بن العلاء : « هل كانت العرب

(١) الحيوان ٣/ ١١٤ . (٢) نقد الشر ٩٦ .

تطيل؟ فقال: نعم ليسمع منها، فسنل: فهل كانت توجز؟ فقال: نعم ليحفظ عنها» (١). وللحافظ كلمة طيبة في هذه المسألة يقول فيها: «وللاطالة موضع وليس ذلك بخل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز... ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام» (٢). وهذه هي البلاغة بعينها، ومن أجل هذا قالوا إن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وليس من شك في أن الاطناب كان الصفة الغالبة في كل ما شمل بيعة أو عهدا أو احتجاجا أو اقتصارا أو تقريرا لمذهب أو استهواء أو دفعا لشبهة أو طلبا لنعمة أو ماشابه ذلك. وقد صور ابن قتيبة مزية هذا الاسهاب فقال: «وليس يجوز لمن قام مقاما في تحضيض على حرب أو حيلة بدم أو صلح بين العشائر أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب الى عامة كتابا في فتح أو استصلاح أن يواجز. ولو كتب كاتب الى أهل بلد في الدعاء الى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد الى مروان حين بلغه تلكه في بيعته: أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت والسلام — لم يعمل هذا الكتاب في أنفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدى ويحذر وينذر» (٣). وهذا يدل على أن زمن

(١) مقدمة أدب الكاتب.

(٢) الحيوان ١/٤٦.

(٣) أدب الكاتب ١٤ ليدن.

الإيجاز في مثل هذه الأمور قد ولى وأن الإطناب قد أصبح أجدى للصالح العام من الإيجاز ، ويدل من ناحية أخرى على أن النزعة الفارسية قد استحصدت مرّتها بتكاثر عدد من فُشاً من الفرس من الكتاب وباستداد تمازج من كان من الكتاب من أصل عربى بأهل فارس ، حتى كادت دولة العباسيين تعدّ فارسية لولا مكان الخليفة من العرب .

ولعل من أبرز تأثير النزعة الفارسية في الكتابة كذلك الميل الى التأنق في اللفظ وبخاصة في الرسائل ، وإطالة المقدمات ، وتنويع البدء والختام ، والتبجيل في الخطاب والاحتشام مع المخاطب ، والعلو والمبالغة ، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة . وقد تفنن بعض الكاتنين في بسط الكلام ، وأوغل بعضهم في الصنعة حتى أوشك البيان العربى أن يصاب بما يخرجهم عن رونقه القديم . ولذلك نرى جعفر البرمكى ينصح الكتاب قائلاً : « ان استطعتم أن تكون كتبكم توقعات فافعلوا » ، وذلك لأن القوم لم يسوا ما للإيجاز في النفوس من شدة الأسر . وكان من أثر النزعة الفارسية أيضاً أن بدأ السجع يجد من نفوس الكتاب استحساناً شديداً لحسن وقوعه على الأسماع ، فأولعوا به وقصدوا اليه . ولا أدل على ذلك من اعجابهم الشديد برسالة ابراهيم بن سيابة الى يحيى بن خالد ، حتى ان عامة أهل بغداد كانوا يحفظونها في تلك الأيام كما يروى الجاحظ ، وهى رسالة طويلة يقول فيها : « للأصيد الجواد ، الوارى الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم البازل ، اللباب الحلال ،

من المسكين المستجير ، البائس الضرر ، فاني أحمد الله ذا العزة
القدير اليك وإلى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة .
أما بعد فاعلم واسلم واعلم ان كنت تعلم أنه من يرحم يرحم ،
ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغم ، ومن يصنع المعروف
لا يعدم .. الخ » (١) . وهذه الرسالة تبين لنا إلى أي حد بلغ
كلف القوم بالسجع .

ونحن لا ننكر أن السجع وتجد قبل هذا العصر ، وقبل أن
تتأثر الحياة الأدبية بالروح الفارسية ، ولكنه كان يأتي طواعية من
غير تكلف . فأنت تجده في العصر الجاهلي ، وأبلغ مثال له خطبة
قس بن ساعدة الأيادي ، وهي معروفة مشهورة . وقد ورد في
أحاديث الرسول سجع ، ولكنه جاء عفوا لا تصنع فيه ، وتستطيع
أن تقرأ كثيرا من هذه الأحاديث الشريفة في كتاب « المثل
السائر » (٢) . ولكنك تخص في هذه الأحاديث أنه سجع مرسل
جاء عن غير عمه . وقد بدت الكراهية في وجه الرسول حين سجع
رجلا يشكلف السجع في كلامه وقال : « أسجع كسجع الجاهلية » (٣)
ويعلق صاحب « نقد النثر » على كلام رسول الله فيقول : « وإنما
أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله ،
وتكلف فيه السجع تكلف الكهان » . ومن ذلك يتضح أن السجع
المطبوع مستحسن وفيه زين للكلام ، ولذلك اعتبره صاحب

(١) اقرأ جزءا منها في البيان والتبيين ١٢٨/٣ .

(٢) المثل السائر ص ١١٤ وما بعدها .

(٣) نقد النثر ١٠٧ .

للطراز أول مراتب الترتيب وامتدحه واستقبح المصنوع منه (١) .
 وابن سنان الخفاجي يعتبر السجع المطبوع من أحسن ألوان
 البديع (٢) . وما أحسن قول صاحب التلخيص في السجع :
 « وأصل الحسن في ذلك كله أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني
 دون العكس » (٣) . ومن يرد أن يقرأ الكثير عن السجع وألوانه
 وتطوره في مختلف عصوره فليقرأ الفصول الممتعة التي كتبها عنه
 المرجوم الدكتور زكي مبارك في كتاب « النثر الفني » (٤) .

مهما يكن من شيء فقد أقبل الناس في العصر العباسي على
 السجع بعد أن بدأت النزعة الفارسية تدب في الكتابة ، وسرت
 عدواه إلى الشعراء ، ولم تسلم منه التوقيعات . فهذا جعفر
 البرمكي يكتب إلى عامل جائر : « قد كثرت شاكوك وقل شاكروك ،
 فأما اعتدلت وأما اعتزلت » . وكان السجع مقبولا إلى حد ما ممن
 يملكون نواصي اللغة ومقاود الفصاحة ، ثم خلف من بعدهم خلف
 ضعفت فيهم ملكة اللغة وأعوزهم البيان فأسرفوا في الصنعة
 اللفظية اسرافا أضفى على الكتابة المسخ والسخف .

وبعد فقد كان لا بد من أن أرسم صورة واضحة المعالم للنثر
 في العصر العباسي وما اختلف عليه من تأثيرات ونزعات لنعرف

(١) الطراز ٢/ ٣٧٢ .

(٢) سر الفصاحة ٩٢ .

(٣) التلخيص ص ٦٧ طبعة استنبول .

(٤) انظر النثر الفني ١/ ٦٤ وما بعدها .

ترة ابن قتيبة في الكتابة وسمات أسلوبه . فقد نشأ في القرن الثالث ، وهو العصر الذي نضجت فيه العلوم واستتوت الكتابة وبلغت ذروة مجدها وتنوعت فنونها .

وأنت حين تقرأ لابن قتيبة تجد له أسلوبين متباينين :
الأول : أسلوب يجري به قلمه في النقاش والجدل ، وهذا الأسلوب غير مشرق ويجنح الى شيء من التعقيد الذي يحتاج الى كد الذهن حتى يسلس الفهم . وتقرأ ذلك الأسلوب في « تأويل مختلف الحديث » والاختلاف في اللفظ . ويقتنى أنه تأثر فيه بأساليب المناطقة ورجال الكلام وأرباب الفلسفة . وقرأ معي هذه الفقرة وفيها يسخر ابن قتيبة من أبي الهزبل العلاف : « وزعم أنه يستحيل أن يفعل في حال بلوغه بالاستطاعة التي أعطاها في حال البلوغ ، وإنما يفعل بها في الحال الثانية ، فإذا قيل له فمتى فعل بها في الحال التي سألها أم في حال البلوغ والفعل فيها عندك محال ، وقد فعل بها ولا حال الا حال البلوغ والحال الثانية قال قولاً مرعوباً عنه مع أقاويل كثيرة في فناء نعيم أهل الجنة وفناء عذاب أهل النار » (١) .

أنا أعترف بأنني أجد عناء شديداً في فهم هذا الكلام . وهذه الكرازة ملحوظة في الكتب التي يجادل فيها مخالفيه في المذهب الديني والاعتقادي وهم أهل الرأي والمتكلمون . وتراه في هذه الكتب يطيل الجمل ، ولهذا تجد نفسك مجهودة لتربط بين

(١) تأويل مختلف الحديث ٥٥ .

الكلمات من الناحية النحوية ؛ فتجد الخبر مثلا أو المفعول به بعيدا
قد لا تشعر عليه الا بعد سطرين ، وربما لا تستطيع ادراكه الا بعد
معاودة النظر والفكر . وتجده في كتاب « الأشربة » نحو نحو
الفقهاء في استنباط الأحكام الفقهية .

الثاني : أسلوبه في كتب الأدب وما يتصل بها ، وكذلك في
المقدمات التي ينشئها في صدر مؤلفاته ، وفيما بقي من رسائله
وهو « كتاب العرب » ان صح أن نسميه « رسالة » . وهذا
الأسلوب يجمع بين السباحة والاشراق والجزالة ، وهو الذي
نسميه « بالأسلوب الأدبي » ، وعليه مدار حديثنا . وكتاب العرب
أدل على أسلوب ابن قتيبة الأدبي ، وفيه شعر بشيء من العناية
الفنية والتأنق في اللفظ . ومقدمات « الشعر والشعراء وأدب
الكتاب وعيون الأخبار » تعطيك صورة لأسلوبه الأدبي ، ولكنها
على أية حال دون كتاب العرب .

ويلاحظ أن ابن قتيبة كان يميل الى السجع أحيانا يجعل به
كتابته ، ولكنه سجع لا يزيد على فاصلتين غالبا ، وهو الذي
يسميه أبو هلال العسكري « الازدواج » (١) . وقرأ قوله في
وصف حال العرب في الجاهلية : « والعرب يومئذ منقطعة ليس
لها نظام ، ومتفرقة ليس لها التمام ، وأكثرها يحارب راجلا بالسيف
الكليل والرمح الذليل .. » (٢) ، وقوله في ذى الهمة :
« فيخاطر في طلب العلم بعظيمته ، ويستخف في ابتغاء المكارم

(١) الطناعتين ص ٧٤ مطبعة السعادة .

(٢) رسائل البلاغ ٣٧٠ (كتاب العرب) .

بكريمته ، ويركب الهول ، ويدرع الليل ، وتأبى نفسه إلا علوا
حتى يسعد بهته ويظفر بنغيته » (١) ، وقوله في مقدمة أدب
الكاتب : « فاني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب
ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين .. والعلماء
مغمورون ، وبكرة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير
وكسدت سوق البر .. » . ولست أشك في أن ابن قتيبة كان يقصد
إلى هذا السجع إذا سلس له قياده ، ولكنه لا يجهد نفسه في الاتيان
به إذا اعتاض عليه ، وحين ذلك تراه يرسل الكلام ارسالا في
سساطة وقوة .

ونثر ابن قتيبة في مجموعه مرسل برىء من التصنع ، وهو
يحفل بالفكرة ويوليها عناية شديدة ، والسجع عنده قليل جدا
إذا قيس بسجع غيره من كتاب زمنه .

وابن قتيبة — على تنوع ثقافته — يميل في أسلوبه الأدبي
إلى الاحتفاظ بالخصائص العربية ، ويكره أن يشوب الكتابة
أساليب الفلسفة ومصطلحات المنطق . وأنت تراه في مقدمة أدب
الكاتب يسخر من أهل المنطق وصور قضاياهم سخرية شديدة .
وهذا راجع إلى أمرين : أولهما أنه كان يكره أصحاب الكلام
وبخاصة المعتزلة ، وهؤلاء جل اعتمادهم على المنطق ، ومن أجل
هذا يطلق الجاحظ على أرسطو « المعلم الأول » ، وثانيهما : أن

(١) رسائل البلاء ٣٥٩ .

ثقافته الأجنبية الغالبة فارسية ، والمنطق عرفه العرب عن اليونان كما نعرف .

ويتم أسلوب ابن قتيبة على تفقّه في اللغة واستبطانه لأسرارها . ربما استبطان والمامة بالفاظها ما يختار منها وما يطرح . فهو ينزل اللفظ في منزله ويصبّه في قواله ، وكأنّه أخذ بمخني اللغة ، لا تعزب عنه شاردة ولا واردة منها . ولا شك أن تجرّه في الأدب واللغة كان من أشدّ أسلحته في مقارعة خصومه .

وكانت الموضوعات التي يطرقها لا تتخطى محيط الأدب والدراسات الدينية ، ولذلك ترى ألفاظه وأساليبه موائمة لهذه الموضوعات كل الموائمة . وكان قليل الميل الى العلوم الأجنبية ، ولهذا لم يكن مضطرا الى مواجهة أية صعوبة في التعبير عن المعاني العلمية الحديثة . وإلى ذلك يرجع الفضل في بساطة أسلوبه وسهولته الى حد ما . وأنت تشعر أن جميع مقدمات كتبه ذات طابع واحد يتم على شخصية واحدة ، ولهذا لم نجد عسرا في أن نرفض نسبة كتاب « الامامة والسياسة » اليه بمجرد قراءة مقدمة الكتاب .

ونحن نلاحظ أيضا أنه يكرر بعض الجمل في مواطن كثيرة من كتبه تؤدي معنى خاصا ويضعها في أماكنها المناسبة .

وكان شديد العناية بالمعنى ، ولذلك تراه يتخير ألفاظا لمعاني لا معاني لألفاظه . وتحسه يسير مع الطبع متجافيا عن خشونة العمل ووعث التعقيد . وكان ينفر من استعمال الألفاظ الوحشية ويقول : « ويستحب له (أي الكاتب) أن يدع في كلامه التعقير

والتعقيب» (١) ، ويستشهد بالحديث الشريف : « أبغضكم الى
الثرثارون المتفهبون المتشدقون » .

وقد تأثر ابن قتيبة أشد تأثر بالطريقة الفارسية التي تميل
الى الاسراف في التبجيل والتعظيم ، والى اختيار الألفاظ المنمقة
العذبة . ويظهر ذلك بوضوح في رسائله الاخوانية القليلة جدا
التي عثرنا عليها في كتاب « عيون الأخبار » (٢) . ومنها هذه
الرسالة في الاعتذار والاستعطاف (ولم يذكر المعتذر اليه) « قد
أودعني الله من نعمك ما بسطني في القول مدلا به عليك ، ووكد
من حرمتي بك ما شفع لي في الذنوب اليك ، وأعلقني من أسبابك
مالا أخاف معه ثيوات الزمان على فيك ، وأمتني بحلمك وأناثك
بأدرة غضبك ، فأقدمت ثقة باقالتك ان عثرت وبتقويمك أن
زغت وبأخذك بالفضل ان زلت » . وله رسالة شكر أرسلها الى
محمد بن عبد الله بن ظاهر نرى فيها كذلك تأثره بخصائص الطريقة
الفارسية التي أشرنا اليها . ونراه كذلك متأثرا من ناحية أخرى
بالثقافة اليونانية من ناحية تنسيق الفكرة وترتيب المعاني والعناية
بها . وقد أتاه ذلك التأثر من مجالس المتكلمين حين كان يطلب
العلم بالبصرة في صدر شبابه . والظاهر أنه ازور عنهم لأن
معتقداتهم لم تجد من نفسه هوى .

ولنزعته الدينية ترى أسلوبه مزدانا بالاقتباس من القرآن

(١) مقدمة ادب الكاتب .

(٢) انظر عيون الأخبار ٢/٢٢٢ ، ١٠٦/٣ .

والحديث . يضاف الى ذلك ذخيرة ضخمة من روائع المنظوم وبلغ الحكم والأمثال .

وابن قتيبة لا يميل كثيرا الى الاستعارات والكنيات والمجازات والتشبيهات . وسبب ذلك أنه ليس من أرباب الخيال الواسع ، فهو خليق أن يعد في جماعة الحسين أرباب الفلسفة الحسية . وهو من هذه الناحية يخالف الجاحظ الذي يفيض أسلوبه بالصور البيانية ، ولهذا كان أسلوبه أجمل وقعا على الأسماع من أسلوب ابن قتيبة . وليس معنى ذلك أن ابن قتيبة أسقط هذه الصور البيانية جملة ، فانها الأقطاب التي تدور عليها البلاغة على حد تعبير عبد القاهر ، ولكنه كان قليل الاستعمال لها ، وقرأ قوله في وصف الشعر : « الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها ، وديوان أخبارها ، ومستودع أيامها ، والسور المضروب حول مآثرها ، والخندق المحجوز على مفاخرها ، والشاهد العدل يوم النار ، والحجة القاطعة عند الخصام .. الخ » (١) .

ويختلف ابن قتيبة عن الجاحظ كذلك في أنه يميل الى الإيجاز والى تأدية المعنى من أقصر طريق . أما الجاحظ فكان يجنح الى الاطناب والاكثار من المترادفات ، وقرأ له هذه الفقرة في كتاب البيان والتبيين « ومن أجل الحاجة الى حسن البيان واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة (واصل بن عطاء) اسقاط الراء من كلامه واخراجها من حروف منطقته ، فلم يزل يكابد ذلك ويعالجه ويناضله ويساجله ويتأني لستره والراحة من هجته ،

(١) عيون الأخبار ١٨٥/٢ .

حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل .. الخ » (٢) . فأسلوب الجاحظ فيه اطالة ، والجميل تترادف لتوضيح المعنى كما ترى . وسبب ذلك أن الجاحظ — فيما أعتقد — كان ينبغي من كتبه ترجية الفراغ . أما ابن قتيبة فكان صاحب رسالة يريد أن يؤديها ، وهذا أمر يدعو الى أن يصل الى هدفه من أقرب الطرق من غير اقبال ليحفظ عنه ، ولذلك تجد أفكاره تتلاحق متصلة مرتبطة في انسجام ووضوح .

وسر قوة أسلوب ابن قتيبة أنه — على ايجازه — واضح جزل صافي الديباجة على العموم ، ولا يحتاج الى كد الفكر في استخراج خبيئه ، وذلك لاستبحاره في اللغة ووقوفه على دقائقها كما قلنا . واقرأ معي ما يقوله في وصف الشعر المصنوع : « والمتكلف من الشعر وان كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوى العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبن وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة اليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه » ، وما يقوله في الشاعر المطبوع : « والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبيئت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر » (٢) ، وقوله يحث الشعراء على التزام نهج القدماء :

(١) البيان والتبيين ٣٠/١ .

(٢) مقدمة الشعر والشعراء . الزحير = اخراج الصوت او النفس بأثنين عند عمل أو شدة .

« وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو ييكنى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيع والحنوة والعرارة » (١) . وقرأ قوله في وصف طبائع الناس : وهذه الطبائع هى أسباب الشرف وأسباب الخمول ، فذو الهمة تسمو به نفسه الى معالى الأمور ، وترغب به عن الشائئات ، فيحاطر فى طلب العلم .. ومن لا همة له جثامة لئد ، يغتم الأكلة ويرضى بالدون ، ويستطيب الدعة ، وإن أعدم لم يأنف من ذل السؤال . والحيان يقر عن أمه وأبيه وصاحبه وبنيه . والشجاع يحمى من لا يناسبه بسيفه ، ويقى الجار والرفيق بمحبته . والبخيل يبخل على نفسه بالقليل . والجواد يوجد لمن لا يعرفه بالجزيل ، وقال الله عز وجل « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » يريد قد أفلح من أنسى نفسه بالمعروف وأعلاها ، وقد خاب من أسقطها بلئيم الأخلاق وأخفاها . وقد يكون الرجل مخالفا لأبيه فى الأخلاق وفى المسائل أو فى الهمم أو فى جميع ذلك لعرق نزعه من قبل أجداده لأبيه أو أمه ، وقال الشاعر :

وأشبهت جدك شر الجدود والعرق يسرى الى النائم » (٢)

(١) مقدمة الشعر والشعراء . (٢) رسائل البلغاء ص ٣٥٩

فهذه فقرات من نثر ابن قتيبة ، ومنها تعرف الخصائص التي
يمتاز بها والتي أشرنا إليها بالتفصيل ، فيها وضوح وسهولة ،
وفيهما رصانة وجزالة . وتلاحظ في الفقرة الأخيرة شيئا من السجع
الذي يأتي عن طواعية ، وتلاحظ كذلك الاقتباس من القرآن
الكريم والشعر ، وهو يضع المقتبس في أنسب مكان ، وهذا يدل
على تمكنه من اللغة . ولعل أهم ما لاحظته في هذا النثر أنه مرسل
ينساب في غير تكلف أو تصنع .

ولا يخلو أسلوب ابن قتيبة من الاستطراد كغيره من كتاب
ذلك الزمان ، ولكنه استطراد أسمى أنا « استطراد مناسبة » وفي
الغالب يكون ناشئا من شرحه للكلمات الأشعار التي يسوقها ،
فيدعوها هذا الشرح إلى الاستشهاد بالشعر ، وسرعان ما يعود ثوبا
إلى موضوعه . وقد يكون استطراده ناشئا من تداعي المعاني
الذي يدل على فطرة محببة ، وهذا عنده كثير ، ويكفيني منه
هذا المثل : يقول في الحديث عن المغيرة بن شعبة : « وولاه عمر
البصرة ففتح عيسان » ، ثم استطرد عقب ذلك بسبب تداعي
المعاني فقال : « وأبو الحسن البصري وأبو محمد بن سيرين
من بني عيسان » ، ثم عاد إلى الحديث عن المغيرة وهو موضوعه
الأصلي فقال : « وافتتح دمت عيسان وأبرقان وسسوق
الأهواز الخ » (١) . فأنت تلاحظ هذا الاستطراد القطري حين
ذكر فتح المغيرة لعيسان ، ثم دار بخاطره في الحال أن أبوى هذين
الرجلين من بني عيسان فذكرهما من غير ربط بين الجملتين .

وقد لاحظت أن ابن قتيبة يستعمل في أسلوبه التضمين كثيرا ، وهو أمانة بعض حروف الجر عن بعضها ، وأنه يعطف أحيانا على المضاف قبل ذكر المضاف إليه مثل قوله في مقدمة عيون الأخبار : « وهذا يكون في مثل كتابنا لأنه في آداب ومحاسن أقوام » ، وأنا لا أحمد له هذا العطف ولا أستسيغه من ناحية فن القول . وهو مذهب كوفي ، والصريون لا يستسيغونه كثيرا ويقدرّون المضاف إليه بعد المعطوف عليه (١) .

وفي أسلوبه الأخباري في عيون الأخبار نراه يؤثر كثيرا استعمال الجمل الاسمية حين يورد الخبر ، فيقول مثلا : « إبراهيم ابن المنذر قال .. » و « سهل بن محمد يقول .. » وهكذا . هذا هو أسلوب ابن قتيبة بكل ما يمتاز به ، ويلاحظ أنه يدل على رجل قد صقلته الثقافات المختلفة ، فضلا عن وقوفه على أسرار اللغة ودقائقها وقوفا تاما .

(١) شرح مجمع الهمام ص ١٢٢ .

الباب السادس

ابن قتيبة ومعاصروه

أريد في هذا الباب أن أعقد مقارنات بين ابن قتيبة وبعض أدباء عصره من الذين يشاكلونه في بعض النواحي الثقافية ، ولهم آثار تشبه آثار ابن قتيبة الأدبية . ولعل أول من يتجه إليهم نظرنا لهذه المقارنة هو شيخ الكتاب الجاحظ . فقد كان أول من صنف الكتب الأدبية واجتذاه بقية المؤلفين ، فضلا عن أنه استغرق جزءا كبيرا من نشاط ابن قتيبة المذهبي وتعرض لحملاته العنيفة بسبب اختلافهما في المذهب . ثم ان ابن قتيبة قد تأثر به من غير شك وروى عنه كثيرا . فهو أذن أوثق أدباء العصر صلة بابن قتيبة ، ولهذا سنولى هذه المقارنة أشد عناية ، وستفصل فيها تفصيلا يوفقك على دقائقها ، ويفسر لك بعض مواقف ابن قتيبة منها ، ويبين لك التباين بين منحي كل منهما .

وبعد ذلك أعقد مقارنة عاجلة بين ابن قتيبة وبين محمد بن سلام الجمحي ، ثم بين ابن قتيبة وبين محمد بن يزيد المبرد ، لأن لكل منهما كتابا له نظيره عند ابن قتيبة .

الفصل الأول

ابن قتيبة والجاحظ

- ١ -

ولد الجاحظ قبل ابن قتيبة بأكثر من نصف قرن (سنة ١٥٩) ،
وبذلك أدرك شباب الدولة العباسية في أوج مجدها . وكان زعيم
المعتزلة ، وقد عاصر سلطانها في زمن المأمون ، واتصل بها كان في
أيامه من حركة علمية وفلسفية ، وظل رافعا رأسه كزعيم لهم في
عصر المعتصم والوائق اللذين سارا سيرة المأمون في مناصرة
الاعتزال . وشاهد حكم المتوكل الذي عصف بالمعتزلة وأبطل
دولتهم .

وقد تمرس الجاحظ بالحياة أيها تمرس ، فقد عثر ما يقرب
من المائة سنة (توفي سنة ٢٥٥) ، وقلبت عليه ظروف متباينة ؛
فمن فقر الى ثراء ، ومن قرب من السلطان الى بعد عنه وتعرض
للاضطهاد ، ومن شباب عازم الى شيخوخة محطمة .
وقد أدرك في حياته الطويلة كل الأحداث التي اختلفت على
الدولة العباسية ، فشاهد الصراع بين الأمين والمأمون ، وعاش
معظم حياته ودولة القرس في شامخ قوتها ، ورأى سقوط دولتهم

وظهور دولة الترك في زمن المعتصم . وعاصر ترزع الخلافة
العباسية واضمحلالها وتركز السلطة في يد الأمراء .

وقد اتصل الجاحظ بالوزراء والعظماء أمثال محمد بن
عبد الملك بن زياد وأحمد بن أبي دؤاد والفتح بن خاقان ، ونال
كثيراً من حوائجهم . وتنقل في مختلف البلدان ، فقد ولد بالبصرة
ونشأ بها ، وعاش في بغداد زمناً ، ورجل إلى دمشق وأنطاكية
وغيرهما . فلا غرو أن يكسبه ذلك كله لونا آخر من ألوان الثقافة
يعاير ما في الدفاتر والكتب ، وهو التجارب الطويلة والالمام
بطائع الناس وأخلاقهم وطرق معاشهم وفضائلهم ووزائلهم وما في
سائرهم المختلفة من حيوانات ونباتات وأجواء .

ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ صورة مجلوة للحياة
الاجتماعية في عصره ، وقلما تجد ذلك في كتب معاصره
كأين قسيه والمبرد .

والحق أن كل شيء وقع تحت حسه أو تحت تفكيره كان
موضع تجربته . وقد رزق من دقة الملاحظة في طبائع الأشياء
ونفوس الناس ما لم يترزقه أحد من علماء عصره . وكان خبيراً
بالحياة الاجتماعية أعظم خبرة ، فقد وصف في دقة نواحي القمار
وعمل الخاطبات في البيوت وحياة الفتيان وطمع التجار وطماعة
المطعمين وما إلى ذلك . وساعده على كل هذا اتصاله بالناس على
اختلاف طبقاتهم من الخليفة إلى الباعة المتجولين . وكان في صدر
شبابه يستهن ببيع الخبز والسك في طبلية يحملها على رأسه ،

فعرف الكثير من طبائع الناس في البيع والشراء . ومن أجل هذا كله يُعتبر الجاحظ خير مؤرخ اجتماعي في عصره .

أما ابن قتيبة فلم تفتح له هذه الخبرة الطويلة التي اكتسبها الجاحظ ، فقد عاش نيفا وستين سنة ، ولم يكد يستوى ويبلغ أشده حتى أدرك الخلافة العباسية الاضمحلال على يد الترك ، فلم ير القوة العباسية التي رآها الجاحظ ، ولم يتنقل في البلدان كثيرا كما تنقل الجاحظ ، ولم يتصل بالوزراء والعظماء اتصال الجاحظ بهم . ولهذا لم تكن له هذه الخبرة المكتسبة بالمخالطة كالتي كانت للجاحظ . ولهذا أيضا نرى ثقافته علمية محضة منشؤها القراءة والاطلاع ، وقلما تظهر في عيون الأخبار بما ينبثق عن الحالة الاجتماعية في عصره .

— ٢ —

وهناك بون شاسع بين مزاجي الرجلين ، فالجاحظ كان أميل إلى التفاؤل ، يرى الدنيا بعين المغمبط المحبور لا بعين المغيظ المحقق ، ويبدو عليه ذلك إذا كتب أو تحدث ، يغمره السرور وتعباده الدعاة . ولم يكن بالمتزمت ولا بالمتنسك ، بل كان من أرياب المذهب الواقعي (Réaliste) ، يرى من العبث أن يكلف الأيام ضد طبيعتها ، فلا يس دهره كما هو ، وعرف أنه يحلو ويتمر ، فرضي بحلوه ومره ، ووجد في الرضا والقناعة عزاء .

أما ابن قتيبة فكان على نقيض ذلك ، كان ناظما على مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في عصره : فقد أنكر على شباب العلم شغفهم بالعلوم الحديثة ونسى أن الناس مولعون دائما

بكل جديد . ونقم على هؤلاء الذين أخذوا يحطون من شأن العرب وانبرى للدفاع عنهم في ايمان وقوة . وكان رجل دين يلتزم جادة التوقر والترمت . وكان شديد الميل الى على وآل بيته ، ولكنه لم يكن شيعيا كما يبتا . أما الجاحظ فيصفه بعضهم بأنه كان عثمانيا ينتصب (أى يفضل عثمان على على رضى الله عنهما) ، والتنصب ضد الشيع أى كراهة على وآل بيته (١) رضوان الله عليهم أجمعين . وعلى هذا المذهب كان كثير من أهل البصرة منذ واقعة الجمل .

— ٣ —

ويختلف الاثنان في أن ابن قتيبة كان يضع مؤلفاته لغرض التعليم والافادة . ولذلك كانت مواضيع كتبه مما يمس حاجة الناس . وأشد كتبه ميلا الى التسلية « عيون الأخبار » . ومع ذلك فقد أشار في مقدمته الى أنه أراد أن يزود طلاب المعرفة بذخيرة طيبة من الشعر والنثر . أما سائر كتبه فتحمل مسحة العلم والجد ، وقد دفعه الى تصنيفها حاجة الناس اليها . ولذلك تجدها مرتبة منسقة لتسهيل الاستفادة منها .

والجاحظ كان يتخير موضوعات مؤلفاته مما يجذب الناس ويدخل في نفوسهم الامتاع والتسلية ، ولهذا ترى كتبه خليطا من كل فن ، وكأنه كان يسجل خواطر متباينة تدور بخلده ، ولم يترك شيئا وقع عليه حسه الا تناوله ، ولذا تراه يكتب في

(١) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ٢٨٩ .

أجل الموضوعات وفي أنفسها . وهو في جميع كتبه يمزج الجدل بالهزل
والحقائق بالفكاهة حتى لا يتقل على القارئ . ويقول المسعودي :
« وكتب الجاحظ — مع انحرافه المشهور — يتطو صدأ الأذهان
وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم . ورصفها
أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف
ممل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة
بليغة إلى نادرة ظريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين
وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار
ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر
لا كفى به » (١) .

وعبارة المسعودي تصور لنا كتب الجاحظ أصدق تصوير .
ومن أجل هذا لا يصعب عليك أن تميز أسلوب الجاحظ لما فيه من
روح الفكاهة والتسلية . وهو يبين ضرورة ذلك فيقول في كتاب
الحيوان : « ومتى خرج (أي القارئ) من آي القرآن صبار
إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صبار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر
إلى الشعر ، ومن الشعر إلى النوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية
ومقاييس شدادة ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل والملا
إليه أسرع حتى يقضى به إلى مزح وفكاهة وإلى سخف وخرافة ،
ولست أراه سخفا » (٢) . وهو يأسف لسلوكه هذه السبيل ويقول

(١) مروج الذهب ٢/٣٤٤ .

(٢) الحيوان ١/٤٦ .

انه اضطر الى ذلك اضطرارا^(١)، وذلك لأن الناس تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة اذا طال ذلك عليها^(٢). ومن الغريب أنه يذكر أن ما لاقاه من النصب في اتباع تلك الطريقة أشد مما لو صنف كتابا في موضوع واحد^(٣).

وحين يتصفح المرء كتاب البيان والتبيين يصادفه استطراد يشبه القوضى، فهو يبدأ بالتعود من قننة القول والعمل ومن الحصر، ويسوق أشعارا في ذلك. ثم يذكر حكاية موسى عليه السلام ودعائه الله أن يحل عقدة لسانه. ثم ينتقل إلى التشديق والتقدير والتقريب، ثم يستطرد إلى بيان فصاحة واصل بن عطاء شيخ المعزلة. ولا ينسى في أثناء ذلك أن يذكر ما يجمل العي وما يستره من عقل ومال ذاكرة أقوالا لبرزجمهر. ولا يزال يستطرد من معنى إلى معنى حتى تراه بعد قليل قد تناول موضوعا بعيدا كل البعد عن موضوعه الأصلي. فلا تعدم مثلا أن ترى في باب البيان ذكرا للعي والحصر والطلاقة والبلاغة، وقد تحدث عنهما في الباب السابق. وهكذا تراه يتبع هذه الطريقة الاستطردية في جميع كتبه، فهو يدون كل ما يسنح له في غير ترتيب أو نظام. ولقد أحس الجاحظ نفسه بهذه القوضى، ولذا يرجو القارئ ألا يبرم من خلل يجده أو سوء تأليف يصادفه أو اضطراب

(١) الحيوان ٥١/٥.

(٢) الحيوان ٢/٣.

(٣) الحيوان ٦٩/٤.

يلفيه (١) ويرى المرحوم الأستاذ أحمد أمين « أن الجاحظ
مستول على الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي ، فقد جرت
على منواله وحذت خذوه ، فالمبرد تلميذه قد تأثر به في تأليفه .
والكتب التي ألقت بعده كعيون الأخبار والعقد الفريد فيها شيء
من الترتيب والتبويب » (٢) .

ولعلنا نجد في كتب الجاحظ ومن لفه لفه تحقيقا للمعنى السائد
الكلمة « الأدب » في ذلك الحين ، وهو الأخذ من كل فن بطرف .
ونحن نجد أن كلا من ابن قتيبة والمبرد قد تأثر بالبيان
والتبيين والحيوان تأثرا غير قليل ، غير أن كلا منهما تأثر به من
الناحية التي توائم عقليته وثقافته . فابن قتيبة احتذاه في جمعه
كثيرا من الثقافات الأخرى إلى جانب الثقافة العربية ، وفي
الاستطراد القليل الذي لا يبعده كثيرا عن الموضوع . والمبرد نسج
على منواله في رص المعلومات المختلفة بعضها إلى جانب بعض من
غير تنسيق . وتأثره بالجاحظ من ناحية مزج الثقافات ضئيل جدا ،
لأن المبرد كان عربيا ذا ثقافة عربية خالصة .

— ٤ —

ويمتاز الجاحظ على ابن قتيبة بأنه كان أقل منه ايمانا
بالخرافات ، وبأنه كان — إلى حد ما — يتخذ نظرية الشك التي
قيل أن « ديكارت Descartes » ابتدعها بعده بزم من طويل
أساسا لكل بحث ، ويقول الجاحظ : « وتعلم الشك في المشكوك

(١) الحيوان ٦٩/٤ .

(٢) ضحى الإسلام ٣٩٢/١ .

فيه تعلما ، فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت كان ذلك مما يحتاج اليه » (١)

والجاحظ أخلق بصفة « العالم » من ابن قتيبة ؛ وأعنى بالعالم الذى يجرى وراء تعرف حقائق الأشياء بالبحث والتجربة . وقد رسم الجاحظ لنفسه هذا المنهج فى مقدمة كتاب الحيوان فقال : وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربيا أعرابيا واسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة . فهو يستعين بالحواس والتجارب فى ادراك الحقائق ، وكأن الجاحظ قد أدرك مزايا التجربة والمشاهدة فى الوصول الى الحقيقة قبل أن يدركها الفيلسوف الانجليزى « روجر بيكون Roger Bacon المتوفى سنة ١٢٩٤ » ؛ فقد أوجب هذا الفيلسوف الاعتماد على التجربة والمعاينة ونبذ آراء المتقدمين لأنهم لا يعاينون الأمور ولا يحرون عليها التجارب . وقد سجن فى أواخر أيامه بسبب آرائه واعتبر ساحرا ، وكان فى نظر معاصريه خليف الشيطان . على أن الجاحظ قد ذهب الى أبعد من ذلك ؛ فقد رأى أن طريقة التجربة قد لا تضمن له الاقضاء الى الحقائق لأن الحواس التى يعتمد عليها فى التحقيق قد تخدع فى بعض الأحيان فيقول : « ولعمري ان العيون لتخطيء وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان ذماما على الأعضاء

(١) الحيوان ١٠/٦ .

وجازا على الجواس « (١) . ويقول في مكان آخر : « فلا تذهب الى ما تركك الجواس واذهب الى ما يريك العقل . وللأمور حكيمان : حكم ظاهر للجواس وحكم باطن للعقل والعقل هو الحجة » (٢) . ومن ذلك ندرك أن الجاحظ كان عنده روح العالم الباحث الذي نعرفه في القرن العشرين . وفي كتاب الحيوان نراه يجرى تجاربه على الحيوان في دقة تدعو الى الإعجاب ، ثم يدون ملاحظاته بعد المشاهدة وتحكيم العقل . ومع ذلك لم تسلم كتبه من الخرافات .

أما ابن قتيبة فقلما يناقش خبرا أو يجرى تجربة أو يحاول تحقيق خرافة ، لأنه لا يتبع طريقة الشك والتجربة التي اتبعها الجاحظ وأدت الى نتائج قيمة . ونجد الجاحظ لا يقف جامد الفكر وراء أرسطو ، فانه ينقل عنه ويناقش قوله ولا يقنع به اذا أعوزه الدليل . ومن ذلك انه نقل عن أرسطو أن اناث العصفير أطول أعمارا ، وأن ذكورها لا تعيش الا سنة (٣) . ولم يأخذ الجاحظ هذا الكلام على علاقته ، لأن أرسطو لم يأت بدليل جازم كما يقول . وكثيرا ما يقارن بين قول أرسطو في موضوع ما وبين ماورد فيه من شعر العرب ، ويوازن بينهما ويحكم عقله . وأحيانا يأخذ برأى صاحب المنطق ، وأحيانا أخرى يأخذ برأى العرب ، وطورا يرفض الرأيين ويأخذ بما يصل اليه عقله .

(١) رسالة التوبيخ والتدوير على هامش الكامل ٤٣/١ .

(٢) الحيوان ٩٧/١ .

(٣) الحيوان ٦٧/٥ .

وابن قتيبة ينقل من ثقافات الأمم الأخرى أكثر مما ينقل الجاحظ ، ولكن ندر أن يناقش خبراً من الأخبار . ولا شك أن ثقافة الجاحظ اليونانية كانت أضخم مما عرف ابن قتيبة من هذه الثقافة لسيين : أولهما أنه كان من المعتزلة ، وقد تسلم المتكلمون بالفلسفة والمنطق لعلبوا خصومهم . وثانيهما أنه كان يجالس المثقفين بها ويتحدث اليهم مثل مسلمويه وابن ماسويه وحنين بن اسحاق . وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في مواطن متفرقة من كتابي الحيوان والبيان والتبيين . أما ابن قتيبة فكان فارسي المولد والجنس والثقافة ، وكان يكره المتكلمين ويكره ثقافتهم ، لأنها سبب مروقهم في نظره .

- ١٥ -

وكان ابن قتيبة زعيم أهل السنة يعتمد على القرآن والحديث ، ولا يعتمد كثيراً على القياس والاجتهاد . أما الجاحظ وفرقة فهم يعتمدون على عقولهم ولا يتقيدون بأى نص . ولذلك يسميهم بعض الفرنجة « المفكرين الأحرار » *Libres Penseurs* . كما يقول « البسارون » كرادى *Carra de Vaux* في كتابه « مفكرو الاسلام » (١) . فالمعتزلة في نظره فلاسفة يخوضون في مسائل الدين حسب ما يريدون من غير أن يتقيدوا بنص ، فهم رجال العقل في الدين . ولا يعتبرهم « دى فو » « ملحدون » *Incroyants* .

وانما يعتبرهم أصحاب مباحث دينية ، يعتمدون على العقل لا النقل
« Théologiens Rationalistes » من غير أن يكون هناك ما يغتفر
دينهم ، بخلاف ما يراهم أهل الحديث .

وطريقة المعتزلة تشبه الى حد كبير الطريقة التي اتبعها فلاسفة
القرن السابع عشر في أوروبا من حيث الاعتماد على العقل حين
يخوضون في المباحث الدينية . ومن أشهر هؤلاء « پاسكال Pascal
وديكارت Descartes » ، وكانت عقائدهم الدينية مع ذلك تظل
سليمة راسخة .

ولكون ابن قتيبة رجل دين فراه قد يتخذ الأدب وسيلة لغاية ،
وهي الاستعانة به على فهم كتاب الله وحديث نبيه ، ومُحاجة
خصومه الذين يعتقدون على الدين . ونحن نستطيع أن نستشف
ذلك في كتبه . ويقول البطليوسى أحد شراح « أدب الكاتب »
ان ابن قتيبة يرى أن للأدب غرضين : أحدهما أدنى ، والآخر
أعلى ؛ « فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب
والتمهر فيه قوة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن
يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسول الله
صلى الله عليه وسلم وصحابته ، ويعلم كيف تنبىء الألفاظ الواردة
في القرآن والحديث » (١) .

أما الجاحظ فكان غرضه تصوير حياة الناس وامتاع القراء
بكل طريف ومليح ، ولذلك كان لا يهتم كثيرا بالمصادر .

(١) الاقتضاب في شرح ادب الكتاب ص ١٤

وكان العداء مستحكماً بين أهل السنة والمتكلمين ، وكان ابن قتيبة بحكم مركزه يحمل على المتكلمين عامة وعلى المعتزلة بنوع خاص وعلى الجاحظ بنوع أخص . وكانت حملته موجهة إلى مذهبه واطهاره بمظهر الخارج على الدين . ولم يجرؤ قتيبة على أن يثلم الجاحظ من ناحية علمه أو ذكائه أو شيعه حصوله ، بل أنه روى من كتبه في عيون الأخبار .

وهناك أمر آخر ساعد على اشتداد أوار هذه العداوة هو تحاسد العلماء ، ولهذا لم نر ابن قتيبة يذكر للجاحظ فضلاً أو أية ماثرة في العلم والأدب . وهذا يدل على أن الحسد يتسلل إلى قلوب العلماء وأن العلم لا يهون من خطبه . وقد أحسن الأستاذ « ريشيه Richet » تصوير الحسد بين العلماء فقال : « العلماء حساد لأنهم بشر ، فهم لا يستطيعون أن ينظروا بعين الرضا إلى تكرم بكرة زميل من زملائهم ، أو إلى لقب يحصل عليه ، أو إلى خطوة يحظى بها أو إلى غير ذلك . وكلما كان العلم الذي ينصرف إليه هذا الزميل قريباً من علمهم اشتد الحسد ، فالفلكي لا يحزنه الشرف الذي يطوق جيد النباتي ، ولكن يغيبه شرف يحصل عليه فلكي آخر ، ويرى أنه لا يستحقه » (١) . ولا شك أن الجاحظ كان أوسع صيتاً من ابن قتيبة مع أن الأخير لا يقل شأناً عن الأول ، فأحق ذلك ابن قتيبة ، وكان سبباً من أسباب حملته عليه . وربما كان حق ابن قتيبة على الجاحظ جزاء وفاقاً

من عدالة السوء على ما كان يشكته الجاحظ من بالغ الحسد
والحسد لعقري العرب « الخليل بن أحمد » ، فقد كان ينفس
عليه فطنته ونبوغه ويدمه قائلاً : « ان الخليل بن أحمد من أجل
احسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الايقاع وتراكيب
الاصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مسّ يده قضيباً قط ،
ولا كثرت مشاهدته للمعنين . وكتب كتاباً في الكلام ، ولو جهد
كل بلع في الأرض أن يعتمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك .
ولو أن مروراً استفرغ قوى مرته في الهديان لما تهيأ له مثل ذلك
منه ، ولا يتأتى ذلك لأحد الا بهذلان من الله تعالى » (١) . فهل
مثل هذا القول يقال في الخليل الذي تعز به العرب والعريية ؟
ولكن الحسد — قاتله الله — يحيل البياض سواداً .

ومن الغريب أن هؤلاء العلماء الكبار كالجاحظ وابن قتيبة
يرددون في مواطن كثيرة من كتبهم ذم الحسد ويبيحون سوء
عاقبته ، ويحثون الناس على تجنب هذه الرذيلة المفقوة . فما أعظم
التناقض بين أقوالهم وأفعالهم !

— ٦ —

ويريدون لي أن عدم اهتمام الجاحظ بشعائر الدين كان من
الأسباب التي دفعت ابن قتيبة الى الحملة عليه . والمعروف عن
المتكلمين عامة أنهم كانوا لا يكثرثون بالدين كثيراً ، فلا يقيمون

صلاة ولا يحرمون حراما كما ذكرنا . وكان هذا من الأمور التي
شدت من أزر ابن قتيبة في مهاجمتهم .

وقد عثرت على نصوص تجعلني أقف من دين الجاحظ موقف
المرتاب ؛ فأحمد بن أبي دؤاد يقول عنه : « أنا أثق بظرفه ولا أثق
بدينه » (١) . ويقول ثعلب : « ليس بثقة ولا مأمون » (٢) ،
ويقول : « كان كذابا على الله وعلى الرسول وعلى الناس » (٣) .
وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان يرمى بالزندقة (٤) . ويقول
الأزهري : « كان الجاحظ روى عن الثقات ما ليس في كلامهم ،
وكان أوتي بسطة في لسانه وبيانا عذبا في خطابه ومجالا واسعا
في فنونه غير أن أهل العلم والمعرفة بلغات العرب ذموه وعن
الصدق دفعوه » (٥) ، ثم استورد الأزهري فقال : « إن الجاحظ
ذكر في مجلس أحمد بن يحيى (وهو ثعلب) فقال : اعدلوا عن
ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة ولا مأمون » . ولما قتل الوزير
ابن الزيات أمر ابن أبي دؤاد بالجاحظ فجاء به مقيدا في الأغلال ،
فلما رآه ابن أبي دؤاد قال له : « قبحك الله ، ما علمت أنك إلا كثير
توثيق الكلام ، وقد جعلت يمالك أمام قلبك ، ثم اضطغنت فيه
النفاق والكفر » (٦) . وأخيرا اقرأ معي هذه القصة لتدرك أن

(١) طبقات الأدباء ٢٥٨ .

(٢) شذرات الذهب ١٢١/٢ .

(٣) لسان الميزان ٣٥٧/٤ .

(٤) لسان الميزان ٣٥٦/٤ .

(٥) تهذيب اللغة ١٥/١ مخطوط .

(٦) شرح العيون ١٥٦ .

الجاحظ كان لا يهتم بإقامة الصلاة : « قال ابن أبي الدنيا المحدث : حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر ، فصلينا وما صلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ . فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : انى ما صليت لمذهب أو لسبب أخبرك به . فقال له : ما أظن أن لك مذهبا في الصلاة الا تركها » (١) .

وعدل القول في هذه المسألة أن الجاحظ — من غير شك — كان يؤمن بالمبادئ الأساسية التي يقوم عليها صلب الدين مثل وحدانية الله وقدرته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم والتشريعات التي أتى بها . ونحن نستشف ذلك من نصوص كثيرة في كتبه ، وبخاصة كتاب الحيوان . فهو يذكر الغريب من طبائع الحيوان ويتخذ من ذلك دليلا على جمال صنع الله وأحكامه وقدرته (٢) . وهو يعتبر كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الأوائل فيقول : « وأكثر من كتبهم نفعا وأشرف منها خطرا وأحسن موقعا كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة » (٣) . ولكن يغلب على ظني أنه ما كان يهتم كثيرا بإقامة الشعائر مثل الصلاة والصوم وغيرها . لهذه الأسباب حمل ابن قتيبة على الجاحظ وقييله حملة عنيفة ، فكفّره ، وسجل عليه أنه أكذب واحد في الأمة ، وأخذ

(١) تاريخ ابن عساکر ص ١٧٨ .

(٢) انظر كتاب الحيوان ٤٧/٣ ، ١٩/٧ ، ١٥٢/٥ ، ٤٩/٥ .

(٣) الحيوان ٤٣/١ .

عليه أنه يذكر حجج النصارى على المسلمين « فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفاء من المسلمين . وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعيب ، يريد بذلك استمالة الأخذات وشراب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان .. وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لناطل » (١) .

ولا ريب في أن ابن قتيبة كان قاسيا في مهاجمة الجاحظ ، وأنا لا أظن أن الجاحظ كان بهذه الصورة التي صورها ابن قتيبة ، وليس في كتاب الرد على النصارى ما يدل على رقة دين الجاحظ ، أو انحراف في عقيدته . وقد تصدى أحد المعجبين به للدفاع عنه بعد مماته ، وهو أبو الحسن الخياط الذي ألف كتابه « الاتصار » يرد فيه على المطاعن الجارحة التي وجهها ابن الراوندي إلى الجاحظ .

— ٧ —

على أن حملة ابن قتيبة تعد هينة رفيقة بالنسبة إلى حملات غيره عليه . ومن أشدهم هتكاً له الإمام « أبو منصور البغدادي » ؛ فقد وضع كتاباً في ذم المعتزلة منها : فضائع المعتزلة ، وكتاب قفى خلق القرآن ، والفرق بين الفرق (٢) . ولم يصل إلينا منها إلا الأخير . وفي هذا الكتاب « الفرق بين الفرق » يرد البغدادي

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٢ .

(٢) طبقات الشافعية ٢/٢٣٨ .

على بعض آراء الجاحظ في الفلسفة والتوجيه ، وينسبه الى
الشعوبية . ويعلم الله أن الجاحظ يرى من هذه التهمة ، وكتاب
العصا شهيد على ذلك .

وقد غلا البغدادى في حملته على الجاحظ غلوا شديدا حتى
انه استكثر عليه أن يسمى « انسانا » ، واعتبر هذه التسمية جريمة
لا تغفر . وقد التمسوا له شيئا من أصناف الحيوان فلم يجدوا
أصلح من الخنزير . ويقول البغدادى : « ولو عرفوا جهالاته في
ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم اياه انسانا ، فضلا عن
أن ينسبوا اليه احسانا » (١) . ويقول في موضع آخر : « ومن
افتخر بالجاحظ سلمنا اليه قول أهل السنة فيه كقول الشاعر :
لو يمسح الخنزير مسحا ثانيا

ما كان الا دون قبـح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه

وهو القذى في كل طرف لاحظ » (٢)

والواقع أن مواهب الجاحظ كانت فوق مستوى خصومه ،
وكان من الغسير عليهم أن يصلوا الى آفاق عقليته . ولا شك
أن ابن قتيبة كان أقوى هؤلاء الخصوم عقلا وأقدرهم على
المحاكاة والجدل . ولكن ليس من العدل أن يرمى الجاحظ بمثل
ما رمى به وهو أحد الثلاثة الذين كان ثابت بن قرة يحسد الأمة
العربية عليهم وهم : عمنر بن الخطاب والحسن البصرى

(١) الفرق بين الفرق ١٦٠ .

(٢) الفرق بين الفرق ١٦٢ .

والجاحظ (١) . ويقول ابن نباته : « مما فضل الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم على غيرها من الأمم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سياسته والحسن البصري بعلمه والجاحظ بيانه » (٢) .

ومما يرفع شأن الجاحظ في أعيننا أننا نراه لا يوجه إلى خصومه شيئا من بدىء القول أو فاحش اللفظ كما وجهوا إليه ، وكان ابن قتيبة يعترف بذكاء الجاحظ وقوة عقله وشدة عارضته ، وهو يقول في ذلك : « وكان (أى الجاحظ) يبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء وتقيضه » (٣) . ولكنه يأخذ عليه أنه كان يناقض نفسه فيقول : « وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه ومرة يؤخره » (٤) . ويأخذ عليه كذلك أنه كان يدنس اسم النبي الكريم بذكر أسماء من حشوة الناس بعده فيقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه : قال الجملز ، وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش » (٥) . ويأخذ ابن قتيبة عليه أيضا « أنه يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث .. الخ » .

- (١) اقرأ تفصيل ذلك في مقدمة الجزء الثاني من البيان والتبيين للأستاذ حسين السندوبى .
 (٢) سرح العيون ١٥٦ .
 (٣) تأويل مختلف الحديث ٧١ .
 (٤) تأويل مختلف الحديث ٧٢ .
 (٥) المصدر نفسه .

والواقع أن روح الفكاهة سارية في كتب الجاحظ كلها . وهذه
مسألة يجمل بي أن أزيدها بيانا ، لأن ابن قتيبة قد تأثر بها كثيرا
في كتاب عيون الأخبار .

— ٨ —

يرجع ولع الجاحظ بالفكاهة الى أمرين :
الأول : طبيعة الجاحظ المشرقة التي تميل الى الضحك والمرح
والهزل . وساعد على ذلك خلقه مشوّهة قبيحة تعين على المزح
والغرف ، وربما كانت مصدر الضحك والاضحاك . وكان الجاحظ
مطبوعا على الهزل يلتقط النكتة ولو في الطريق ، لا يبالي في
سبيلها بمخاطبة العامة ولو أسمعوه ما يكره ، ولا تفوته النكتة
قط حتى في مجالس الخلفاء .

الثاني : في عصره ترجمت الى العربية علوم اليونان والفرس
والسريان والهنود من فلسفة ومنطق وطب وهندسة وحساب وفلك
وحكم وغير ذلك . وهذه العلوم كلها تأخذ القارئ بجدها
فلا يلبث أن يرين على ذهنه الكلال ، وحينذاك تشوف نفسه
الى شيء من التطرية والفكاهة تساق اليه الفينة بعد الفينة ،
والجاحظ يشير الى ذلك كثيرا .

وكان الجاحظ لا يرى حرجا في ذكر العورة بأسمائها دون
اللجوء الى الكنايات ، فهو من أصحاب الأدب المجرد .

والظاهر أن هذا المذهب كان يجد سبيله في نفوس العلماء
والأدباء والشعراء في ذلك العصر . وحسبك أن تعرف أن الناس
كانوا يتناشدون أشعار امرئ القيس والأعشى وعمر بن ربيعة

ومهاجاة جرير والفرزدق والأخطل على ما فيها من فحش . ونحن نعرفه أنه قد ظهر في هذا العصر بشار وأبو نواس والحمادون ومطيع وابن الضحاك الذين كانوا لا يتورعون عن ذكر أفحش الألفاظ وأشدها تبذلا ، والناس يرددون أشعارهم على الملأ وفي خلق المساجد على غير استحياء .

ولقد أبان الجاحظ عن منزعه في الأدب الواقعي فقال : « وبعض الناس إذا انتهى الى ذكر .. (وهنا ذكر ألفاظا فاحشة لا يستحب ذكرها) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع . وأكثر من تجده كذلك فائما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع . ولم يكشف قط صاحب رياء وتقيا الا عن لؤم مستفحل ونذالة متسكنة . وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة ، وكان الرأي ألا يلفظ بها » (١) .

وقد سار على هذا النهج كثير من العلماء والأدباء مما يعتبر اليوم مخالفا للعرف ، ومنافيا للأدب . ومنهم ابن حزم الظاهري في « طوق الحمامة » ، والقاضي التنوخي في « نشوار المحاضرة » ، وياقوت في معجم الأدباء وغيرهم . وناهيك بكتاب « ألف ليلة وليلة » فمؤلفوه على اختلاف عصورهم كانوا لا يتحرجون من ذكر ما يمجّه السمع وتأباه العفة . ويؤيد هذا المذهب عبد القاهر الجرجاني فيقول : « وقد استشهد العلماء لغريب القرآن واعرابه نالآيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعيهم ذلك

اذ كانوا لم يقصدوا الى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم يرووا
الشعر من أجله « (١) . وما من شك في أن الجاحظ وابن قتيبة
أو أضرأيهما ما كانوا يقصدون الى الفحش لذاته ، وإنما كان
غرضهم النفع العام كما يقولون .

وهذا المذهب — مذهب الأدب المجرد — كان يعتنقه كثير من
مشاهير أدباء فرنسا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثل :
« بلزاك Balzac وفلوبير Flaubert وزولا Zola » وغيرهم ،
ويؤكد يكون بلزاك أستاذ هذا الأدب المكشوف .

ويحدثنا الأستاذ المرحوم كرد علي بأن كثيرا من أدباء العصر
الحديث يدافعون عن هذا المذهب ويرون فيه مزايا عظيمة ؛ فيقول
« القديس كليمان St. Clément » : « أنا لا أحجل — لفائدة
القراء — من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الانسان لأن
المولى تعالى لم يخجل اذ خلقها » . ويقول « مونتيني Montaigne »
وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين :
« ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري
حتى شجبهوا وابتعدوا عن ذكره ، فتراهم لا يجسرون على الكلام
عنه الا بشيء من الخجل ، ويتعدون عنه في أحاديثهم . وهم
يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا ،
ولا يجرون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق ،
فيا للعفة المكذوبة ويا للنفاق المخجل » (٢) .

(١) استزار البلاغة ص ٢٠٧ .

(٢) أمراء البيان ٣٣٩/٢ هامش أ .

فليس بدعا أن يعالج الجاحظ هذا اللون من الأدب ما دام يرى
أن النفع لا يتحقق إلا به .

وقد تأثر ابن قتيبة بالجاحظ في هذه الناحية تأثرا شديدا ، فانه
استعان بالفكاهة والمزح يزجيها الى القارىء دفعا للملل والسآمة
في كتاب « عيون الأخبار » فيقول في مقدمته : « ولم أخله مع ذلك
من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لأرواح
بذلك عن القارىء من كد الجهد واتعاب الحق » . وهو يؤيد مذهب
الأدب الصريح فيقول بعد ذلك : « وإذا مررت بك حديث فيه
ايضاح بذكر عورة أو .. أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع
أو التخاضع على أن تصغر خدك وتعرض بوجهك ، فان أساء
الأعضاء لا تؤثم وانما المآثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب
وأكل لحوم الناس بالغيب » . وكأن Montaigne الفرنسي
قد اتفق في خاطره مع ابن قتيبة في هذه الفكرة كما ترى من تشابه
الفقرتين .

وابن قتيبة يحاط في ذلك خشية أن يفتح الباب على مصراعيه
فيقول بعد ذلك : « ولم أترخص لك في ارسال اللسان بالرقت
على أن تجعله هجيراك على كل حال وديدتك في كل مقال .
بل الترخص في حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقصها الكناية
ومذهب بعلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجري في القليل من هذا
على عادة السلف الصالح في ارسال النفس على السجية والرغبة
بها عن لبسة الرياء والتصنع » .

ويبدو من هذا الكلام أن المزح لم يكن من طبيعة ابن قتيبة .

بخلاف الجاحظ الذي جُبلت نفسه على الهزل ولو جلب له أشد الأذى . وهذا يدلنا على أنه قلّد الجاحظ تقليداً ، ولذلك لا نرى له هذا الروح الفكاهي إلا في كتاب واحد شبيه بكتب الجاحظ وهو كتاب « عيون الأخبار » . أما كتبه الأخرى فإنها مطبوعة بطابع الجند الصارم . بل إن وقار ابن قتيبة لا يخفى من كتاب عيون الأخبار ، ولهذا نراه يعنى بالزهد عناية شديدة ، ولا يفوته أن ينبه القراء في المقدمة الى أن كتابه « دال على معالي الأمور ومرشد لكريم الأخلاق » زاجر عن الدناءة ، ناه عن القبح . وكل ما هنالك أنه كان يستبيح لنفسه ذكر العورة والألفاظ الفاحشة ليؤدى المعنى الذي يقصده بدقة لا تتوفر في التلميح والكناية ، ولهذا نراه يورد أقوالاً للرسول صلى الله عليه وسلم وبعض صحابته فيها ألفاظ صريحة للعورة من غير تحرج ، لأن رائدهم نفع الناس وإرشادهم .

وأكبر مصداق على قولى هذا أن ابن قتيبة ينكر على الفرزدق وجري ما ورد في شعرهما من بذى القول وفاحشه لأنه كان « تعبيراً وابتهاراً في الأخوات والأمهات وقذفاً للمحصنات الغافلات فتفهم الأمرين وافرقت بين الحسنين » . وكل ذلك دليل على أنه كان يعنى بالفكاهة وذكر الأشياء المبتذلة النفع وحسن التوجيه .

— ٩ —

وعلى الرغم مما كان بين ابن قتيبة والجاحظ من خصومة ولدند نراه يروى عنه في كتابه « عيون الأخبار » . وهنا يبرز لنا سؤال

هام وهو : هل أخذ ابن قتيبة من الجاحظ مباشرة ؟ وبعبارة أوضح : هل تلمذ ابن قتيبة على الجاحظ ؟ وهل حضر مجالسه العلمية ؟ . يعتقد الدكتور اسحاق الحسيني أن هذا صحيح . ولعله قد اعتمد في هذا الحكم على ما ورد في كتاب عيون الأخبار . ولكني لا أرى هذا الرأي ، لأن كل ما في عيون الأخبار صيغة وردت ثلاث مرات هذا نصها : وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر الجاحظ من كتبه قال .. الخ ^(١) . وهو هنا يتخذ الإجازة وسيلته للأخذ . ويجب أن نعرف أن للأخذ طرقاً ستا هي بحسب ترتيبها في القوة كما ذكرها السيوطي ^(٢) :

الأولى : السماع من لفظ الشيخ أو العربي ، وللمتحمل بهذه الطريقة صيغ أعلاها أن يقول : أُملى عليّ فلان ، ويلى ذلك سمعت ، ويلى ذلك أن يقول : حدثني أو حدثنا فلان ، ويلى ذلك : أخبرني أو أخبرنا ، ويلى ذلك أن يقول : قال لي فلان ، ويلى ذلك : قال فلان (بدون لي) ، ونحو ذلك زعم فلان ، وعن فلان ، وفلان قال . ويقال في الشعر : أنشدني وأنشدنا .

الثانية : القراءة على الشيخ ، ويقول عند الرواية : قرأت على فلان .

الثالثة : السماع على الشيخ بقراءة غيره ، ويقول عند الرواية : قرئ عليّ فلان وأنا أسمع .

الرابعة : الإجازة ، وذلك في رواية الكتب والأشعار المدونة .

(١) انظر عيون الأخبار ١٩٩/٣ ، ٢١٦/٣ ، ٢٤٩/٣ .

(٢) الزهر ٧١/١ الطبعة القديمة .

الخامسة : المكاتبة ، والرواية بها : بعث الى فلان بكذا كتابة ،
أو فيما كتب به الى فلان كذا .

السادسة : الوجدادة ، ويقال عند الرواية : وجدت في كتاب
فلان كذا ، ووجدت بخط فلان كذا ، وقرأت بخط فلان كذا .
ومن ذلك نعرف أن الاجازة غير السماع على اختلاف صورته .
ولمعى ذلك أن من أجيز اليه لا يأخذ من الشيخ مباشرة ولا يحضر
مجالسه . ولو كان ابن قتيبة قد سمع من الجاحظ لروى ذلك
بصيغة من صيغ الطريقة الأولى للتحمل وهى : أُملى على فلان ما
سمعت ... الخ .

والظاهر أن ابن قتيبة لم يتوسع في هذه الاجازة ، لأنه لم يرد
منها الا ثلاث فقط . وقد لاحظت أن الشيء الذى رواه ابن قتيبة
عن الجاحظ بالاجازة مذكور في كتاب « البخلاء » مع خلاف
طفيف .

ووردت صيغة أخرى في عيون الأخبار أربع مرات هذا
نصها : « قال عمرو بن بحر » (١) ، وثالثة وردت مرتين بنص
« قال الجاحظ » (٢) .

وهذه الصيغة أو تلك لا تعنى أنه سمع الجاحظ نفسه لأنه
يتبع تلك الطريقة مع علماء ماتوا قبل أن يولد بأكثر من قرن من
الزمان مثل الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وهما من التابعين .
وأنا أظن أن ابن قتيبة لم تكن لتسعه خصومته من أن يصرح

(١) عيون الأخبار ١/٢١٩ ، ٢/٥٦ ، ٢/٢٠٤ ، ٤/١٠٨ .

(٢) عيون الأخبار ٢/٣٣ ، ٣/١٣٧ .

بضعفة السماع لو سمع من الجاحظ مباشرة . فهو الذى لا يتورع
عن أخذ العلم من الأمة الوكعاء ، لأن العلم ضالة المؤمن كما
يقول .

على أنه نقل كثيرا من كتب الجاحظ مثل البيان والتبيين
والحيوان والبخلاء ، وكان يقدم ذلك بقوله : وقرأت فى
وأخذ كثيرا من كتاب اسمه « التاج » وهو اسم لكتابين :
أحدهما الكتاب الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية . وثانيهما
كتاب اسمه « التاج » ينسب الى الجاحظ ، ولكنه يعنى الأول من
غير شك ، وقد عرفت ذلك بعد أن اطلعت على الكتاب المنسوب
الى الجاحظ .

أما بعد ، فقد أطلت عليك الحديث فى المقارنة بين هذين
الأدبيين الكبيرين وهذا أمر ما منه بد لأنها كانا أعظم أدباء هذا
العصر ، وكان كل منهما يمثل مذهبا خاصا فى الدين والأدب . وقد
عنيت ببيان تأثير ابن قتيبة بالجاحظ الذى يتعبر أول من وضع
فى الأدب كتابا ، وكتابه « البيان والتبيين » كان النموذج الأول
الذى وقعت عليه أعين المؤلفين بعده .

الفصل الثاني

ابن قتيبة وابن سلام

ليس من وكدي أن أعرض لحياة ابن سلام ونشأته ، وإنما همي أن أعقد مقارنة بين الرجلين تتصل بمنحى كل منهما في تأليف كتابيهما : طبقات الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة . وهالك أوجه هذه المقارنة العاجلة بين الرجلين :

١ — محمد بن سلام الجعفي بصرى أخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة ويونس بن حبيب وخلف الأحمر . أما ابن قتيبة فقد أخذ عن تلاميذ المدرسة الأصمعية وبعض رواة الكوفة ، واستقر في بغداد وتبلور فيه المذهب الحديث الذي نشأ بين المذهبيين وهو المذهب البغدادي .

٢ — ابن سلام رجل يكاد يقصر معارفه على اللغة والأدب . أما ابن قتيبة فيمثل القرن الثالث في تنوع المعارف ، وكتبه تشهد بذلك ، وهي في فنون متنوعة . وعلى ذلك فذهنية كل منهما تختلف عن الأخرى .

٣ — يلوح لي أن ابن سلام كان يجري على مذهب أبي عمرو ابن العلاء الذي كان لا يعترف لمحدث بسبق أو نبوغ . ويظهر

ذلك من أنه لم يتعد في كتابه الشعراء الاسلاميين ، أى شعراء العصر الأموي . ولم يذكر أحدا من المحدثين مع أنه أدرك كثيرا من فطاحلهم اذ توفي حوالي سنة ٢٣٢ . أما ابن قتيبة فقد ذكر بعض رجال الطبقة الأولى من المحدثين مثل بشار وأبى نواس ومسلم ، بل انه ذكر دعبلا الخزاعي الذي مات في منتصف القرن الثالث .

٤ — وقد اختلف كل منهما عن الآخر في تصنيف كتابه ؛ فابن سلام وضع كتابه « طبقات الشعراء » وهو اسم ينطبق على منهج الكتاب نفسه ، لأنه قسم الشعراء الى طبقات ، ووضع كل شاعر في طبقته التي يستحقها ويراها أهلا لها . أما ابن قتيبة فقد رتب الشعراء — على الجملة — ترتيبا زمنيا ؛ فبدأ بالجاهليين ، ثم بالاسلاميين ، ثم بالمحدثين . ويعرف من ذلك أنه لم يذكر الشعراء حسب مكاتبتهم الشعرية ولا حسب القبائل . وقد تحدثنا عن ذلك باشهاب فيما مضى .

ومن أجل هذا فاني أخالف من يسمى هذا الكتاب « طبقات الشعراء » ؟ مثل كتاب ابن سلام . والمراوح الأستاذ أحمد أمين يطلق عليه حين يشير اليه بين مراجعته أحيانا اسم « طبقات ابن قتيبة » . وأنا لا أوافق على ذلك ، لأن الكتاب ليس فيه طبقات .

٥ — ومن الفروق الواضحة بين الرجلين اختلاف مادة كل مؤلف ؛ فابن سلام قلما يحفل بالحوادث التي جرت للشاعر أو يذكر أمورا تتصل بحياته أو قيلته ، وقلما يشير الى الأسباب التي حدثت

به الى أن يصله في طبقته . أما ابن قتيبة فإنه يهتم كثيرا بذكر ما وصل اليه من أمور تاريخية عن الشاعر وعن قبيلته .

٦ — ويمتاز كتاب ابن قتيبة بمقدمته الطيبة التي أودعها آراءه القيمة في النقد ، والكتاب نفسه أفسح آفاقا من كتاب ابن سلام ، ففيه نقد ، وفيه تاريخ ، وفيه كثير من آراء الأقدمين في الشعراء والشعر . أما كتاب ابن سلام ففيه آراء قليلة في النقد ، وقدر من النصوص قليل . ويعتبر ابن قتيبة أول عالم أنصف الشعر وأنصف الشعراء ، وقد فصلنا ذلك في حينه . ويمكن أن يقال إنه أول ناقد وضع للنقد الأدبي قواعد ومهتد طريقه لمن بعده .

٧ — وكتاب ابن سلام يعد ضيلا من حيث مادته إذا قورن بكتاب ابن قتيبة ، لأن ما ورد فيه من الشعر ومن الشعراء لا يبلغ ثلث ما أورده ابن قتيبة ، وتلك تاجية لها قيمتها . على أن الانصاف يدفعنا الى أن نذكر لابن سلام فضلا كبيرا على النقد الأدبي . ذلك أن الرواة واللغويين والنحاة قد خاضوا في النقد وفي تدقيق الشعر ، أمثال أبي عمرو بن العلاء ويونس والمفضل الضبي وأبي عبيدة والأصمعي ، وكان مما خاضوا فيه الكلام في الشعر المصنوع ونسبته الى غير قائله . فلما جاء ابن سلام كان أول من دون هذه الفكرة وبرهن عليها . فقد قرر في مقدمة كتابه أن من الشعر الجاهلي ما هو مصنوع ، وأبدى بعض الأسباب التي حملتهم على هذا الوضع كالعصية واقتعال الرواة . وذكر أن من الشعر المصنوع ما يشكل تمييزه ، ومنه ما يسهل تمييزه ،

وقد طبق هذه النظرية أحيانا أثناء حديثه عن الشعراء ، فيقول مثلا : « عبيد بن الأبرص قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف الا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالفطيات فالذنوب » (١) ويقول : « حسان بن ثابت كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحتمل على أحد .. ووضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به » (٢) .

وكأنه أراد بهذا أن يخلص الشعر مما أضيف اليه ، وأن يحتمل الذين يدونونه على أن يحتاطوا وينقوا صحيحه من زيفه ، وأن يدعوا الأحيال القادمة الى الحذر والتبصر والتأني حين النظر الى شعر الجاهليين . وهذا والله فضل عظيم نذكره لابن سلام . وابن سلام أول من قسم الشعراء الجاهليين والاسلاميين الى طبقات ، نعم شاع في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي أن الناس يجمعون على أن امرأ القيس والنابعة وزهيرا والأعشى هم الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ، وأن جريرا والفرزدق والأخطل هم الطبقة الأولى في الاسلاميين . ولكن ابن سلام استوحى من هذه الفكرة تقسيم الشعراء الى طبقات عشر ، وهو أول من فعل ذلك ودونه في كتاب .

وطريقته التي استحدثها أنه قسم الشعراء الجاهليين الى شعراء بادية وشعراء قرى أو مدبر ، وجعل شعراء البادية عشر طبقات كل

(١) طبقات الشعراء ٤٩ طبعة صبيح .

(٢) طبقات الشعراء ٨٤ طبعة صبيح .

طبقة تتألف من أربعة شعراء ، ثم ضم إليهم أربعة شعراء من
 البادية سماهم شعراء المراثي ، فيكون قد خص البادية بأربعة
 وأربعين شاعرا . ثم تناول شعراء القرى ، فذكر شعراء الأوس
 والخزرج في يثرب وشعراء مكة وشعراء الطائف وشعراء البحرين
 وشعراء يهود المدينة وأكنافها . وجعل مخضرمي الجاهلية والاسلام
 كالخطيئة وكعب بن زهير ضمن الجاهليين . وهو على حق في
 ذلك ، لأن شعر هؤلاء المخضرمين ظل محتفظا بسماته الجاهلية في
 الاسلام ، ولم يتغيره تغيير يخرجهم عن حظيرة الشعر الجاهلي .
 ثم تناول بعد ذلك الاسلاميين وجعلهم عشر طبقات ، كل طبقة
 أربعة شعراء ، وشعراء الطبقة الأولى جرير والفرزدق والأخطل
 والراعي .

وكان رائد ابن سلام في تقسيم الشعراء أمرين اثنين : الأول
 جودة الشعر ، والثاني كثرة إنتاج الشاعر . وبهذين الاعتبارين
 يوضع كل شاعر في مرتبة التي تليق به ، فالأسود بن يعفر شاعر
 جاهلي وضعه في الطبقة الخامسة قائلا : وله واحدة طويلة رائعة
 لاحقة بأول الشعر لو كان شفعا بمنثلها لقدمناه على أهل
 مرتبة « (١) » وذكر مطلع القصيدة .

ويقول في شعراء الطبقة الرابعة الجاهلية : هم أربعة رهط
 فحول شعراء موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم
 بأيدي الرواة وهم طرفة بن العبد وعبيد وعلقمة وعدي
 ابن زيد « (٢) » .

(١) طبقات الشعراء ٥٤ . (٢) طبقات الشعراء ٤٩ .

وقد سلك ابن سلام مسلكا « كلاسيكيا » ، فإذا كان الشاعر من الطبقة الأولى اكتفى عادة بذكر ما قاله السابقون عنه من غير أن يبدي رأيا ، وكأن حكم السابقين — في نظره — أصبح أمرا مقررًا لا يجوز أن ينقضه . أما إذا كان الشاعر من غير هذه الطبقة ، فإنه يذكر رأى الأقدمين فيه ورأيه الخاص غالبًا وأسباب وضعه في طبقته ، وهذا في الطبقات المتقدمة .

وكان لابن سلام في النقد وجهتان : الوجهة الأولى الذوق الخاص ، أعنى أن الكلام في شعر الشعراء وفي صياغته وفي معانيه أمر يتدخل فيه الذوق كثيرًا ، والذوق — كما نعرف — يتباين عند الناس . فناقد يفضل الفرزدق وآخر يفضل جريرا وهكذا . وهذا هو « النقد الذاتي Subjective » . الوجهة الثانية هي هذا النقد الذي لا يتوقف على الذوق ولا تختلف فيه الأذواق ، فهو نقد يتصل ببيان علاقة الأدب بصاحبه أو صلة الأديب ببيئته أو صلة الأديب بالحياة الاجتماعية التي عاش فيها وما لا يس بيئته من أحداث وظروف . وهذا النقد — من غير شك — يعتبر تعليلًا لبعض الظواهر الأدبية ، ويسمى « نقدًا موضوعيًا Objective » . فابن سلام يصل أحيانًا بين الشاعر وبيئته ، أو بعبارة أدق يبين أثر البيئة في الشاعر ، فيقول عن عدي بن زيد مثلاً : « كان يسكن الحيرة ويراكر الريف ، فلان لسانه وسهل منطقة » (١) . وأشهر كذلك إلى أثر البيئة في شعر الشاعر مثل زهير وعلقمة .

(١) طبقات الشعراء ص ٥٠ .

على أن تقسيمه الشعراء الجاهليين الى شعراء وبر وشعراء
مدر ليسعرفا بما لاحظته من أثر البيئة في الشعر . وشييه بهذا تعليله
قلة الشعر في الجاهلية عند قريش والطائف وعلان بأن الشعر « انما
يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس
والخزرج ، أو قوم يغيرون ويقار عليهم . والذي قلل شعر قريش
أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان
وأهل الطائف » (١) . فهو — كما ترى — يعمد الى تعليل بعض
الظواهر الأدبية .

واذن فمن حق ابن سلام علينا أن نقر له بأنه أول من عقد
الصلة بين الزمان والمكان وبين الإنتاج الأدبي . ولم يكن يعنى
بالزمان مجرد سير الزمن فحسب ، بل كان يعنى مضمونه
وجوهره ، لأن الاسلام قد أحدث في حياة العرب ثورة روحية
ومادية كانت لها آثارها البعيدة في كل مظاهر نشاطهم .
وعلى ذلك لا يصح أن نجرى وراء من قال ان أدباء فرنسا
في القرن التاسع عشر هم أول من وضعوا مناهج النقد الأدبي
الجديد التي تقرر صلة الأدب بالبيئة والزمان ، وهم : « سانت
St. Beuve وتين Taine وبرونتير Bronetiere » . فقد فطن
ابن سلام الى هذا الأمر قبلهم بعشرة قرون .

وقد أضاف ابن سلام الى ذلك شيئاً آخر يسميه الدكتور
مندور « الفن الأدبي » (٢) ، وذلك لأنه رأى أن بعض الشعراء

(١) طلاقات الشعراء ١٠٧ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٤ .

قد انقردوا بنقن بذاته سيقوا اليه بدوافع حياتهم . وهؤلاء أصحاب المراثي مثل : متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة وكعب ابن سعد الغنوي . هؤلاء شعراء انسانيون ، قالوا الشعر لشقاء قومهم مما تجد .

ومع كل هذا يرى الدكتور مندور أن ابن سلام لم يتقدم بالنقد الفني الى الامام شيئا كبيرا (١) . والواقع أن له في النقد أثرا لا يصح أن نجحده .
ومع تقديرنا لكتاب ابن سلام وما فيه من آراء قيمة نأخذ عليه أمورا أهمها :

١ — أن تقسيم الشعراء الى أهل وبر وأهل مدر يحرمنا من معرفة قدر الشاهر ومكانه المناسب بين لداته . فنحن لا نعرف مثلا في أي طبقة يوضع حسان بن ثابت أحد شعراء المدينة ، وكذلك الحال في سائر القرى ، وذلك لأنه يضع شعراء كل قرية في مجموعة واحدة ، وهذا لا يبين مرتبة كل شاعر بين عامة الشعراء .

٢ — لم يصر بدقة على المبدأ الذي وضعه لمعرفة أقدار الشعراء ، وهو يقوم على أساسين : الجودة والكثرة . ويعيب عليه الدكتور مندور « تفضيله الكثرة على الجودة ، وتعدد الأغراض الشعرية على التوفر على فن واحد » .

والحق أن ابن سلام لم يقل بالكثرة المطلقة ، وانما قال بالكثرة الجيدة . ويدلنا على ذلك عبارته عن الأسود بن يعفر التي ذكرناها .

(١) النقد المنهجى ص ١١ .

أما تفضيله الشاعر المتعدد الأغراض على المتوفر على فن واحد فلا أرى فيه بأساً ، لأن تعدد الأغراض من المزايا التي ترفع من شأن الشاعر ، ولهذا وضع كثيراً في الطبقة الثانية وجميلاً في السادسة ، وقال لن كثيراً له في فنون الشعر ما ليس لجميل (١) .

٣ — ان جعل الشعراء عشر طبقات أمر عسير وغير مقبول ، وقد أشرنا إلى هذه النقطة في فصل سابق ، والأوفق والمعقول أن يكون الشعراء ثلاث طبقات ، فالأفذاذ النبغاء في الطبقة الأولى ، والمتأخرون في الطبقة الثالثة ، وما بين الطبقتين هم أوساطهم ويوضعون في الطبقة الثانية . وبهذا يمكن في سهولة ضبط أقدار الشعراء .

ومما يدلنا على أن ابن سلام قد أرهاق التقيد بهذا التقسيم أننا نراه بعد الطبقة الثالثة أو الرابعة يسرد الشعراء سرداً في الغالب من غير أن يذكر سبب وضعهم في طبقاتهم .

٤ — أهمل ابن سلام بعض الفحول مثل عمر بن أبي ربيعة والكنيت الأسدي ، وهذا يدل على أنه لم يكن دقيقاً في تقسيم الشعراء .

٥ — والقارئ لطبقات ابن سلام يجد فيها شيئاً من الخلط ، فتراه مثلاً يضع شاعرين جاهليين هما بشامة بن الغدير وقراد ابن حنش بين الشعراء الإسلاميين في الطبقة الثانية (٢) .

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٠٥ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٤١ .

أما مقدمة الكتاب فلاضطراب فيها واضح ، وقد تناولنا ذلك
في فصل سابق .

ولا شك أن ابن قتيبة قد انتفع بكتاب ابن سلام ، واستأنس
ببعض ما ورد فيه من أفكار نقدية ، وأخذ منه كثيرا من أقوال
النقاد وآرائهم في الشعر والشعراء .

وانى لأعتقد أن كتاب ابن قتيبة أجدى على النقد والأدب من
كتاب ابن سلام .

الفصل الثالث

ابن قتيبة والمبرد

كان الرجلان متعاضرين ؛ فقد ولد محمد بن يزيد المبرد سنة ٢١٠ وتوفي سنة ٢٨٥ ، وولد ابن قتيبة سنة ٢١٣ وتوفي سنة ٢٧٦ ، وعاش كلاهما في بغداد شطرا من حياته ، إلا أن المبرد قضى الشطر الأكبر من حياته في البصرة . وهو بصرى المذهب ، ويقول عنه البغدادي : « وكان في العلم بنحو البصريين آية » (١) . ويقول ياقوت أنه كان امام المذهب البصرى ببغداد « وكان حسن المحاضرة فصيحاً بليغاً مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة » (٢) . ويقول عنه السيوطي : « ولم يكن في وقته ولا بعده مثله » (٣) . وقد روى عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني . وكانت صلته بالأخير أقوى وأشد ، فابن خلكان يذكر أن المبرد كان يحضر حلقة السجستاني ويلتزم القراءة عليه وهو غلام وسيم في نهاية الحسن ، فمال إليه أبو حاتم

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣٨٠ .

(٢) معجم الأدباء ١٣٧/٧ دار المأمون .

(٣) الزهر ٢/ ٤٠٨ الطبعة الحديثة .

أشد ميل وقال شعرا يشكو صباهه وهيامه به ، وتستطيع أن
تقرأ هذا الشعر في ابن خلكان (١)
وكان يتنازع رئاسة العلم ببغداد هو وأبو العباس ثعلب
الكوفي المذهب ، وهذا الاختلاف في المذهب كان من أسباب
النزاع بينهما .

ومع تعاصر المبرد وابن قتيبة نجد الفرق بينهما كبيرا جدا في
التأليف ومنحاه ، نظرا لاختلافهما في العقلية والثقافة والجنس .
فالأول عربي من ثمالة من الأزد من قحطان ؛ فهو يمثل الثقافة
العربية الخالصة خير تمثيل . والثاني مولد من أصل فارسي ، ويمثل
الثقافة الإسلامية بأوسع معانيها خير تمثيل كذلك .
وهذا الاختلاف في النشأة والأصل أوجد بين آثارهما فروقا
كثيرة .

وقد خلف لنا المبرد كتابه المعروف « الكامل » ، ونظيره لدى
ابن قتيبة كتاب « عيون الأخبار » . والفرق بين الكتابين كبير جدا
من ناحية المادة والمنهج : فالمبرد كان تلميذ الجاحظ ، وقد لازمه
مدة طويلة وروى عنه رأسا ، وهو يصرح بالرواية عنه في كتابه
هذا في كثير من المواضع . وله كتاب آخر في النحو اسمه
« المقتضب » (٢) ، وفيه يروى عن الجاحظ كثيرا من الشواهد .
ونحن نرى المبرد متأثرا بأستاذه الجاحظ أشد تأثر ، فكتاب

(١) وفيات الأعيان ٢٧٣/١ طبعة بولاق .

(٢) منه نسخة خطية بمكتبة الجامعة رقم ٢٦٠٦١ .

« الكامل » على نسق كتاب « البيان والتبيين » ، كلاهما يجمع المعارف المختلفة بعضها بجانب بعض في فوضى واستطراد . وكما ذيل الجاحظ كتابه بفصل العصا ختم المبرد مؤلفه بكتاب الخوارج . وأنت حين تتصفح كتاب الكامل تجده يأتي بمعلومات لا رابط بينها ، فأخبار ، يتلوها شعر في الغزل ، يعقبه شرح لمسألة نحوية ، فخطب جاهلية ، ثم رجع الى شعر الغزل ، ثم أمثال للحكماء ، ثم وعظ للوعاظ ، ثم مختصرات من مجالس العرب ، ثم بعض الأحاديث وأقوال الصحابة . وتراه يأتي بكلمة لأبي بكر رضى الله عنه في مرض موته ، تعقبها رسالة عمر في القضاء الى أبى موسى الأشعري ، وكتاب عثمان الى على حين أحيط به . وينتقل فجأة الى ذكر بعض ما دار من الكلام الحسن في الحروب الاسلامية الأولى كوقعة الجمل . ثم يعود بعد ذلك فيتحدث عن الغزل وطوائفه ، ثم يذكر أقوالا في دهاء العرب وحلمهم وكرمهم وشجاعتهم وبعض طرائف العشاق وتهاجى القبائل .. الخ . وهو يتعرض في أثناء ذلك الى شرح بعض الألفاظ وبيان معانيها المختلفة ويستشهد لكل معنى . وإذا ورد في المستشهد به كلمة لغوية أو نحوية تناولها بالشرح والاستشهاد كذلك .. وهكذا يظل يستطرد كاستاذ الجاحظ حتى تلفيه قد مضى بعيدا عن الموضوع الأول . وهو لا ينسى بين هذا وذاك أن يقحم بعض مسائل في النحو والبيان خلال الكلام ، يدافع الاستطراد .

وتراه يعنون كل مجموعة من المختارات بكلمة « باب » ، ويصعب أحيانا أن تفرق بين باب وآخر ، أو تدرك أنه جمع

معارف متناسقة ذات لون خاص في باب واحد ، اللهم الا في القليل النادر كباب الخوارج ، ومع ذلك لم يسلم هذا السبب من الاستطراد ، ويخيل الى أنه يستعمل كلمة « باب » في معنى كلمة « درس » كما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين . والدرس يكون كيقما اتفق ، لا يتقيد فيه بمنهج خاص ، وحسبه أن يكون فيه لغة ونحو وأدب .

فالكتاب — كما ترى — يرص المعارف رصا من غير أن تجمع بينها آصرة كما كان يفعل الجاحظ تماما .

وكتاب « الكامل » يمثل بحق الثقافة العربية أصدق تمثيل . ومنشأ هذا أن صاحبه قد اقتضرت معارفه على الثقافة العربية من لغة وأدب ونحو ، ولذا تجده لا يتعرض لغير العرب الا نادرا ، فلم يذكر لبزرجهم وأردشير الا تنفايسيرة . وفيه كلام عن الموالي ولكن انقشاه روح الرجل العربي ، ولم يرو منه الا ما يتصل بالعرب والمسلمين ؛ كالذي كان بين عبد الله بن عبد الأعلى واليون ملك الروم وقد أرسله عمر بن عبد العزيز اليه يدعو الى الاسلام . والذى كان بين الشعبي وملك الروم . وهذه أمور تدل على أن حظه من الثقافات الأخرى قليل جدا .

أما كتاب « عيون الأخبار » فيختلف عن ذلك تماما ؛ ففيه تنسيق ، وفيه ترتيب ، وفيه وحدة موضوعية لكل باب . فباب السلطان يجمع كل ما يتصل بالسلطان وبطاقته ، وباب الحرب يختار كل ما قيل فيها وفي آلاتها وميادنها ، وكذلك سائر أبواب الكتاب . وكل هذه المعارف مطعمة بأقوال فارسية وحكم هندية

وثقافة يونانية . وذلك كله يساق لنا في تنسيق بديع لا يقاس به كتاب الكامل . ومن أجل هذا كان كتاب عيون الأخبار ممثلاً للثقافة الإسلامية في ذلك الحين خير تمثيل .

وفي كتاب الكامل ظاهرة واضحة ؛ تلك هي روح التعصب القبلي . وتعليل ذلك يسير ؛ فالمبرد عربى أزدي يمانى كما ذكرنا ، فلا بد أن ينتجى الكتاب هذه الناحية العصبية بشكل ظاهر . فهو يتعصب للأزد والليمانين ولا يتردد في أن يروى الصحيح وغير الصحيح من الأخبار لاعلاء شأنهم . ففي أول الكتاب يختار قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الأنصار : « انكم لتكثرون عند الفزع وتهلون عند الطمع » ، والأنصار من الأوس والخزرج وهما قبيلتان أزديتان يمنيّتان . وبجانب هذا يختار قول أبى بكر في المهاجرين حين اشتدت به علة موته « ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعنى ، انى ولّيت أموركم خيركم ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه » ، وفي ذلك تعريض بالمهاجرين .

وقد ختم كتابه بباب الخوارج ، وهذا لا يخلو من معنى ؛ فإن المهلب بن أبى صفرة الذى قمع الخوارج وخضد شوكتهم أزدي يمانى ، وقد ناصره الأزديون « قبيلة المبرد الكبرى » في حربه تلك ، ولذلك نراه يفتخر بالمهلب وأولاده ويشيد بهم ويمزجهم في أخبارهم . ولا شك أن في الاشادة بهم اشادة بقبيلته .

وقد أولى اليمانيين عامة كثيراً من العناية ، فتراه يعقد باباً عنوانه « باب ذكر الأذواء من اليمن » يذكر فيه الأذواء في الجاهلية

كذى نواس وذى رعين ، وفي الاسلام كخزيمة بن ثابت
ذى الشهادتين . ولا يتخرج من أن يدس زيف الأخبار عن اليمانية ؛
فيذكر خبرا عمن كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية ..
فسعد بن معاذ الأنصاري هبط لموته سبعون ألف ملك لم يهبطوا
إلى الأرض قبله ، وحظلة بن أبي عامر الأنصاري غسلته الملائكة ،
وغير ذلك من غريب الأخبار .

أما ابن قتيبة فهو على تقيض المبرد ، لأنه غير عربي ، ولذلك
لم يتعصب لجنس من العرب بالذات ، وإنما تعصب للعرب جميعا .
وهو يحصل في ذهنه ثقافات عدة ، ولذلك تجد ذهنه مرتبا مصقولا ،
وهذا واضح كل الوضوح في كتاب « عيون الأخبار » .

وبعد ، فهذا هو ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، الذي كانت
حياته كلها جهادا متصلا في البحث والدرس والتحصيل والتأليف ،
والذي أسهم بنصيب موفوار في أوجه النشاط الثقافي التي وعائها
عصره كما رأينا ، حتى حق لنا أن نعتبره خير من يمثل ثقافة القرن
الثالث الهجري بكل ما فيها من ألوان المعرفة .

فقد عرفناه أدبيا ناقدا ، له جولات ثورية موفقة في ميدان
النقد الأدبي ، تنبىء عن عقلية متحررة وأفق واسع وذهن متفتح .
وله دراسات ضاربة تعتبر لبنات طيبات في أسس تاريخ الأدب .
وعرفناه لغويا ضليعا ، يؤرقه ما يقع فيه الكتاب والأدباء من
أخطاء لغوية فيجعل وكده أن يقوم ألسنتهم ويصلح أقلامهم .

وعرفناه رجل دين يؤلف في الحديث والتفسير ، ويأخذ مكانه
المرموق في امامة أهل السنة في زمنه ، ويشارك في المناقشات الدينية
بعقل حصيف وتفكير واع متشد .

وعرفناه راوية للأخبار والملح والأفاكية ، وما شابه ذلك
مما يقرى العقل أنسا ومتاعا .

وعرفناه ذا أثر بالغ في تأسيس الموسوعات العربية .

وعرفناه أخيرا رجلا تقيا ، كريم الخلق ، شديد الحب للإسلام
والعرب ، فحبس نفسه على الدفاع عنهم ورد كيد الشعويرة بكل
ما أوتي من قوة . ولم يمنعه أصله الفارسي من أن ينتصف للحق
وأن يحتاج شائئ العرب ، وأن يدحض بهتانهم في حرارة وصدق
واخلاص .

هذا هو ابن قتيبة أقدمه للقارىء في صورة أرجو أن تكون
واضحة دقيقة المعالم ، تبرزه من جميع نواحيه في نصفه وعدل .
والله تعالى يهدينا سواء السبيل ، وهو ولينا ونعم النصير .

المراجع العربية

لم أذكر المعاجم اللغوية التي رجعت إليها دواوين الشعراء الذين ورد ذكرهم في الكتاب ، وقد اكتفيت بذكر المراجع الهامة .

أخبار العلماء بأخبار الحكماء	القفطي
ارشاد الأريب الى معرفة الأديب «معجم الأديباء»	ياقوت الحموى
الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني
ابن الرومي : حياته من شعره	عباس محمود العقاد
الأشياء والنظائر	السيوطي
أدب الكتاب	الصولي
أدب الكاتب	ابن قتيبة
الأنساب	ألسمغاني
آداب الرواة	القفطي
أحياء علوم الدين	الغزالي
كتاب الأشربة	ابن قتيبة
كتاب الأنواء	ابن قتيبة
أعلام الموقعين	ابن القيم
أسرار البلاغة	عبد القاهر الجرجاني
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	المقدسي
أجزاء البيان	محمد كرد علي
أبو حنيفة	محمد أبو زهرة
أحمد بن حنبل	محمد أبو زهرة
الاختلاف في اللفظ والرد على المشبهة والجهمية	ابن قتيبة
الانتقلة في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء	ابن عبد البر
الأزمنة والأمكنة	أبو علي المزدق
الآثار الباقية عن القرون الخالية	أحمد البيروني
الإمامة والسياسة	منسوب الى ابن قتيبة
أعمال القائل	
أعمال المزاجي	
أخبار التحويين البصريين	أبو سعيد السيرافي
الاقتراح	السيوطي
الاقتضاب في شرح أدب الكتاب	ابن السند البطليوسي
الانصاف في مسائل الخلاف	ابن الأنباري
نخبة الوعساء	السيوطي

البیان والتبيين	الجاحظ
بسلوغ الأب	الألوسی
البخلاء	الجاحظ
تاریخ ابن الاثیر	السیوطی
تاریخ الخلفاء	طیفور
تاریخ بغداد	البغدادی
تاریخ الطب	
تاریخ أبی الفدا	
تاریخ ابن کثیر (البداية والنهاية)	
تاریخ مصر وولاتها	الکندی
تاریخ الخمیس	حسین الدیار بکری
تاریخ النقد الأبی عند الغرب	طه ابراهیم
تاریخ آداب اللغة العربیة	جورجی زیدان
تاریخ آداب العرب	مصطفی صادق الرافعی
تأریل مختلف الحديث	ابن قتیبة
تهذیب الاسماء واللغات	النوری
تفسیر سورة الاخلاص	ابن تیمیة
تلخیص ابن مکتوم	مخطوط بدار الكتب
تهذیب اللغة	الأزهري مخطوط بدار الكتب
تولی التأسيس	ابن حجر العسقلانی
تلقین المتعلم من النحو	منسوب إلى ابن قتیبة مخطوط
	مكتبة باريس
التنبیه والإشراف	المسعودی
تلخیص المفتاح	الخطیب القزوينی
تذكرة الحفاظ	الحافظ الذهبي
تاریخ ابن عساکر	
جامع بیان العلم	
حضارة الاسلام فی دار السلام	جميل، نخلة المدور
الجلوان	الجاحظ
خاص الخاص	الثعالبی
الخصائص	ابن جنی
دائرة المعارف الاسلامیة (الأجزاء المترجمة)	
دیوان الحماسة	أبو تمام
ذكر المعتزلة	المركزی
كتاب العرب (من رسائل البلفاء)	ابن قتیبة
روضات الجنان	الموسوی
زهیر بن ابی سلمی	عبد الحمید الجندی
شرح العیون	ابن نباتة

ابن قتيبة	كتاب المعارف
المرزباني	الموسم
ابن فضل الله العمري	مقدمة ابن خلدون
ابن قتيبة (مخطوط بكتبة جامعة القاهرة)	مسالك الأضرار
	المسائل والأجوبة
ياقوت الحموي	مخاضات الأدباء
البكري	معجم البلدان
المسعودي	معجم ما استعجم
محمد الخضري	مؤرج النصب
اليافعي	مخاضات تاريخ الأمم الإسلامية
ابن الجوزي	مرآة الجنان
عبد الواحد اللغوي (مخطوط بدار الكتب)	المنتظم
السيوطي	مراتب النجوين
ابن قتيبة	المزهر
ابن قتيبة	المصافي الكبير
ابن الجوزي	مشكل القرآن
ابن حبيب البغدادي	مناقب الإمام أحمد
ابن قتيبة	المجيرا
الشهرستاني	المبتدأ والقداح
الحافظ الذهبي	الملل والنحل
أبن الأثير	ميزان الاعتدال
ابن تغري بردي	المثل السائر
ابن الأثير	النجوم الزاهرة
ابن قتيبة	النهاية في غريب الحديث والأثر
التنوخي	النعم والبهائم
قدامة بن جعفر	نشوار المحاضرة
منسوب إلى قدامة ابن جعفر	نقد الشعر
محمد مندور	نقد النثر
ابن الأثير	النقد المنهجي عند العرب
المقرئ	نزهة الألباء في طبقات الأدباء
ابن خلكان	فتح الطب
الجهشياري	وفيات الأعيان
	الوزراء والكتاب

المراجع الاجنبية

- 1.—Encyclopaedia of Islam.
- 2.—I. M. Elhussiny : The Life and Works of Ibn Qutaiba.
- 3.—Huart : Littérature Arabe.
- 4.—E. Browne : Literary History of Persia.
- 5.—Gaudefroy Demombyne : Introduction au Livre de La Poésie et des Poètes.
- 6.—Nicholson : A Literary History of The Arabs.
- 7.—Gayangos : History of The Muhammedon Dynasties in Spain.
- 8.—Dozy : Recherches sur L'Histoire Politique et Littéraire de L'Espagne pendant Moyen Age.
- 9.—Charles Richet : Essai de Psychologie Générale.
- 10.—Le Baron Carra de Vaux : Les Penseurs de L'Islame.
- 11.—William Muir : The Califate : Its Rise, Decline, and Fall.
- 12.—M. Patton : Ahmed Ibn Hanbal and The Mihna.
- 13.—Howell : Arabic Grammar.

